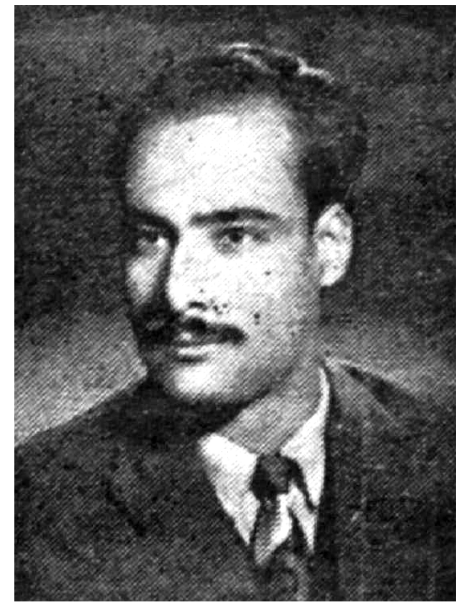

من وراء البحار

محمد كيلاني

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة

لم أرد أن أضع كتاباً وأرسم له أصولا وأهدافاً وأحدد له غرضاً كما يعمل المؤلفون عند الكتابة ، وإنما أحداث مرت بي وتمر بكل بحار مثلي فعمدت إلى تسجيلها ، وتسجيل تأثرى بها غير عامد نشر هذه الفصول فى يوم ما . فكأنى كنت أكتب لنفسى أحس فأسجل ما أحس ، وأنظر فأصف ما أنظر ، ومرت رحلة ورحلة ، واستمر هذا الشعور حتى كانت الرحلة السادسة فى تريستا وفيها فكرت فى نشر ما تجمع لدى لأعطى صورة عن حياة البحّار الواقعية . حياة أبلوها فى البحر عند ما تضرب الباخرة فى البحر ، وفى الموانى الخارجية عند ما ترسو الباخرة على إحداها . حياة يحياها البحارة المصريين والأجانب على سفنهم المتعددة الأجناس ، فهى تكاد أن تكون متشابهة . بحر شاق طويل مجهد فى أيام تطول أو تقصر تعقبها أيام معدودة فى أحد الموانى مفعمة باللذة واللهو وما تحدثه اللذة واللهو من تفكير وتأمل وعاطفة ، ويختلف ذلك التفكير والتأمل فى شخص ما عن الآخر باختلاف مزاجه وميوله ، ولكنها تتفق فى أنه ليس للإنسان الواعى أن يلتذ ويلهو كما تلهو السوائم وإنما يميزه أن يفكر ويتأمل ليس فى لذته ولهوه فحسب ، بل فى كل

وجه من أوجه الحياة . عشت هذه السنين مفكراً متأملا . بل كثير التفكير والتأمل فى كل صورة تعرض لى وما أكثر ما تعرض لى الصور مسجلا ذلك أولا بأول ، وما أن خطر بذهنى أن أنشر هذه الفصول فى يوم ما حتى زاد نشاطى فى الحركة والتنقل والمشاهدة ، وزاد تبعاً لذلك الأثر الذى يحدثه كل ذلك فى التفكير والتأمل حتى صرت فى النصف الثانى من هـذه الفصول أتحرك وأنتقل وأشعر لكى أكتب بعد أن كنت أكتب ما يحدث بغير عمد للحركة والتنقل والشعور ، ومعنى ذلك أننى صرت أكتب ليقرأ الناس ما أكتب ، وأحس لأصور للناس ما أحس ، وأنظر لأصف إلى الناس ما أنظر .

لست أدرى هل تروق هذه الطريقة بعض الناس أم لا وهل تعجبهم هذه الحياة الواقعية التى أعرضها أم تسوءهم ، ولكن الذى أدريه أن هـذه حياة حقيقية أحياها ويحياها العشرات بل المئات والألوف من البحارة فى جميع البحار فى جوف السفن وفى الموانى الكثيرة التى لا تعد . وقد حاولت أن أعبر عنها كما هى ولم أفكر أن أرضى شخصاً ما أو أسىء إلى شخص ما ، وليس يهمنى أن يرضى هذا أو يسوء ذاك بقدر ما يهمنى أن أوفق فى تصوير الحياة التى أريد تصويرها .

ولست أريد أن أكون واعظاً أو معلماً ، وكذلك لست أريد أن أكون بوهيمياً ، ولا أعرف أننى ضقت بمهنة ما كما ضقت بمهنة

التعليم ، وكيف أكون معلماً وما زالت الأيام تعلمنى كل جديد ، وكيف أكون أستاذاً وما زلت تلميذاً فى مدرسة الحياة ، ولست أريد أن أكون بوهيمياً أو بطلا من أبطال المغامرات ولكنى أريد أن أصور حياتى كما هى بما فيها من ملل وسأم ، وألم ولذة ، وما فيها من نفس الانسانية ضعيفة أقهرها مرة وتقهرنى فى أغلب المرات .

إذن فقد اخترت أن أكون كاتباً أو قل اختارت لى الظروف ذلك . فمن أى لون أريد ؟ لقد انقضى ذلك الزمن الذى كان الشعراء يتكسبون فيه بالشعر ، يقصرون مديحهم على بعض الناس يحمونهم ويكفلون لهم العيش . ويستأثرون بعد ذلك بما ينتجه لهم الشعر والأدب الذليل الذى يعيش لهم كما يعيش صاحبه لهم . وصاحبه لايستطيع أن يقف بمفرده ويواجه الحياة والناس ، وما ينتجه من الآثار المكتوبة لا تستطيع أن تدور حول صاحبها أو تعيش له وإنما تبحث عن شخص آخر تدور حوله وتعيش له .

لست أريد لنفسى مثل ذلك . لست أريد لهذا القلم أن يمالىء إنساناً أو يحميه إنسان يكفل له العيش الذليل والحرية الذليلة ، وإنما أريد أن يكون قلمى جزءاً منى ، كعينى التى أبصر بها ، وحواسى التى تسع الأحياء والأشياء جميعاً . أريد أن أخوض بقلمى الموضوع الذى أريد ، فى الوقت الذى أريد ، متمتعاً بهذه الحرية التى وهبها الله لعباده ، فبغير هذه الحرية المطلقة لن أنتج أدباً يستطيع أن يقف على قدميه .

أريد أن أصور نفسى عارية كما أرادها الله أن تكون وأعلم أن ذلك سيسىء إلى كثير ممن يتصدرون للدفاع عن العرف والتقاليد والأوضاع القائمة ، وقد يشاركونى بينهم وبين أنفسهم فيما أقول . حتى إذا هوجمت هذه التقاليد كشروا عن أنيابهم دفاعاً عنها . مثل هؤلاء كثيرون يعلقون شعورهم على شعور الجماعة ورأيهم على رأيها يرون حسناً ماتراه الجماعة حسناً من غير أن يحددوا لأنفسهم غرضاً وهدفاً ومعنى .

ومثل هؤلاء سيسوءهم ما أكتب لأنى أجرد هذه النفس كما أجرد ما ألقاه من النفوس عارية كذلك ، لايستر عريها شيء ، ولكنى سأسىء إلى نفسى أكثر مما أسىء إليهم لو عمدت إلى الأدب المتكلف الذى يبحث عما يرضى الناس ويتجنب ما يسوؤهم .

فإذا كنت أرى قطاراً يسير وعصفوراً يغرد ومياه تصطفق وأوراق تهتز ويعبث بها الريح فأحاول أن أجعل كل ذلك على الورق أحاول أن أنقل هذه الطبيعة بألوانها المتعددة بأدواتى من الكلمات والألفاظ كما يعمل الرسام بأدواته من الأصباغ والألوان ، وقد أنجح فى ذلك أو لاأنجح ، فإذا كنت حراً فى وصف هذه الطبيعة الصامتة فلماذا لا أكون حراً كذلك فى وصف هذه الطبيعة الإنسانية الحافلة بالمشاعر والأحاسيس ، وما يمنعنى من أن أظهر دخيلة نفسى ودخائل هذه النفوس الكثيرة التى يضل الانسان فى متاهاتها ؟

الرحلة الأولى

الملايو

الخميس ١٣ مارس

كانت أيامى هادئة وادعة فى المستعمرة الجبلية الملحقة بمصنع السماد فى مدينة السويس . كنت أعشق الاستقرار وأضيق بالمغامرة والتنقل ، تروقنى هذه الحياة فى جو السويس الدافىء ، ممتزجاً عملى الفنى بالكيمياء والميكانيكا متصلا بهذين اللونين الحبيبين الى نفسى .

حتى جاء نوفمبر وجدّت خطوب وحدثت أحداث . وذلك أن نشر الانجليز الرعب فى هذه المدينة الهادئة المطمئنة الوادعة ، وسفك أول دم وتوالى سفك الدماء بعد ذلك ، وحوصرت المستعمرة الصغيرة الملحقة بالمصنع حتى عزلت تماماً عن السويس كما عزلت السويس عن باقى مدن القطر .

وتعرضت العائلات لأزمات نقص الطعام — ثم انعدامه عن المستعمرة المحاصرة المعزولة ، زيادة على رعب النساء وجزع الأطفال وخلو أيدينا من شىء ندافع به عن أنفسنا .

وبين كل هذه الانفعالات — عمل أريد له أن يثمر ويستمر ويتصل ولكنه تتجاذبه أيد كثيرة ومشكلات عدة تريده أن ينقطع وينفصل ، وكان ذلك .

غادرت هذه المدينة الخائفة مخترقاً الحصار الذى فرضه الإنجليز على أبوابها ، كما غادرها الكثيرون ، وأرسلت كما يرسل الناس فى مثل هذه الحال خطابات كثيرة لشركات كثيرة منوعة ، ثم وجدتنى فى إحدى شركات الطيران أنفق شهرين هادئين فى العاصمة بين عملى فى أقصى مصر الجديدة وسكنى فى حى القلعة ، وفيما بين هذين الطرفين من حياة صاخبة فى بعض الأحيان هادئة فى كثير من الأحيان تأتى على كل ما عندى من وقت وجهد وفراغ .

حتى كان ذلك اليوم الخميس ١٣ مارس سنة ١٩٥٢ عندما أقبل عامل التلغراف يحمل برقية صغيرة تدعونى لكى ألحق بوظيفة مهندس بحرى على إحدى السفن . لم أتردد كثيراً وإنما هى دقائق أستعرض فيها حياتى الحاضرة الهادئة نوعا يقرب من الكسل وبين حياتى المستقبلة على ظهر إحدى السفن أو فى إحدى هذه البلاد التى تروى لنا حياة أقل ما توصف به أنها شاقة مجهدة وإن كانت رائعة ممتعة — اذا كانت حياة الفوضوى رائعة ممتعة .

رأيتنى بعد دقائق أقرر أن أجرب المغامرة وما قد تجره المغامرة من ربح محتمل . وأخوف ما كان يخيفنى أن تعارض أمى فى ذلك

فتضطرنى الى الجدال والحوار الذى أضيق به وقد تضطرنى الى أن آتى من الأمر ما لا تحب . وكم كان سرورى عند ما رأيتها تفكر قليلا ثم توافق .. ثم تشجع وتقضى بذلك على البقية الباقية لى من تردد .

كان الوقت صباحا عندما وقفت الباخرة بعض لحظات فى ذلك الفضاء الواسع بعد أن عبرت القناة . ذلك الفضاء الواسع العريض الذى كنت أنظر إليه من نافذة غرفتى فى مستعمرة السويس ، حيث كانت تسليتى أن أرسل الطرف الى هذه السفن الرابضة على بعد ٣ أميال بعد أن عبرت القناة أو فى انتظار دورها لتعبرها . وما هى إلا ساعات أو لحظات حتى تختفى ولا تترك أثراً ما بعد أن كانت متلألئة الأنوار كأنها شعلة متوهجة فى مياه امتزج بها ضوء القمر فشفت وصفت وسحرت الألباب .

كنت أرى هذه السفن التى لا ينقطع ورودها مستقبلة الهند أو مقبلة منها ، وها قد دارت الأيام ورأيتنى أقف على حاجز السفينة التى توقفت لحظات فى مياه السويس ثم أخذت تنساب ببطء مارة بهذه المستعمرة التى أنفقت فيها عامين ، حياة مضت بحلوها ومرها ، وحياة أقبلت لا أدرى ماذا تخبىء لى الأيام فيها .

كنت أكتم الألم الشديد وأنا أغادر حياة ألفتها ولا أدرى متى سأعود اليها . وقد لا أعود .

انطلقت الباخرة ١٣ يوماً فى بحر هادىء ساكن وريح معتدلة

طيبة . لم أشعر بذلك الدوار الذى كنت أعد نفسى لمناوئته والصمود له حتى رست الباخرة فى مدينة بينانج Penang وكانت أول مدينة غريبة تقع عليها عينى ، مدينة نظيفة ذات طرقات مستقيمة جميلة تذرعها عرائس جميلة تخطر فى بيجامات أنيقة ملونة. لهن سحنة اليابانيات بشرة صفراء وعيون ضيقة مائلة متجهة الى أعلى .

والأهالى تجار أغنياء يتكلمون الإنجليزية والأردية ولغة الملايو التى تكتب بحروف عربية ثم السنكريت ذات الرموز والصور التى تشبه لغة اليابان . ومنهم من يجيد العربية إجادة تامة . ومن التقاليد التى يحرصون عليها هى خلع أحذيتهم ونعالهم قبل دخول منازلهم . ففى كل مكان سواء كان متجراً أو معرضاً أو مطعما ، فى كل هذه الأماكن كنا نرى درجا خشبياً صغيراً منزوياً فى أحد الأركان يؤدى الى صاحب ذلك المكان سواء كان مطعما أو مخزناً من مخازن التجارة وأمام هذا الدرج يخلعون نعالهم .

والجمال لا بأس به فى هذه البلاد النظيفة نوعاً ما وإن كنا فى الواقع نحتاج إلى بعض الوقت لنفهم هذا الجمال ونتعود عليه ، فهو لأول وهلة غريب علينا غير مألوف ، ولكنه بعد يوم أو يومين عند ما نقلب الطرف فلا نجد غير ذلك النوع المتشابه عند ذلك تألفه عيوننا وتستسيغه نواظرنا حتى أن هناك بعض الإنجليزيات

المستوطنات كن يظهرن أمام أعيننا فى جمال عادى يقل كثيراً عن جمال ذوى البشرة الصفراء .

والتاكسى فى هذه البلاد يشبه الدراجة ذات العجلات الثلاث التى تنقل عليها البضائع فى مصر ، فهى لا تزيد عن صندوق خشبى مفتوح به أريكة خشبية نظيفة تتسع لشخصين والسائق على كرسيه الخلفى يجهد نفسه فى سباق زملائه ومنافستهم فى الطرقات المضيئة المنزلقة بما فيها من مياه الأمطار ، فخوراً بما تحمل عربته ، التى لا تخلو أحياناً من عروس فاتنة جميلة .

والأراضى جبلية مرتفعة كانت تلوح لنا ونحن على سفينتنا على بعد عدة ساعات كأنها جبال سوداء حالكة السواد حتى أننا تشاءمنا منها ، وعند ما أتيحت لى الفرصة ورأيت هذه الجبال عن قرب رأيتها جبال مزروعة خضراء كثيفة الخضرة زاخرة بالشجر والنخيل . وفى يوم من أيام الآحاد انتقلت إلى إحدى هذه الجزر الصغيرة على ظهر سفينة بخارية تحمل الأهالى وبضائعهم وعرباتهم من جزيرة إلى أخرى . قضيت يوماً كاملا فى إحدى هذه الجزر مشاهداً الفلاحين عن قرب فى بيوتهم الخشبية الأنيقة ، والقرويات يجففن حبوب القمح القليلة الثمينة على أغطية من الخوص اللين فى الطريق الريفى الخالى تحت أشعة الشمس الحامية .

وفى أحضان ذلك الجبل مستعمرات صغيرة أنيقة مكونة من

عدة بيوت متقاربة تشيع فيها البهجة ، وتنطلق منها نغمات الموسيقى كما تنطلق من المقاهى والأسواق المكتظة بالمانجو والأناناس . وعلى امتداد البصر يربض الجبل العالى الشديد الاخضرار كأنه الهرم الحارس على هذه القرى الآمنة الوادعة .

واللغة العربية مقروءة مسموعة فى كل مكان بجوار لغة الملايو وإن كانت اللغة الانجليزية هى الأكثر انتشاراً من هاتين اللغتين .

وليست الجماعة فى هذه البلاد منسجمة متجانسة وقد تكون أصبحت كذلك الآن بعد أن مضى على زيارتى لها عامين تقريباً ، فهنالك التجار المسلمون ومعظمهم أغنياء يصرفون بأيديهم التجارة الرئيسية فى البلاد ، وهؤلاء ينطقون اللغة العربية بجوار لغة الملايو وهم سكان البلاد الأصليين ، وبجانبهم جالية كبيرة من الصينيين يصرفون تجارة عريضة ناجحة ولهم لغتهم وتقاليدهم وولاؤهم لأمهم الكبرى الصين .

ثم جالية أخرى للهنود مسلمين وغير مسلمين ولهم لغتهم الخاصة وإن كانوا أقرب اندماجاً من غيرهم مع أهل البلاد الأصليين . وبين كل هؤلاء الانجليز المقيمين للتجارة والسيطرة على كل شئون البلاد ، ومهاجرون نازحون من اليمن وعدن وشبه جزيرة العرب . وبين هذه الجماعة الغير منسجمة المتباينة المشارب والأهواء والميول

كانت فكرة الاستقلال نائمة فى الصدور لا يظهر منها ما يدل على وجودها ، ولكننا بعد أن تجاوزناهم بشهور قليلة سمعنا الكثير بعد ذلك عن نشاط الثوار ومقاومتهم للإنجليز . وليس عجيباً أن توحد الحرب بين جماعات مختلفة ومصالح مختلفة فى شهور قليلة ، ولا يستطيع السلم أن يؤدى ذلك فى بضع سنين .

والأهالى يحبون اليابانيين حباً جماً فقد تأثروا بهم وبنهضتهم فى خلال حكمهم الطويل لهذه البلاد بقدر ما يكرهون الإنجليز كراهة مطلقة ، وقد تتجه أنظارهم اليوم إلى الصين الشيوعية التى تتزعم هذه المنطقة الآن ، وتحتل المنزلة التى كانت تحتلها اليابان فى أذهانهم .

ولعلها أى الملايو قد عرفت الشيوعية ولم تكن تعرفها من قبل أو لعلها نهضة شعب يريد أن يتحرر من مستعمريه فيتهم بالشيوعية من هؤلاء المستعمرين ثم يحارب بعد ذلك .

وإن أنظارهم لتتجه إلى مصر ولكن مصر البعيدة النائية لا يبدو عليها أنها تلتفت إلى هذه الأقطار أو تشعر بوجودها .

والإنجليز بين هذه الجماعات وبين هذه الانفعالات المختلفة يعيشون ويقومون بمهمتهم فى خدمة الامبراطورية العجوز الفانية ففى مثل هذا التباين والاختلاف يستطيع الاستعمار أن يقوم بدوره كأحسن ما يمكنه أن يقوم .

وسيأتى اليوم الذى تتوحد فيه هذه الجماعة ، وتشعر بجنسيتها وتتقدم مشاعرها وميولها ومصالحها وعندئذ تسير فى طريق الخلاص

كلكتا

مايو . . . لم أكن أدرى وأنا أقرأ كتاب كليلة ودمنة أنه سيكتب لى أن أرى الهند والهنود فى بلادهم . وكانت مدينة كلكتا هى أول مدينة خرجنا منها لا نستطيع أن نحكم لها أو عليها . فقد رأينا فيها حسنات كثيرة ومساوىء كثيرة ونحن بين هذه وتلك لا نستطيع أن نحكم لها أو عليها . وهى بذلك تشبه مدينة بينانج فى الملايو إلا أن هذه صورة كبيرة واضحة أمامنا عيوبها كما هى واضحة أمامنا محاسنها . أما فى الملايو فهى مدينة صغيرة تفتننا محاسنها التى قد تفوت علينا ملاحظة عيوبها .

وكلكتا مدينة كبيرة لا حد لاتساعها ونهايتها تختلط فيها القصور المترفة بالأكواخ الفقيرة البائسة . وبها الطرق النظيفة التى تذرعها العربات والترام وتزدحم بالمارة وينظم فيها المرور كما ينظم فى بلاد الإنجليز حيث الجانب الأيسر للذهاب دائماً بدلا من الجانب الأيمن . بها بجانب ذلك هذه الطرق التى لا تقل عن مثلها فى عواصم الدول الكبرى طرقا مطروقة ضيقة تذرعها قوافل الحيوان وتترك فيها ما تترك من روث .

وملابس الهنود تكاد تكون على الفطرة يغلب عليها اللون

الأبيض كهذه الصورة التى نتخيلها عن البراهمة . فيرتدى الرجل سروالا من القماش القطنى الأبيض الخفيف كذلك الذى يلبس عند النوم فى غير أناقة أو عناية ، وفوقه قميص من نفس اللون وهو كل ما يمكن أن يعتبر من الزى الأوربى ، وفى قدمه نعل خفيف مفتوح تبرز منه أصابعه . ويتمايز الغنى والفقير منهم فى هذا الثوب بدرجة نظافته ونوع القماش الذى اتخذ منه . ولا يرتدى الزى الأوربى غير رجال البوليس والمرور . أما النساء فيرتدين ذلك الزى الوطنى « السارى » متعدد الألوان يلحن فيه فى جمال شرقى فريد . وكانت إحداهن تقف على شاطىء النهر المقدس وقد انحسر الماء عن حصواته الدقيقة الصغيرة ، وبرزت أصابع قدمها الجميلة البيضاء من طرف حذائها المترف المكشوف وبرز ذراعها الناصع البياض من ذلك السارى الأبيض الأنيق وتناثرت على كتفها جدائل شعرها الأسود اللامع يميزها النعيم بطابع غير طابع البائسات الكثيرات فى شوارع كلكتا — ولا عجب فإن للنعيم سحراً يجريه على هذه الوجوه فيخلع عليها جمالا فوق جمال وسحراً فوق سحر . وكم من جميلات حرمن من ذلك النعيم ، ومن ردائه الساحر الجميل ، وخلع عليهن الفقر الذبول والنحول ، فترك فيهن آثاراً تنبو فى العين وتبعث فى النفس الإشفاق والحسرات . وكيف إذا اجتمع النعيم والجمال وتعاونا على خلق صورة نادرة المثال تستهوى القلوب وتفتن العقول والأرواح

كانت تقف على شاطىء ذلك النهر الذى يعبده الهنود خاشعة صامتة كتمثال جميل تتمتم شفتاها بكلمات لا تزيد على أن تكون همساً لا ندرى نحن أهى نجوى تناجى بها ذات نفسها وتشهد عليها ذلك النهر أم هى رسالة تبلغها إلى هـــذه الأجساد التى احترقت وذر رمادها فيه . أهى عبادة لذلك النهر كما يقال عن الهنود أم هى عبادة لرب ذلك النهر ، ولكن الناس أخطأوا فهمها فنسبت لذلك النهر الوادع بدلا من أن تنسب لخالقه .

رأينا ذلك النهر حين يكون وادعا تجرى أمواجه حمراء هادئة كأنها تروى قصص الدماء التى رويت بها وتحمل بين طياته الهادئة أرواح الملايين المعذبين فتسير هادئة رفيقة بما تحمل تصور ببطئها وكسلها الرضا والأمن والدعة .

ثم رأينا هذه الأمواج تثور وترتفع كما لم يرتفع أى موج قط يجاوبها البرق والرعد كأنها صرخات المعذبين الذين اختير هذا النهر ليكون قبراً لأجسادهم ، فهى لا تصور الآن أمناً ولا رضى ولا دعة ، إنما تصور الذعر الذى انتشر فى كلكتا فتعطل المرور ووقف الترام وطغت مياه النهر على الشاطىء وتعاونت جميع عناصر الطبيعة البرق والرعد والمطر كأنها قد فكت من عقالها واتفقت على أن تحول النهار إلى ليل مظلم والأمن إلى خوف ثقيل والحياة المطلقة إلى خمود وركود أقرب الى الموت .

فوجئنا بهذه العاصفة المروعة تحصرنا بعيداً عن السفينة التى حجبها عن أعيننا الظلام والضباب والطوفان . ولجأنا إلى جانب الطريق وإلى جانب هذه الكتل البشرية التى اعتصمت بالشرفات البارزة من نقمة الأمواج وهى تسفع الوجوه ، والريح التى تصفر فى الآذان بموسيقى مخيفة مرعبة . وهكذا انقلب النهر الوادع فى بضع لحظات إلى نقمة مسلطة وعذاب مقيم .

ومن العادات البغيضة فى بلاد الهنود ، شىء لا أستطيع أن أسميه عدة أخلاط وألوان يجلس بها الباعة على قارعة الطريق كأنها الألوان التى يستعين بها الرسام على رسم ما يريد .. فهى ألوان أحمر وأخضر وأصفر يخلطها الباعة فى ورقة من أوراق الشجر ملفوفة كالكرة ويبتاعها المارة فى نظير بضع أنات ليمضغوها بعد ذلك ، يمضغها الرجال والنساء والصبيان وإن كانت أكثر شيوعا بين الرجال عنها بين النساء . . يمضغونها فى غير رفق ويلوكونها بألسنتهم كما تلوك الريفيات فى مصر قطع اللبان . فتصطبغ شفاههم وثناياهم بلون أحمر كما تصطبغ شفاه النساء سواء بسواء ، ويتصل بألسنتهم بعض ذلك اللون ويصبح الفم كالجرح الذى يقطر منه الدم فيثير فى نفس الأجنبى كثيراً من الاشمئزاز والنفور . ويظل الرجل لا يكف حلقه عن الطحن والابتلاع والمضغ حتى يبلغ من كرته ما يريد أن يبلغ ويلفظها

بعد ذلك بجانب الطريق ولا يفكر فى أن يغسل ما أصاب فمه بعد ذلك بل يروح ويجىء وعلى فمه ذلك اللون الذى يميز النساء .

ومن العيوب التى لا تنسى الريكشا ، وهى التاكسى فى مدينة كلكتا عبارة عن عربة كالتى تجرها الخيل فى مصر ، ولكن يجرها آدمى فى كلكتا نصفه الأعلى عار فى غالب الأحيان يعدو حافياً وهو يجر عربته تحت حرارة الشمس القاتلة فى شوارع كلكتا الطويلة لمدة قد تصل إلى نصف الساعة فى نظير روبية واحدة . أى سبعة قروش ، وكم كان ألمنا شديداً أن نركب هذه العربات التى يجرها آدمى مثلنا . يلهث كما تلهث الخيل ، يعدو عدواً سريعاً لعل فى سرعته أن ترفق الأرض الملتهبة بأقدامه الحافية .

اضطررنا إلى ركوب هذه العربة اضطراراً عند ما أضرب عمال الأتوبيس فى أحد الأيام التى أقناها ، وتعذر علينا السير فى الشوارع الطويلة الملتهبة ، الشوارع طويلة لاحد لطولها حتى أن أقصرها يبلغ طوله عدة كيلومترات ملتهبة تحت حرارة الشمس القاتلة التى تجعلنا نلهث إذا سرنا بضع خطوات ، ثم نجد فى نفس الوقت أحد هؤلاء البؤساء يستجدون يلحفون علينا بالركوب ، فنضطر إلى الركوب ولا بد مما ليس منه بد ، فلم نكن نريد النزهة وإنما نريد الطبيب وقد كان أحدنا مريضاً لا بد له من العلاج ، وانطلقت العربة سريعة كما ينطلق بها الحصان السريع ، ونحن نكتم فى نفوسنا

الألم على ذلك المصير الوبيل الذى يتساوى فيه الإنسان والحصان .

وقد دفعت هذه الصورة أحد زملائنا بعد ذلك أن يتعاون هو وذلك الحصان الآدمى على جر العربة فلم تكد تنطلق به منتصف المسافة التى يريدها حتى أمره بالوقوف وأجبره على ركوب العربة وأخذ نفسه فى موضع الحصان وانطلق بها حتى وصل إلى غايته بين نظرات الأهلين الذين وقفوا ينظرون كأنما ينظرون إلى مجنون .

دفعه ذلك زميل رقيق القلب والعاطفة أن يقوم بذلك الدور الذى لا أشك فى أنه لم يقم أحد به من قبل ولن يقوم به أحد بعد ذلك فيما يجد من أيام .

أما نحن فقد امتنعنا عن ركوب هذه العربات ، وأخذنا أنفسنا بالمشى ، والمشى الطويل إذا لم نجد أى طريقة سليمة من طرق المواصلات ، وكنا نتعمد أن يكون سيرنا ليلا حتى نتجنب كثيراً من المناظر العنيفة المؤذية فكان الليل ستاراً يحجب عنا أشياء كثيرة لا يستطيع أن يحجبها ضوء النهار ، وكان لليل جمال يخلعه على الأحياء والأشياء فيستر الكثير عن البؤس والشقاء .

فى ضوء النهار نرى كتلا كثيرة عارية من اللحم البشرى تفترش الأرض فى الأماكن الضيقة القليلة التى يغمرها الظل فى الطريق العام .

ومن أشد هذه المناظر ألماً عجوز وقد التصق صدرها وظهرها التصاقاً شنيعاً ، وبرزت أعضاء جسدها من ثوبها المهلهل الممزق ،

وليس يؤلمنا هـذا الثوب المهلهل الممزق ، وإنما يؤلمنا أكثر الألم ذلك الجسد كأنه هيكل عظمى ، والوجه الأصفر كأنه وجه طفل حديث الولادة ، وقد يجرى فى وجه الطفل لون يدل على الحياة .

أما على وجه هـذه البائسة فليس هناك لون ما . ليس هناك ما يدل على جسم رجل أو امرأة ، طفل أو طفلة إلا ذلك السارى الذى كان يفتننا على النساء الجميلات ، ولـكن هنا لا يثير إعجاباً ولا فتنة وإنمـا يثير الألم الذى يصل إلى درجة البكاء ، فهى لا تستطيع أن تسـير أو تتكلم ، أو حتى تستجدى وتعمل عمل الآخرين الذين يكدون خلف كل سائح يلحون فى السؤال ويمعنون فى الإثقال يكررون الجملة الوحيدة التى يحفظونها حفظاً ويرددونها دواماً وهى ليس لى أب أو أم يا سيدى . مثل هؤلاء يحيطون بنا محاصرين ملحقين حتى يجهدوننا ولا يبلغ الجهد منهم شيئاً ، نشق طريقنا وسطهم بصعوبة شديدة وكفاح مرهق عنيف حتى كنا نضطر لزجرهم لنجد مكاناً للهروب . فلو أعطينا واحـدة فعلى بعد يرقبنا العشرات رجالا ونساءاً ليتراكموا علينا فلا نستطيع الخلاص .

مثل هؤلاء كانوا يستطيعون الكلام والحديث ، يستطيعون الجرى والعدو كالحصان ، أما هذه فكانت تسير عاجزة عن الكلام

والنطق بل عاجزة عن السير ، تسير كما يسير الهيكل العظمى وعلى شفتيها ابتسامة لا يفهم لها معنى — حواس متبلدة لا تفهم شيئاً أو تعى شيئاً ، وهل يترك الجوع شيئاً يجعل الإنسان إنساناً ؟ لا . لا يترك الجوع والفقر للحواس أن تعمل وللعقل أن يفكر ، أو يتذمر أو يشكو ، فهو فى هذه الدرجة الشديدة من الجوع والفقر لا يميز بين السخط والرضا ، ولا يعرف التذمر والشكوى ، ولا يعرف لكل هذه العواطف والانفعالات معنى ، ولا يحس لها وجوداً ، فهو كما يقول الشاعر عن الحمام الذى سلم فملأ الدنيا صياحاً ونواحاً ، ثم كسر جناحه فسكت ولم يملأ الدنيا صياحاً أو نواحاً .

لقد رأيت المتسولين فى كل بلد من البلاد التى رأيتها فى رحلاتى الكثيرة رأيت المتسولين فى روسيا التى كنا نعتقد أن الرغيف فيها قد أمم وأصبح مباحاً كالماء والهواء .

رأيت المتسولين فى بلاد الإنجليز وتصرف الحكومة هناك معاشاً ثابتاً منتظماً لمن يقعدهم العجز عن العمل ثم ينفق أحد هؤلاء المتقاعدين ما معه من نقود على الخمر ثم يلجأ إلى التسول .

رأيت المتسولين فى هولنده وكندا وفيها يلجأون إلى الآلات الموسيقية يسيرون صامتين يعزفون فقط فى الطريق والمكافية ولا يطلب أحدهم شيئاً فهو يريد أن يشعر أنه أجير يعمل شيئاً فى نظير ما يقدم له .

رأيت المتسولين فى كل هذه البلاد ولكنى لم أر مثل هـــذه الكثرة التى رأيتها فى بلاد الهند فى أى بلد من البلاد .

رأيت بعينى ما أكد لى شيئاً قرأته سابقاً عن مجاعة شاملة حاقت بهذه المدينة كلكتا حتى أن الناس كانوا يموتون بالمئات من الجوع فى الطريق العام ، وقرأت عن زوجة أخذت تصارع أحد هذه الكلاب الضارية الجائعة لترده عن جثة زوجها وهو فى النزع الأخير .

لقد حدثت هذه المجاعة فى يوم ما ، وكأنى بها الآن تتربص على أبواب هذه المدينة الفقيرة الغنية المتعلمة الجاهلة ، فكأنها قد جمعت كل المتناقضات ، وقد رأيت فيها من القصور والثروة والترف ما يذهلنا ويرينا كيف تكون القصور والثروة والترف ، وفيها بجوار ذلك البؤس البائس والفقر الوبيل .

والأهالى تجار بالفطرة كأغنى ما يكون التجار مخازن مكدسة بالبضائع وجيوب عامرة بالمال ، وتجارتهم الخارجية وثيقة الصلة بانجلترا ، وقد تكون وثيقة الصلة بروسيا فى يوم قادم ، فقد رأينا مندوبين روس يزاحمون رجال المال والأعمال الإنجليز .

والمتعلمون كثيرون وأكثر منهم الذين لا يعرفون أن فى الدنيا شيء اسمه العلم ، فقد أبلد الفقر حواسهم وجعلهم يحيون كما يعيش الحيوان تدفعه غريزته ليأكل أو يسجدى ما يأكل . رأينا كل هذه

المتناقضات فى مدينة بيدبا ، فكأنها تعيش على الفطرة تنمو فيها الثروة كأحسن ما تنمو لايعوقها عن النمو شيء . وسينمو فيها الفقر لا يمنعه مانع ولا يقف فى وجهه إنسان .

ومثل ذلك عن الجهل والمعرفة والعلم والخرافة ونحن من هذه السيئات والحسنات جائرون مترددون لانستطيع أن نحكم لها أوعليها

فحيثما نرى ما بها من الحسنات نحكم لها بأنها مدينة قاهرة تسير سيراً حثيثاً فى طريق المجد والقوة والنهوض ، ثم نرى ما بها من سيئات نحكم بأنها تسير فى طريق الفناء والانحلال ، أو لعلها بين هاتين الغايتين المجد والانحلال تتصارع تصارعاً عنيفاً وستكشف الأيام عن نتيجة ذلك الصراع .

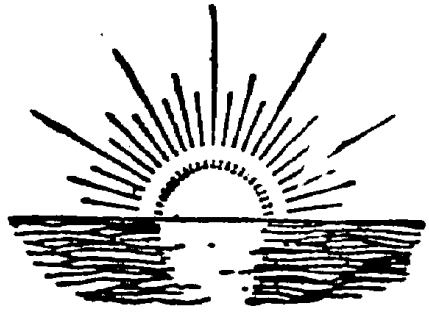

الرحلة الثانية

فى مدينة (أوديسا)

١٧ يونيه سنة ١٩٥٢

كانت الباخرة تحمل شحنة كبيرة من الجوت والأفاويه من الهند إلى روسيا ؛ فهى لم تكد تستقر فى ميناء الاسكندرية غير يومين حتى استأنفت سيرها تعبر بحر مرمره والدردنيل مارة على مدينة استامبول ، إلى أن رست على مدينة أوديسا .

ولم تكن لى صديقة واحدة فى بلاد العم ستالين فقد كانت لى عدة صديقات ، وفى أوديسا تعلمت بعض كلمات روسية قليلة فكلمة خراشو ومعناها جيد ، وسودانى معناها سعيدة ، وبهذه الكلمات القليلة وأمثالها استطعنا أن نتصل بالناس أو الفتيات على الأصح فى هذه المدينة المرحة .

وهكذا شهدت أوديسا أول عبث لى وكانت فولا الطيبة أول من أعطتنى ما أريد .

وجلست معها فى اليوليفار (الحديقة باللغة الروسية) حتى الساعة الواحدة والنصف صباحاً ، وهى لا تفهم من الإنجليزية

غير كلمتى نعم ولا ، وإن كانت لم تستعمل هـذه الكلمة الأخيرة طوال جلستى معهـا . وأنا لا أفهم غير أربع أو خمس كلمات من اللغة الروسية ولـكن للغرام لغة أخرى يعرفها المحبون أوالعابثون ، وبهذه اللغة عانقتها وقبلتها قبلات عنيفة مجنونة ، وكانت أول فتاة فى حياتى يمس فمى شفتيها .

كان معى أحد الزملاء بالباخرة وبذراعه زميلتها « نينا » وكان الوقت ليلا . فى إحدى هـذه الحدائق التى تطل على شاطىء البحر الأسود وتقع على أرض جبلية كثيرة الحنايا والمنعطفات فى هذه الحدائق المفتوحة دائماً بالليل فى روسيا كنا نجـــد منظراً فريداً لا تمل العين منه — أسراب الجميلات حيث الأجسام الرياضية الفارهة التى لم نر مثلها فى بلد آخر ، والملاح الروسية العذبة وأدب هؤلاء القوم وصفاء نفوسهم — والطبيعة الساحرة الفاتنة ، والبحر الهادىء الساجى تتلألأ فيه أضواء السفن الراسية ونحن ننظر إليها من عل .

والأرض التى اهتزت وربت نخوره بما تحمل من الجمال الساحر العذب كأنها الجنة التى وعد الله بها المتقين .

ثم جاءت لورا . ولا أدرى أيهما أقرب إلى قلبى ووجدانى من الأخرى . هذا سؤال لم أستطع الإجابة عليه ، والواقع أن هـذه جناية البحر علينا ، فلسنا سياحاً حتى نستطيع أن نمضى من الوقت

الذى نريد فى البلد الذى نريد نعطى قلوبنا حقها مع فتاة نميل إليها وتبادلنا نفس ذلك الميل ، ولكننا للأسف لا رأى لنا فى الاقامة التى نقيمها فى بلد ما ، ولا نستطيع فى نفس الوقت أن نستغنى عن الحب فهو الذى يجعل للحياة قيمة ، ولولاه لأصبحت حياتنا كحياة السجين .

وكم نتمنى أن نستقر فى بلد واحد ونخلص قلوبنا لفتاة واحدة بدلا من حياة الخطاطيف التى نحياها ، ولا تزيد علاقتنا مع فتاة عن أسبوعين اثنين وأحياناً عدة ساعات كما حدث مع لورا هذه . — ولورا طالبة حبيبة خجولة فى السابعة عشرة من عمرها تدرس لتكون مدرسة عرفتها أول يوم من أيام إقامتنا فى روسيا ، وكان ذلك فى النادى الدولى — الذى تنفق عليه الحكومة الروسية وتلحق به طالبات المدارس والجامعات ليتصلوا بالزوار والبحارة والأجانب وكان الوقت مبكراً ولم تحضر الفتيات بعد ، ولم أكن أدرى أى فتاة ستكون لى ولكنى كنت واثقاً من أنها ستكون جميلة فكلهن جميلات ، ومع موظف المكتبة الذى أبدى أسفه لعدم حضور الفتيات بعد — مع هذا الموظف جلست ألعب الشطرنج حتى ولجت الغرفة فتاتين عرضت كلاهما فى وقت واحد أن تبدأ معى اللعب ، فاخترت أقربهما وكانت الأصغر سناً والأروع جمالا ، وكانت لورا التى فتنت بها فتوناً . جلست معها عدة ساعات منفردين

فى أكثرها — لم تمسها يدى كما حدث مع فولا ، وإن كنت فهمتها أكثر من هـذه فلغتها سقيمة — رقصت معها أول رقصة لى وهى التانجو ، وجلست تدير معى حديثاً عذباً جميلا ، حدثتنى كثيراً عن روسيا وكذلك حدثتها عن مصر ، حدثتنى عن نفسها وحدثتها عن نفسى ، وشهدنا معاً أفلام السينما الروسية الملونة ، وكانت تترجم لى بالانجليزية موضوع الرواية التى كانت تمثل هتلر وهزيمة ألمـانيا، وضحكنا كثيراً على عصبية هتلر ، وكانت تضحك من أعماقها كطفلة بريئة ، كنا متلاصقين وقد تدانت رؤوسنا ونحن منهمكين فى الحديث — لا أدرى كيف زايلنى ذلك التحفظ الذى كان يميزنى ويطبعنى بطابعه — زايلنى كل ذلك فجأة ، وانطلقت فى غير تحفظ أدير الحديث والغزل والنكات ، وعندما يلمس شعرها وجهى أهمس فى أذنها ببعض كلمات الغزل الذى لا أجيده فتحمر وجنتاها خجلا ولا تدرى كيف تجيب حتى أشفق عليها .

هذه هى لورا التى لم أرها غير مرة واحدة وأرسلت لها خطاباً واحـــداً بعد سفر الباخرة ، وانتظرت أحسب ألف حساب إذا وصلنى خطاب منها فى مصر وما يحمل من اتهامى بأنى شيوعى ، ولم أرسل لهـا أى خطاب بعـد ذلك . وقد تكون نسيتنى كما نسيتها . وهكذا الحب لا يعيش على الذكرى فقط . وإذا حـــدث ذلك فستكون نهاية موته قريبة .

فالاتصال الدائم والمشاهدة المستمرة هى السبب الذى يقوى عراه بل يخلقه إذا لم يكن موجوداً بالفعل فى معظم الأحيان وبعد ذلك لا يكفى الحب وحده بل يلزمه الكثير من الرعاية حتى يقف على قدميه ، ويقاوم الأعاصير كالوليد الذى لا يستطيع أن يواجه الحياه بغير عناية أو رعاية .

وإن شريكين فى الحياة يربط بينهما الزمن فى عشرة واحدة ، وتحت سقف واحد ويواجهان معاً حياة مليئة بالتجارب مشحونة بالسعى والحركة ، منعمة باللذة والألم والمشاعر المتباينة التى لاتخلو منها ظروف الحياة وطبيعتها .

إن شريكين هذا حالهما لخليقين أن يربط بين قلبيهما حب وأن يكون حباً راسخاً متيناً يثبت أمام الزمن . أما الذكرى — الذكرى فقط — فهذا من صنع الشعراء وكتاب القصة . ومالى قد ذهبت بعيداً ، ولأعد إلى روسيا ، وأختم هذه الجولة القصيرة بفتاة ثالثة هى كالينا وقد جلست معها زمناً لا يزيد عن ساعتين — وقد كنت أسير مع زميل لى فى طريق مائل إلى أسفل نتكلم بصوت عال فى ذلك الطريق الخالى تقريباً — عند ما أقبلت هى وزميلتها والتفتت تنظر إلينا فاحصة وقد فهمت من لغتينا أننا أجانب ، وكأنها لم تر أجنبياً فى حياتها أو لعل لغتنا أثارت فضولها فدنت تستمع استماعاً ظاهراً وأسرعت أقول لها أول كلمة عرفتها وهى خراشو ولم أقف

والطريق المائل يجذبنى إلى أسفل ولكنى رأيتها استدارت وتبسمت وهى ترد علينا كأنها تدعونا ، وما أسرع ما لبينا وما أسرع ما رجعت معنا هى وزميلتها التى غاب عنى اسمها . وفى إحدى هذه الحدائق العامة وأمامنا غير بعيد تمثال العم ستالين والموسيقى الروسية العذبة تذاع من الراديو العام المعلق فى الحديقة وتصل إلينا الألحان الصافية مع صوت الأمواج الخفيفة التى ترتطم بالشاطىء القريب . كان الوقت ظهراً والسماء صافية . قضينا ساعة أو بعض ساعة نقرأ الكف . وإن كنا لا نريد قراءة الكف لذاتها بقدر ما نريد أن نحتفظ بهذه الأيدى الناعمة الطرية أطول مدة ممكنة فى أيدينا .

قضيت بضع لحظات أحدق منتشياً فى عينين خضراوين كعينى الهرة الأنيقة . وإن كانت شفتيها الباهتتين قريبة المنال . ولكنها كانت جلسة بريئة أخرى مع جامعية ممتازة من سكان مدينة تجاور مدينة أوديسا قد يكون اسمها كيف أو شيئا قريباً من ذلك . وكانت تؤدى دورها فى مباراه للباسكتبول فى ملعب أوديسا . وقد أردت أن أحتفظ بعنوانها لكى أراسلها ولم أنس ذلك طول جلستى معها كما لم تنسه هى كذلك ولكن المانع التافه هو أنى نسيت قلمى فى الباخرة ، ولم يكن مع أى فرد منا شيئاً نكتب به وهذا شىء سخيف ولكنه حدث . وانصرفنا على أن نتقابل فى اليوم التالى .

وعند ما جاء اليوم التالى كانت الباخرة تشق طريقها فى مياه البحر الأسود ميممة شطر استانبول .

وغادرت روسيا وفى ذاكرتى صـــور لفتيات ثلاث ، هن مختلفات فى الصفات والملامح والثقافة ولكنهن متشابهات فى روحهن الصافية المقدسة ، وهذه فولا ، وقد أرسلت لها خطاباً وأنا أعرف أنها لا تكتب الانجليزية ولا تستطيع أن تقرأها وستعتمد حتما على غيرها فى قراءة خطابى أو الرد عليه ، وقد أثرت فىّ لهفتها الشديدة وهى تودعنى حتى باب الميناء قبل سفر الباخرة بدقائق . ووصلتنى فى مصر صورتها فقط ولا أدرى هل هى التى أرسلت صورة فقط لعجزها عن الكتابة أم أن خطابها حجزته الرقابة وخاصة إذا كانت قد كتبته باللغة الروسية .

ولورا وقد أرسلت لها خطاباً كذلك ووصلنى منها خطاب قصير وصورة فاتنة فى وضع رائع كتب عليها هل يعجبك هذا الوضع .

أيتهن أقرب إلى قلبى هل هى فولا أم لورا أم كالينا وهى أجمل الجميع وأرقاهن ثقافة . الواقع أن لا هذه ولا تلك . فالحب لا ينمو فى بضع لحظات كما ينمو النبات الشيطانى ، وقد يكون ماحدث حباً أو شروعاً فى الحب . ولكنه قتل فى مهده ، قتل وهو وليد ، قتله البعد والسفر الفجائى . ولا أمل فى الرجوع أو العوده ونحن نحيا حياه أشبه شىء بحياه القراصنة حياه لا نريدها ولا نستطيع أن نغيرها

وإنما نستطيع الصبر عليها إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولا .

نزلنا هذه المدينة الخالدة بعد أن قضينا تسعة أيام سعيده ، وما أسرع مرور الأيام السعيده . ثم قضينا شهرين فى استانبول بعد ذلك حيث لمسنا الفرق الشاسع البعيد بين البلدين . فهناك سماجة الأتراك وجفاف طبعهم . وغلظة قلبهم . وهنا أدب هؤلاء القوم وسماحة نفوسهم .

وفى تركيا الحدائق مفتوحة بالليل كما فى روسيا مع فارق واحد هو خلو هذه الحدائق تقريباً من الزوار فهى صامتة موحشة كئيبة كأنها تنعى من بناها . أما فى روسيا فليس هناك موضع لقدم فى وسط الأضواء المتلألئة بالليل والموسيقى العذبة الرائعة واللغة نفسها عذبة رائعة ، فكأن اللغة والموسيقى توأمان لا تمل الأذن من سماعهما والفاتنات كأنهن فى مهرجان رائع أو أسطوره من أساطير التاريخ وجلساتنا معهن طاهرة بريئة حيناً ، وتترك أثراً لطيفاً لا ينسى فى غالب الأحيان .

ليس هناك أى وجه للمقارنة بين أوديسا واستانبول ، فقد قضينا فى الأولى تسعة أيام مرت كأنها تسع ساعات ، وفى الثانية أنفقنا شهرين نخرج يوماً ونعتكف أياماً فى سفينتنا لا نريد الخروج غادرنا هذه المدينة الخالدة وكان العم ستالين على قيد الحياة .

والفكره التى علقت بأذهاننا منها ، أنها أول مدينة ساحرة فاتنة شاهدناها ، لايضارعها فى عظمتها وروعتها غير «روتردام» فى هولنده و«سان جون» فى كندا ، وهى تمتاز عن هذه وتلك بالجنة الوادعة السعيدة ، يعيش فيها قوم سعداء مجدودون ميزتهم العفاف والاعتدال وسماحة الخلق .

وإلى اللقاء يا أوديسا . . إلى لقاء قد يكون قريباً .

« اسلامبول »

٥ يوليه ١٩٥٢

ومعناها بالتركية « إسلام كثير » . وقد أنفقنا فيها شهرين كاملين ، ومنها وصلنا خبر مولد الجمهورية المصرية الأولى التى خلصتنا من استبداد العائلة التركية التى لم تشعر بمصريتها فى يوم ما .

أنفقنا شهرين فى استانبول وتكون بذلك المدينة الوحيدة التى استطعنا دراستها دراسة كاملة فى مدة طويلة لم تسنح لنا فى بلد سابق .

تنقلت السفينة من مكان الى آخر فى ضواحى استانبول وعرفنا بسبب هذا التنقل أحياء كثيره مختلفة مثل إستينيه وليدو وكبتاش وجلطه وساريير وتقسيم والبسفور ، وهذين الأخيرين هما أجمل هذه الأحياء جميعاً وأقربها الى قلوبنا .

وفى «تقسيم» وهو الميدان الكبير الذى يتوسط المدينة وتتفرق

منه الطرق الى الضواحى الجميلة والمناطق الأثرية القديمة ، فى وسط هذا الميدان حديقة كبيره مفتوحة بالليل وإن كان الأتراك ينصرفون عن هذه الحدائق الى النوادى الليلية المكشوفة حيث تكثر ليالى السماع والطرب .

وعلى ساحل البحر عدة نوادكثيرة يقف على بابها الكثير من الرجال والنساء والأطفال الذين يعجزهم الدخول . وبالرغم من جهلنا باللغة التركية فقد كانت الموسيقى المنسجمة على صوت المطربة الفاتنة شيئاً نطرب له ولا نمل سماعه . وقد يكون للمنظر الجميل دخل كبير فى زياده الطرب ، فعلى قمة إحدى الروابى المرتفعة جلسنا نستمع وكأنما هى حفلة فوق سطح الهرم وتحتنا المدينة بأكملها بقبابها ومساجدها وبيوتها وطرقاتها الملتوية الضيقة كأنها فى واد عميق ، تتلألأ أضواء المنازل على مد البصر حول قطعة من ساحل البحر الهادىء الساجى الذى يقسم المدينة شطرين وتمتزج به وتفنى فيه أشعة القمر الفضية كما لو كانت بركة من الزئبق .

وفى البسفور وهو الطريق المنبسط الممتد على ساحل البحر ويشبه الى حد ما ساحل الاسكندرية . وفى هذا الطريق السهل على عكس الطرق الجبلية المرتفعة فى داخل المدينة . فى هذا الطريق تكثر النوادى الليلية الهادئة ذات الجدران الزجاجية التى لا تحجب

الرؤية ، وتمتد فى داخل البحر كأنها جزيرة صغيرة يحيطها الماء من جهات ثلاث ، وعلى طول الرصيف المقابل المشربيات الخشبية الدقيقة الصنع والشرفات البارزة ، كتلك الصوره التى نتخيلها عن المبانى فى عهد العباسيين .

والعمائر الحديثة ذات طابع خاص يميزها عن الطابع المصرى والرومانى ، وفى إحدى المساجد الأثرية القريبة من الميناء رأيت ضريحاً لاثنين من العرب القدماء وهما (وهب بن هبيرة ، وسفيان ابن عتيبة) وكم كنت أود أن أقرأ شيئاً عن تاريخ هذين لأعلم ظروف تواجدهما ووفاتهما فى هذه المدينة العريقة ، وكل ما أعلمه عنهما أنهما عاصرا عمرو بن العاص أثناء فتح مصر . وكان دليلى فى ذلك المسجد تركية حسناء فى مثل جمال الراهبة ، لم أكد أخلع حذائى حتى أقبلت ترش ماء الورد على رأسى وتقدم إلى علبة تحتوى على قطع الشيكولاته ، ثم جلست بجوارى كى تتأهب للصلاة وأنا أستمع إلى ذلك الواعظ الذى أخذ يقرأ علينا القرآن بلغة غريبة لم أفهم منها شيئاً ، لغة ركيكة مليئة بالأخطاء والتحريف حتى سمعت أحدهم يقول « حسبنا الله ونعم النكيل » بدلا من الوكيل . وقد كانت لغة الصلاة فى الباكستان التى رأيتها قبل ذلك أرقى وأسلم بكثير منها فى تركيا ، وتطوعت الراهبة المسلمة بعد ذلك لتطوف بى فى حجرات المسجد الأثرية ودهاليزه الرطبة المعتمة المنخفضة التى تكاد رؤوسنا

تصطدم بسقوفها ، وعند مغادرتى المسجد كان فى وداعى حسناء راهبة إذا جاز أن يكون بين المسلمات راهبات .

هيه يا قلب : ألست تريد صديقة فى تركيا ، وكنت تسمع وترى فى مصر عن التركيات ذوات الجمال الأصيل العريق ، وقد كانت تجاورنا فى مصر عائلة تركية أفرادها ذوى جمال فاتن وبشرة بيضاء كاللبن لا عهد لنا بها ، وأنت الآن فى مهد الجمال وعرينه ، الجمال الذى لا هو شرقى ولا غربى وقد يكون مزاجا بينهما . أيها تريد ؟؟ هل تذهب إلى بائعة اللبن ، وتدور حولها بضع دورات وتنسج الشباك حولها ، إذا كان عندك شباك أو كنت ممن يجيدون نسج الشباك . هذه البائعة التى كانت تختلس إليك النظر وأنت تلتهم عشاءك من الحليب والزبادى .

وهذه فتاة الصالون فى مثل جمال الروميات اللواتى تسمع عنهن فى الأساطير وقد مس ذراعى عفواً ما بين نهديها الثائرين فتطلقت أساريرها ببسمة عريضة زادتها جمالا وفتنة ، وزادها الدم الجارى المتدفق فى خديها حسناً ونضارة . وقد رأيت حلاقة الملايو من قبل ، البوذية السمراء التى تميل الى الصفره ، ورأيت حلاقة روتردام بعد ذلك ، ولم تكن هذه ولا تلك فى مثل جمال هذه الحلاقة التركية .

وفى الأوتوبيس القادم من ضاحية ساريير إلى ميدان تقسيم وقفت بجوارى غادة فاتنة ترتدى ملابس فاضحة مكشوفة تكشف

عن الذراعين والابطين وجزء كبير من الصدر ولم أستطع أن أمنع نفسى من النظر إليها ، ولعل النظر كان به الكثير من الشراهة العنيفة الواضحة وهذه الخبيثة قد لاحظت ذلك ، وبالرغم من أن بصحبتها رجل فقد كانت تثير غريزتى متعمده وعلى ملامحها ابتسامة متخابثة ونظرتى التى لم أستطع إخفاؤها مصوبة كالصاعقة إلى ماتحت إبطيها وهى ترفع ذراعا عارية فاتنة تهتز مع اهتزاز العربة وتهتز كذلك خلجات وجهى التى لم أستطع ضغطها والتى لا أدرى أى تعبير كانت تقرؤه هى يجعلها تزهو بفتنتها وسيطرتها . ونظرتى الجارحة التى كانت تسرها بدلا من أن تسوؤها وتواجهها بدلا من أن تتجنبها ، ويحضرنى قولٌ تولستوى عن هذه التى تهاجم أعصابنا وحواسنا فى غير ما هوادة ولا رفق ولا يعاقبها القانون على ذلك .

ضقت ذرعا بهذه اللعبة السمجة التى بدأت تلفت إلينا الأنظار وبذلت بعض الجهد لكى أدير ظهرى دوره كاملة رفقاً بأعصابى التى لا تريد هى الرفق بها ، ولعلها لم تفهم أننى أجنى رغم بشرتى السمراء حتى نبهنى عامل الأوتوبيس إلى المحطة التى أريدها بلغة إنجليزية ركيكة . فكان فى ذلك خلاصى من أسر هذه الفاتنة .

وفى يوم من أيام الآحاد ذهبت لزيارة كنيسة (اياصوفيا) ووقفت أمام البوابة الحديدية الضخمة فى انتظار موعد فتحها

وبجوارى عدد كبير من الزوار ، وعلى قيد خطوات منى سيدة تركية فاتنة فى العقد الثالث من العمر ومعها صاحبة لها أقل منها جمالا وعدة أطفال صغار ، وتملكتنى رغبة شديدة لكى يتصل بينى وبينها الحديث ، وما كدت أنجح فى ذلك حتى تدخل بيننا ضيف ثالث ثقيل الظل كان يراقبنى على بعد خطوات ، وانضم إلينا داخل الكنيسة بينما كنت أحمل له فى جنبى الغيظ بجانب الحب الذى أحمله لها ، ولكنى كنت أظهر له التجمل وأصطنع عدم الاكتراث ، ولم أكن فى حاجة إلى صداقة صديق أعرفه أو لا أعرفه ، وإنما كان يعنينى أن أسير وبجوارى أنثى تبادلنى الحديث والابتسامات ولا شىء غير ذلك . وماذا كنت أريد منهما وكلاهما أم ، وإنما هى كلمة من أنثى أو حتى بسمة عابره تعمل عمل السحر فى نفسية كنفسيتى أضناها العطش وأحرقها الجفاف . انتهينا من رؤية الكنيسة وعرضت علىّ إحداهما أن أذهب معهما لزيارة المتحف القريب منها الذى يحوى آثار العثمانيين فوافقت مرحباً ، ، وكان آخر عهدى بهما فى ذلك الفناء الخارجى الذى يحتوى على المدافع النحاسية المخضرة اللون بفعل الصدأ ، وعلى هذه المدافع كنت أقرأ النقوش والكلمات المكتوبة باللغة التركية القديمة ذات الحروف العربية والتى كانت هى لا تستطيع قراءتها كما كنت أنا لا أستطيع فهمها .

وقفت معهـــا بضع لحظات بعيداً عن ذلك الطفيلى وهى لا تعرف من الانجليزية شيئاً ، وإنمـا كانت لغتنا الاشارات وبعض كلمات قليلة التقطتها من اللغة التركية ، ومن أسئلتها وهى تشير إلى الأطفال : هل عندك أطفال ؟ فأجبت بالنفى . ثم نظرت إلى مستغربة ولعل شاربى الضخم هو الذى كان يضيف سنوات إلى عمرى ويجعلنى فوق الثلاثين وأنا دون الخامسة والعشرين فى ذلك الوقت . ثم قالت ألست متزوجاً ؟ فأجبت لا . وكم كنت أريد أن أقول إنى أريد أن أتزوج هل عندك عروسة مناسبة لى ؟ ولكن اللغة لم تسعفنى بذلك ، وعند ما انتهينا إلى الغرف المفروشة التى تحتوى على الفترينات الزجاجية المكدسة بالمجوهرات والتحف والملابس التاريخية . . فى هذه الغرف اختلط الحابل بالنابل وليس هناك موضع لقدم فى وسط صخب الأطفال وزحمة العذارى ، وفى غمره هذا الزحام افترقنا عنهما ، ودخلت غرفة إثر أخرى لعلى أراهما ولكن دون جدوى وذلك الضيف الثقيل مصر على مصاحبتى ، فانسحبت منه ، وأخذت طريق إلى الباخرة وأنا ألعن سماجة الأتراك ، الرجال طبعاً ، وفى ذهنى صورتها هى . . . صورة رائعة حية للفاتنات التركيات .

الرحلة الثالثة

ريتا — عروس من هولنده

كانت تمضى يوم عطلتها الأسبوعية فى روتردام عند ما تعرفت عليها هى وزميلتها « دوللى » وكان معى أحد الزملاء . دعوناهما إلى السينما فلبتا الدعوة وحددتا لنا موعداً الساعة الخامسة مساء من نفس ذلك اليوم وكانت الساعة حوالى الثالثة فى ذلك الوقت .

أخذنا نتجول وننفق بعض الوقت حتى اقتربت الخامسة ونحن فى طريقنا الى المكان المحدد الذى سنقابلهما فيه وإن كنت أظن انهما تهربتا منا ولن نراهما بعد ذلك . وزاغت عينى فى هولندية فاتنة حلوة القسمات ذات ملاح جميلة نبيلة تسير مع زميلة لها لا تدانيها جمالا . تقدمت إليهما ودعوتهما لتمضيا معنا بعض الوقت وقد شجعتنى هذه الحسناء بابتسامتها وسكوتها الذى يعنى القبول أكثر مما يعنى الرفض . فى الوقت الذى حضرت فيه ريتا وزميلتها وأسرع زميلى هارباً مبتعداً بينما أسقط فى يدى (وضربت لخمة) وكان أن انسحبت من الفتاتين انسحاباً ما زال يؤلمنى ذكره وما زلت أشعر بالخجل الشديد من نفسى كلما تذكرت هذه الفتاة المجهولة الاسم

وما ارتسم على ملامحها الجميلة النبيلة من ألم . وقفت مكانى حائراً عنيداً أريد أن أتقدم الى هذه الفتاة الخجولة وأضرب بصداقة ريتا عرض الحائط وألبى هذه النظرات العاتبة مرغبة مشجعة فى فى أول الأمر ثم واجمة بعد ذلك عندما أخذت أعبر الطريق إلى صاحبى وزميلتيه . ولو كنت مستطيعاً لانصرفت عن هذه وتلك بعد ما سببته لكلتيهما من حرج ، وإن كنت لم أخجل من ريتا بقدر خجلى من هذه الفتاة المجهولة الاسم .

أما ريتا فقد حفظت لى ذلك ولم تغفر لى هذا الخطأ فيما بعد ، وقضيت معها يوما واحداً فقط فى الكافيه والسينما بعد ذلك ولم تمانعنى ممانعة كبيرة عند ما هممت بتقبيلها أول مرة بل كانت ممانعة تحمل من الإغراء أكثر مما تحمل من الرفض . وسرعان ما توالت قبلاتى الجائعة المنهومة بمناسبة وبغير مناسبة على شفتيها الرقيقتين حتى كادت تدمى . أعتصرهما بكل قواى غير عابىء بذلك الرضاب الذى يصلنى منهما .

ولست أدعى أنى فهمتها فهماً كافياً فى خلال الساعات القصيرة التى أنفقتها معها ولكن ما أثر فىَّ هو نفسيتها الصريحة فى غير التواء ومظهرها الرائع فى غير تكلف ، ومن أسئلتى القليلة وأجوبتها الصريحة عليها تجيبنى بها من غير تحضير . هل تحبى الاقامة فى مصر

وجوابها لا أمانع فى ذلك . هل لك أصدقاء شبان فى هولنده ؟ وجوابها نعم ثلاثة . وعند ما قلت فى دهشة ثلاثة أصدقاء فى وقت واحد أجابتنى بصراحة عجيبة لقد تزوجوا من فتيات أخريات . ما هى صناعة والدك ؟ فأشارت بغير أن تجيب الى قطار بعيد .

ودخلنا السينما فى تلك الليلة ولا أذكر اسم الرواية التى شهدتها ولا أذكر شيئاً منها وبعد تردد منى طويل وبجوارى فاتنة فى سينما عامة يتشابك العشاق فيها بالأذرع والأيدى تحتنا وفوقنا وحولنا ومن كل جانب ولا نرى فى الظلام المخيم غير رؤوس متدانيـــة متلاصقة تدير بينها الهمس والنجوى . أخذت يدها الصغيرة الدافئة بين يدى أضغطها ضغطاً رقيقاً وأضمها على صدرى وفوق شفتى . وكأن لم يكفنى ذلك فأخذت يدى تزحف على ذراعيها وكتفيها الصغيرتين وشفتاى تمسحان خدها الرشيق وخصلات شعرها الكستنائى . وأنظر إليها فأجدها مسبلة العينين فى شبه نصف إغماءة فتمتد يدى أكثر من ذلك مطوقة خصرها الضئيل النحيل لأدير بيدى الأخرى ذقنها الدقيق وأمس شفتيها فى قبلة سريعة خاطفة .

وفى الطريق العـام حيث الضباب الكثيف وكان الشخص لا يستطيع أن يرى على بعد أكثر من عشر خطوات فى أى اتجاه كنت أوقفها عدة مرات لأقبلها قبلة طويلة لا تريد أن تنتهى حتى

اقترب منزلها وكأن شيئاً يهتف بي ، انني لن أراها بعد ذلك ، وقد كان ذلك .

* ✡ ✡

دخلت غرفتي في السفينة مع دخول الصباح أقضي ساعة مسهدة قلقة حتى كان اليوم التالي ، وامتنعت الزوارق البخارية عن المرور بالقرب من السفينة التي كانت تقف بعيدة عن الشاطىء . امتنعت الزوارق بسبب ذلك الضباب الملعون الذي كان مصدر بهجتنا ومرحنا بالأمس نسير في جوفه وكأنما نسير في جوف السحاب .

ولما لم نرهما بعد ذلك فقد أرسل زميلي لصديقته برقية بالانجليزية يدعوها لمقابلته وسبب لها بذلك ضجة عائلية كبيرة . وأرسلت بدوري خطاباً الى منزلها في قرية هلفرسم أحدد لها موعداً لرؤيتها قبل سفر الباخرة . ولكني رأيت دوللي بعد ذلك مرة واحدة ولم أرها هي . وقد عرض علي كثيرون أن يعرفوني بغيرها من الفتيات ولكني كنت صادقاً أرفض أن يكون لي ذلك القلب التجاري الذي لا يرحم أحداً ولا يرحمه أحد ، يتجر بعواطفه الرخيصة كل يوم وكل ساعة مع فتاه .

غادرنا روتردام مدينة الحب والخير والجمال .

مدينة الحب فقد كان لكل منا صديقة أو صديقات ذوى جمال نادر ومعظمهن شقراوات تميل رؤوسهن إلى الضخامة .

مدينة الخير قبل أن تحدث نكبتها الأخيرة التى أطاحت بأجود أراضيها الزراعية الساحلية والتهم الفيضان والطوفان فى ساعات ما أنفق فى تعميره وتشييده مئات السنين .

وقد ظلت أوديسا مثلا أعلى للمدينة الكاملة فى نظرى حتى جاءت روتردام ومسحت هذا الصدى مسحاً ، وكلتاهما قد تعرضتا لغزو الألمان فى الحرب العظمى الماضية . وأشهد أن آثار التخريب والأنقاض ما زالت باقية ظاهرة فى اوديسا أما روتردام فقد كانت فى أوج عظمتها لا أثر فيها لعمارة مخربة وللمبانى طابع أنيق لا تشركها فيه بلد آخر . تلوح عليها مظاهر الجدة كأنما بنيت لساعتها . وقد تأنق صانعها فى تركيبها ودقتها . فكل شىء دقيق أنيق وفى منتهى الأناقة بعد ذلك .

وقد رأينا السيدات بعد أن انتصف الليل أو كاد ينسللن إلى أفريز الطريق يردن ألا يراهن أحد ليغسلنه بمزيج الماء والصابون حتى يصبح الطريق لامعاً براقاً لم نر مثيلا لنظافته فى بلد آخر .

وفى هذا الجزء من العالم روح عالية للعمل والرغبة فيه والتسابق إلى إتقانه . ففى انجلترا مثلا حيث النظام الشديد الذى يدخل كل

شيء ويزيد فى كل شيء بل يكاد يفسد كل شيء . فلهم أوقات راحة كثيرة تتخلل فترات العمل وهم فى عملهم متباطئون متكاسلون حتى أصبحوا مثلا فى الحركة البطيئة الميتة ،فإن لبدنهم عليهم حقاً بل حقوقاً كثيرة فلا يصح أن يجهد فى عمل . أما فى هولنده فهم يعملون كأنما أصابتهم حمى العمل إذا كان للعمل حمى أو كأنهم فى حرب وميدان تلك الحرب هو المصنع أو الباخره التى يقومون بتنظيفها وإصلاحها فى الحوض العائم الكبير الذى تملك مدينة روتردام وحدها مايزيد عن العشرة منه ويجعلها ذلك فى مقدمة الدول التى تبنى السفن .

وهم فى كل هذه المرافق متحمسون محمومون كما يحم ويتحمس غيرهم فى مواطن اللهو والعبث والفراغ . بل هم فى مواطن اللهو والعبث والغرام معتدلون بعد ذلك يأخذون فى مرح هادىء وقدر سليم .

وفى هولنده كما فى انجلترا يشكون من فداحة الضرائب التى تبلغ ثلث دخل الموظف أو العامل العادى وقد تزيد عن ذلك فى بعض الأحيان ، ولكن بجانب هذه الضرائب تأمين اجتماعى شامل ضد الحاجة والعوز والعجز عن العمل . وليس هناك فقير محتاج أو مريض عاجز ، وكلهم فى مظهر واحد جميل يستمتعون بالحياة ولا يحملون لها هما .

وقد أمنت وسائل عيشهم واستقرت وبعد عنهم الخوف

والإشفاق والقلق وأقبلوا على الحياة بعد ذلك بقلوب مطمئنة مرحة في غير مجون ولا إفراط .

وأجمل شيء في روتردام المعارض الفنية الكبيرة ، وقد جعلت لها واجهات عريضة متسعة مسقوفة ومضاءة بالليل تعرض اللوحات الزيتية الرائعة التي تمثل مظاهر الحياة المختلفة في هولندة وتكثر فيها مناظر السفن الراسية في الميناء ، وأمواج البحر الهادئة في ساعة الغروب أو في ضوء القمر ، والأراضي الزراعية التي لا تخلو من طواحين الهواء التي تميز هذه البلاد وترمز لها ، حتى نجدها في أوراقهم المالية الكبيرة .

وهولندة دولة بحرية من الطراز الأول ، وهي دولة زراعية من الطراز الأول كذلك ، ولقد كنا نرى البيضة في مثل حجم قطعة الصابون الكبيرة . وفي الطريق عدد كبير من الأكشاك الخشبية الأنيقة لبيع البطاطس الساخنة ، كما تباع الذرة والفول السوداني في مصر ، ولا تخلو هذه الأكشاك من غادة جميلة في معطف أبيض أنيق وبيدها مقلاة ممتلئة دائماً وساخنة دائماً بذلك الصنف من الطعام يتناوله الهولنديون في أكياس صغيرة من الورق يلتهمونه واقفين في ظلال هذه الأكشاك الأنيقة .

والبرد شديد جداً في هولندة حتى يصعب إخراج أيدينا من معاطفنا والطريق مغطى دائماً بالجليد المتماسك كالصخرة حتى نسير

حذرين خوف الانزلاق ، وقد رأينا الجليد فى كندا أشد برودة مما فى هولنده ولكن كالرمال تغوص أقدامنا فيه وتترك آثاراً عميقة واضحة أما فى هولندة فكأننا نسير على صخرة بيضاء ملساء وعرة

غادرنا روتردام وفاجأتنا فى طريق العودة إعصار هائل لاينسى حتى أن المرشد الهولندى بالباخرة لم يتمكن من النزول فى مياه هولندا الاقليمية بسبب ذلك الاعصار العنيف ومكث معنا يومين حتى نزل فى ميناء دوفر الانجليزى .

وفى خليج بسكاى وهو اتصال الساحل الفرنسى بالساحل الاسبانى على شكل حرف ل فى هذا الخليج الذى يطلق عليه البحريون اسم مقبرة السفن رأينا أهوالا ستظل عالقة بأذهاننا لا تنسى لشدتها ووبالها .

وقد عبرت هذا الخليج بعد ذلك عدة مرات وأذكر فى كل مرة وأنا وسط هذا الخليج الملعون أنه يجب أن أبادر بالاشتراك فى إحدى شركات التأمين ، لكثرة ما تغرق فيه السفن .

واستمر هذا الاعصار العنيف حتى بعد أن دخلنا حوض البحر الأبيض المتوسط . وبالقرب من شاطىء تونس سمعنا بالراديو عن حادثة غرق الباخرة الفرنسية الضخمة شامبليون بالقرب من بيروت

وعدنا إلى ميناء الاسكندرية ونحن لا نصدق بالنجاة وقد ولدنا من جديد بعد أن رأينا الموت رأى العين .

الرحلة الرابعة

من مواليد روما

إسمها (Lili) ومعناها الزنبقة باللغة الانجليزية ، ذات ملامح رومانية صارمة وجمال صارخ عنيف . إنها شريكتى فى هذه الجناية التى يبيحها القانون الايطالى فى هذه البيوت الكثيرة الملعونة فى شوارع جنوا الأثرية العتيقة . أجل إنها شريكتى بعد عدة مرات ألج فيها هذه الأبواب المتجاورة وأجد لأول مرة المناظر العارية . فأنتزع نفسى انتزاعاً وأخرج من بينهم سليما حيث أقضى ليلة ليلاء فى غرفتى بالسفينة فى صراع عنيف مع الشيطان .

لقد حدث هذا عدة مرات كان يخيل إلى أننى منتصر على نفسى الأمارة بالسوء وشيطانى الذى يعربد فى أعصابى ووجدانى بلا شفقة ولا رحمة . لقد كنت منتصراً أو هكذا يخيل إلى ولكنى كنت فى الحقيقة كالبرج المتداعى على وشك السقوط بعد كل هذه الهزات العنيفة المتعاقبة . لقد كنت أقتل نفسى قتلا بطيئاً مريراً ، وأخف منه أن أقتل نفسى قتلا سريعاً عاجلا — لقد كنت مثالياً

ولكن على حساب صحتى وأعصابى . والله وحده يقدر أن أكون مثالياً على غير ذلك الحساب الجائر .

أما الآن فأنا لم أخدع أحداً ولم أغرر بأحد . وإنما أشعر اننى أكثر واقعية عما كنت من قبل كما تغيرت نظرتى إلى هؤلاء البائسات فأصبحت الرحمة والرثاء بعد أن كانت الكراهيه والاشمئزاز ، والنفور . وإن أخشى ما كنت أخشاه أن أفقد ذلك الشعور بالبراءة الذى يميز الرجل العفيف كما تفقد هى وصاحباتها الشعور بالحياء الذى يميز العذارى . ولكن ما حدث ينفى ذلك .

فقد وجدت فيها وهى ساقطة إنسانة لم تفقد إنسانيتها بعد ورب قلب نظيف طاهر بين هذه القلوب يندر وجوده بين من يطلق عليهن القانون والعرف اسم الشريفات . وأنا لم أفقد ذلك الشعور بالبراءة بعد مادمت أعامل كل فتاة وكل امرأه سواء كانت شريفة أو غير شريفة معاملة كريمة نبيلة . فلست إلهاً ولست قاضياً وأيضاً لست بلا خطيئة .

كان ذلك فى جنوا فى بدء رحلتى الرابعة وفى إحدى ليالى يناير الدافئة فى حجره مغطاه جدرانها بأربعة مرايا كبيرة وسقفها مرآة واحدة متصلة ، وعند ما تمرر الطرف يميناً وشمالا تجد أركانها تمتد امتداداً لا نهاية له وتتضاعف صورنا تضاعفاً لاحصر له . وكنا فى

جمع من المصريين فى هذه القاعة التى أفردت لنا وفى وسطها تقف الجميلات تعرض إحداهن ابتسامة ، وتقوم الأخرى بما يحلو لها من دعابة أو عبث أو مزاح ثقيل ، وتقف ثالثة ساهمة صامتة تدير الطرف فينا كما ندير الطرف فيها ، وتجلس رابعة على طرف مقعد بجوار أحدنا لتأخذ معه فى حديث قصير . تتعدد هذه الصور وتتضاعف تضاعفاً لا نهاية له حتى نرى هـــذه القاعة وقد تحولت الى فضاء بللورى واسع عريض . وفى رأسى خدر لذيذ مريح ممتزجاً ببعض القلق المحض الذى ليس فى أعصابى هادئاً رقيقاً — ولكنه يحطمها بهدوئه ورقته أكثر مما يحطمها بقوته وعنفه .

كان ذلك الخدر يغمر تفكيرى فأشعر وكأنى لا أفكر فى شىء لا أستطيع أن أفكر أو أحصر ذهنى فى شىء ، فكأن تفكيرى علق فى الفراغ أو أوقفته قوة عارضة عن عمله الطبيعى . وفى رأسى الذى لا أكاد أحس به صورتان متناقضتان إحداهما تقول نعم ، والأخرى تقول لا . وتستمر نعم ولا فى بطء أول الأمر ثم تأخذ فى سرعة عجيبة مجنونة حتى أشعر برأسى يتشقق ويتصدع ، وأحافظ على ملامح وجهى بيضاء باردة لا تقرأ شيئاً . فلو أفات منى ما يدل على القبول فلا مناص من القبول .

ولو تركت رأسى ينحنى انحناءة ما لانتهت هـذه الحرب التى أعلنتها على نفسى ، وضعت حداً لذلك العرق البارد الذى أخـــذ

ينحدر على وجهى فى ليلة من ليالى الشتاء وتركت لتنفسى أن يسير مستريحاً مطمئناً بدلا من ذلك الكابوس الثقيل الذى أحمله وأتكلف القدره على حمله — وما أعجزنى عن حمله .

ثم كان ذلك وإذا برأسى يسقط وينحنى انحناءاً كبيراً وهذا أصعب ما فى الأمر وإذا بالصفقة تتم بحيث يستحيل على الانسحاب بعد ذلك .

وعادت الدقائق تمر سريعة متوثبة . ولا أدرى كيف نهضت من مكانى وكيف صعدت خلفها على ذلك الدرج كأننى شبه منوم أو مصعوق . لم أتنبه لشىء من ذلك وإنما تنبهت للباب يغلق دوننا وبها تتجرد وتعرى فأكاد أشرف على الاغماء ، أنظر إلى جمال لا عهد لى به فأرتاع أكاد لا أصدق وفى صدرى صوت حبيس يريد أن ينطلق هل سيكون هذا لى ، ويجيبه صوت آخر ساخر لا ، ليس هذا لى ولكنه للشيوع وكل ما لى منه بضع دقائق . وانقضت هذه الدقائق فى ذلك اليوم وانقضت مثلها فى اليوم الذى يليه . ولم يمنعنى من الانطلاق مع ذلك الجمال المباح غير انطلاق الباخرة إلى مرسيليا .

ولكن فى ذهنى صورتين ترتسمان بوضوح وجلاء كلما تذكرت هذا الاسم « جنوا » . إحداهما هى ذلك الجمال المباح الذى لا نملك غير الرثاء له والاشفاق عليه ولا نستطيع له أكثر من ذلك . وقد أكون خيراً من غيرى الذى لا يحس رثاء ولا إشفاقا ولا يشعر

لهذه الضحية بشيء . . والصورة الأخرى هى مدينة القبور وماأوثق اتصال القبور بما ذكرته آنفاً ، فستنتهى الحياة والكائنات فى يوم ما وسينتهى ذلك الجمال المباح وغير المباح وسينتهى ما أكتب وماأشعر وما أحس، سينتهى كل ما فى الدنيا من عاطفة وإحساس ولذة وألم، سينتهى ذلك إلى تراب وفناء ، وفى ذلك التراب ستبلى الكتب والصحف ويذوى الجمال وتبلى السنين والقرون .

وفى إحدى ضواحى جنوا تقوم مدينة القبور على أرض رخامية منخفضة عريضة بين جبلين . مدينة كاملة من الرخام الأبيض والأسود والمتعدد الألوان ويسمونها Camp Santo

وعلى باب كل مقبرة تمثال حجرى رائع يرمز للموت فى صورته البشعة وأثره الممزق للقلوب . ومن أروع تلك التماثيل تمثال حجرى لرجل عملاق يحمل على صدره جثة زوجته المتوفاة ويطبع على جبينها الوضاء قبل الوداع، وآخر لقسيس شيخ يقرأ الانجيل وقد وقفنا مذهولين أمام روعة هذا التمثال الأنيق من البرونز لا ندرى كيف استطاع النحات أن يطبع على تمثاله هذا كل معانى الاستغراق والتفكير والتأمل فكأنه صورة حية لاينقصها إلا النطق، فيخيل إلينا أننا أمام شخص عادى ينبض قلبه بالحياة ؛ يفكر كما نفكر وتجرى فى عروق رأسه الأصلع دماء الحياة . وتمثال آخر فظيع لامرأة جالسة على عتبة دارها تحمل فى يدها جمجمة ميت وأخرى

تحمل طفلها الرضيع أمام زوجها الراحل ليقبله ميتاً، لو كان يستطيع الميت أن يهدى القبلات . وهكذا كان على كل مقبرة من هذه المقابر تمثال رائع يصلح أن يكون موضوعا لمقال طويل . والأرض مفروشة بالرخام النادر الثمين ، والمدينة كلها بأرضها وسقفها وأعمدتها ذات طابع رومانى أنيق .

وفى مدخل هذه المدينة تقوم أكشاك خشبية أنيقة لبيع الزهور وإن عظمة هذا الشعب هى بغير شك فى روعة التماثيل التى لم نر مثل كثرتها ودقتها فى أى بلد آخر ، أما غير ذلك فليس هناك غير سماجة الشعب الايطالى يشبه فى ذلك الشعب التركى كأنهما توأمان ، بل إن الحياة فى كلتا البلدين متشابهة متقاربة .

وليس هناك وجه للمقارنة بين إيطاليا وهولندا مثلا ففى هولندا كانت النظافة والأمانة والذوق هى ميزة ذلك الشعب الراقى رجالا ونساء . أما فى إيطاليا فعلى عكس هذه الكلمات الثلاث على طول الخط ، ولعلنا نصيب لو قلنا إن هذه المعانى الثلاث تظهر واضحة جلية فى تماثيلهم وصورهم فقط .

ولن ننسى أننا كنا نغبن دائماً فى المحلات الكبيرة التى ندخلها ونغبن غبناً فاحشاً ، لا لشىء إلا لأننا أجانب فى وسط شعب غير أمين فى معاملته للأجانب .

والعمائر فى جنوا ذات طابع يميل إلى الضخامة والفخامة بعكس الطابع الهولندى الذى يميل إلى الحجم الصغير الأنيق .

وفى إيطاليا هـذه الأقواس الحجرية الضخمة والأعمدة من الرخام على جانب الطريق العام تحمل سقفاً عالياً مرتفعاً مثل سقوف الكنائس محلى بالرسوم والتصاوير المذهبة . والأرض تغطيها قطعة واحدة من البلاط ذات لون واحد ممتدة بطول الرصيف الممتد ليس فيها أثر لاتصال أو انفصال ، محلاة أطرافها بزخرف أنيق منسجم مع لون السقف المذهب والأعمدة الرخامية على جانبى الطريق . . . ويصبح التلتوار بأعمدته وسقفه وأرضه لا يقل ضخامة وفخامة عن أفنية الكنائس الأثرية الضخمة تحليها هذه السجادة الأنيقة من البلاط والتى برع الايطاليون فى صنعها فجاءت جديرة بالقصور وليس بالطريق العام .

مرسيليا

لم تطل إقامتى فى ميناء مرسيليا غير ساعات معدودة قضيتها متجولا فى هذه الميناء. ولم أصعد إلى الباخرة إلا قبل إبحارها بدقائق معدودة ، وكان دهشى كبيراً عند ما لم أجد أثراً للارستقراطية الفرنسية التى كنت أتوقعها ، وإنما رأيت شعباً كادحاً على عكس ما كنت أتوقع لايعرف الارستقراطية وكأنه قد عافها وزهدها .

وقد رأيت الارستقراطية بعـــد ذلك فى ميناء نيوأورليانز الأمريكى . أما فى مرسيليا فقد كانت المقاهى مكشوفة على التلتوار كما فى مصر وتركيا ، والصوماليون السود يستدفئون بحرارة الشمس خارجها . رأيت مدينة شعبية ليست فى مثل ارستقراطية أمريكا أو نظافة هولنده ، أو نظام انجلترا ، وقد تكون فيها هـــذه الارستقراطية والنظافة والنظام ، كما هو فى هذه البلاد سواء بسواء ولكنى لم أمض بها أكثر من عدة ساعات قضيتها متجولا مشترياً بعض الحاجات .

وكم كنت أود أن تمتد إقامتى أسبوعاً على الأقل أرى فيه الفنادق الفرنسية ، أو ذلك الفندق بالذات الذى قرأت عنه فى إحدى القصص عسى أن أنفق ليلة أو عدة ليالى أرى فيه الحياة التى مرت على كاتب القصة ، ومن يدرى قد أقوم بمثل هذا الدورالذى قام به ، وقد تكون قد انتهت هذه الفرص التى تتيح القيام بمثل هذا الدور . ولكن هذه الساعات التى أنفقها فى غرفة ما فى فندق معين ستذكرنى بكاتب هـــذه القصة أو بطل ذلك الدور . وهو يكتب عن هذا الفندق وفى هذه الغرفة قبل مضى جيل كامل .

لم تسنح لى هذه الفرصة التى كنت أريدها وعسى أن تسنح لى فى يوم ما . وما أجمل أن يقرأ الانسان عن أثر من هذه الآثار أو مشهد من هذه المشاهد ثم يأتى اليوم الذى تقذف به الأقدار ليجد نفسه وسط هذا الأثر وفى قلب هذا المشهد .

كندا

لقد كنت أرى فى أحلامى رؤى غريبة كأننى أطأ أرضاً مجهولة وأخاطب أناساً غرباء غير معروفين وكأن أحلامى قد تحققت وكتب لى أن أسير فى شوارع الملايو وكلكتا ومرتفعات استانبول وأوديسا ثم أرى الجليد يغطى شوارع روتردام وسانت جون .

وها هى أحلامى قد تحققت فهل تتحقق أمانى ؟ إن أمنيتى أن أعيش لمدة أربع سنوات أو خمس فى بلد مثل كندا أو الولايات المتحدة لكى أعمل وأدرس فى وقت واحد لأحصل على شهادة Ph. D.

وحياتنا فى البحر مغامرة متصلة لا تنتهى ، وكانت الباخرة على وشك الغرق قبل دخولها سانت جون بيومين وذلك بسبب مرورها فى قلب عاصفة ثلجية عنيفة وفى ذات الوقت عجز الربان عن معرفة موقع السفينة بالنسبة لأى شاطىء وتعتبر السفينة تائهة فى مثل هذه الحالة . وقد أرسل وهو انجليزى فى طلب ما عندنا من الكتب المقدسة وما زال حتى هذه اللحظة مصحفين قديمين معلقين فى غرفة القيادة . هذه حياتنا فى البحر نتوقع الغرق بين لحظة وأخرى وعين كل منا على منطقة النجاة . أما حياتنا فى البلاد التى نراها فهى للأسف حياة قصيرة لا تشبع ، قليلة لا تزيد عن ساعات كما حدث فى مرسيليا .

وليست كل البلاد التى نراها نعجب بها ؛ فهناك بعض أقطار مثل الهند والملايو لا نود أن يحكم الله علينا برؤيتها مرة أخرى . أما حياتنا على ظهر السفينة فنحن نعيش فى جو مصرى خالص نعاشر قوماً مصريين لا نتكلم الانجليزية إلا فى القليل النادر وكأننا نعيش على قطعة أرض مصرية لولا ما نشعر به من دوار البحر .

وما هى السعادة التى نشعر بها ؟ إنها فى هذه اللحظات القليلة ونحن نستمع إلى أغنية أو قطعة موسيقية . إننا نشعر بنشوة لاحد لها ونحن نستمع على ظهر الباخرة إلى شكوكو وهو يقول حبيبى ياللى أو جبر الخواطر وأم كلثوم وهى تغنى يا صباح الخير . إننى أتخيل الكثيرين يسمعون هذه الأغانى بآذان غير واعية وليتهم يرون كيف تعربد بعواطفنا كل أغنية .

لا لأننا عاطفيون أكثر مما ينبغى ولكنه البحر الذى يثير فينا مشاعر مختلفة لا تخلو من الخوف والاشفاق والقلق . مشاعر أثرت فينا لا نستطيع أن نمحوها لأنها جزء منا ؛ جزء من بيئتنا وحياتنا التى ألفناها من قبل ، ولو كنا فى سانت جون .

وسانت جون مدينة صغيرة فى كندا على شاطىء الأطلسى بالقرب من الولايات المتحدة . وأجمل ما بها البيوت والفيلات الخشبية الأنيقة ويغلب عليها اللون الأبيض بسبب الجليد المتراكم

حولها كأنه الصخور الضخمة . والبرد شديد جداً فى كندا ، البرد الذى يلفح الوجوه ويتخلل الأحذية المصرية الرقيقة ولم يرحمنا منه غير استعمال Over Shoe وهو حذاء من المطاط والصوف يلبس فوق الحذاء العادى . والطريق مغطى بالجليد الأبيض الهش على ارتفاع يزيد عن قدم فى بعض الأحيان بحيث تغوص أقدامنا فيه وتترك آثاراً عميقة واضحة بعد أن نمضى سهرتنا البيضاء .

والقوم متدينون جداً فى كندا . فالبار الأمريكى الفخم ليس به غير اللبن والكوكاكولا وغير ذلك حيث أن القانون يعاقب على شرب الخمور . ومحلات الأزياء الكثيرة المنتشرة فى سانت جون وبها من العرائس الجميلات ما لا يحصيه العد وقد وقفت أمام إحداهن مأخوذاً من جمال كجمال التمثال وصفاء كصفاء الراهبة أحدق فيها بنظرات طويلة لا أود أن أترك مكانى حتى نبهنى من معى فتركته كارهاً وهى تبتسم لنظرات ذلك المصعوق . وعند انصرافنا ونحن نرتقى الدرج رأيتها تبتسم لذلك المتيم الذى هو أنا فتجاسرت وأشرت إليها إشارة التحية والوداع . ولم أنتظر الرد على ذلك فلم أكن أريد أن أعرف إن كان هناك رد أم لا .

ومع إحدى العاملات الفاتنات وقفت أشترى منها بعض الهدايا وكانت تطيـــل معى الحديث وحديثها عذب تتخلله الابتسامات

والتعبيرات . والواقع اننى كنت حائراً لا أدرى : هل هذه المعاملة الرقيقة الكريمة خاصة بى وحدى ؟ أم أنها من ضمن عملها كما تعمل المضيفات .

وفوجئت بها عند انصرافى وهى تقول Good bey وكان ردى وما زلت فى حيرتى Good bey وكان يجب أن يكون الرد غيرذلك وغادرنا سانت جون وقلوبنا معنا لم تسرقها منا إحدى السارقات الفاتنات وإن كنا نرحب بهذه السرقة .

والموسيقى المنتشرة فى سانت جون هى موسيقى الغرب ، وقد بدأنا لكثرة استماعها لا نتذوق فيها لذة كبيرة كأنها لغة كنا نجهلها ولا نفهم شيئاً من مقاطعها وكلماتها . أما الآن فهى لغة نفهمها ونطرب لها ونشعر بالفارق الكبير بينها وبين الموسيقى الشرقية الناشئة من حيث عظمة صناعتها ودقة تركيبها .

ومن المناظر التى لا تنسى مناظر صوامع الغلال فى كندا وتبلغ فى مثل ارتفاع إيمو بيليا أو تزيد متصلة بأنابيب معلقة لتفريغ القمح فى جوف السفن . والأهالى مزيج ولكنه مزيج متجانس من الخلاسيين والسود والمهاجرين واللبنانيين والأوروبيين من بلاد مختلفة وقد نسى كل من هؤلاء أو تناسوا جنسياتهم القديمة فهم كنديون مخلصون لوطنهم كندا معتزون بجنسيتهم يعيشون فى مظهر

واحد جميل لا أثر للتفرقة فيه بين أبيض وأسود. وكأنى بهذه البلاد وقد امتزجت بها حضارة انجلترا والولايات المتحدة فجاءت شيئاً رائعاً فريداً متفوقاً على البلدين فى مدنيتها ونظافتها ولون الحياة .

وبعد فها هى سانت جون كما رأيتها . فهل تسمح لنا الظروف والأيام برؤية هذه المدينة الساحرة مرة أخرى؟

وليس معنى ذلك أنها سحرت كل من معنا من أفراد الـ Crew فمنا الكثير الذى لم يرض عنها ولم يعجب بها . ولعل السبب فى ذلك هو خلوها من الشهوات والسهرات الحمراء الموجودة فى بلد مثل جنوا مثلا . فهى قلعة متدينة حصينة فى نصف الكرة الغربى ولم أر مثل قدسيتها من قبل . والحق أننى أحد المعجبين القلائل بعظمة هذه المدينة وبساطتها .

كوبا

٢٥ فبراير ١٩٥٣

انتقلت الباخرة من مدينة سانت جون إلى جزيرة كوبا فى خليج المكسيك وهى إحدى مستعمرات إسبانيا القديمة وهى الآن لم تتخلص تخلصاً كاملا من نفوذ الولايات المتحدة .

والجمال فى كوبا يغلب عليه الطابع الإسبانى . الشعر الأسود ، والعيون السوداء كالمها ، والبشرة الشديدة البياض يشبه إلى حد ما الجمال المصرى .

والبيوت مفتوحة فى كوبا بسبب الحر الشديد . وفى هذا بعض الشبه بما رأينا فى بلاد الملايو غير أن الأهالى يجلسون فى كوبا أمام بيوتهم فى معظم الأوقات ليمضوا سهراتهم وسمرهم على كراسيهم الهزازة الأنيقة ولغتهم إسبانية كلغة أمريكا اللاتينية Caetaliner تختلف اختلافا طفيفاً عن اللغة التى تنطقها إسبانيا . وبها بعض كلمات عربية مثل كلمة سكر وكلمات قد تكون بدائية مثل كلمة (واو) ومعناها الأوتوبيس . وحمى الرقص منتشرة فى هذه الجزيرة سواء فى البارات الخشبية الكثيرة التى تشبه ما نراه فى أفلام رعاة البقر الأمريكية أو بيوتهم الخشبية المكشوفة ولهم رقصات خاصة تختلف اختلافا تاما عن الفالسات التى تعرفها أوروبا والولايات المتحدة ، رقصات خاصة لا يشاركهم فيها أحد . وذلك غير رقص المرأة على دق الصنج وتسلط على جسدها أضواء حمراء باهتة تزيد فى خطرها وهى تتلوى كتلوى الصورة التى نتخيلها عن راقصات ألف ليلة .

ومن المناظر التى تستحق التسجيل فى طرقات هـــذه المدن الصغيرة هو منظر ذلك الحصان الكوبى القصير الأرجل ويغلب

عليه اللون الأحمر يمتطيه الرجال بقبعاتهم العريضة من القش والقرويات بأكتافهن السمراء العارية ومن خلفهن الأحمال من جوز الهند أو عيدان القصب وهذه هي وسيلتهم للاتصال بين مساكن القرية وما يجاورها من مزارع .

وفى كوبا استقرت الباخرة بالقرب من مدينة « منزانللو » لمدة بضع ساعات قليلة ثم عادت إلى إحدى هذه القرى الصغيرة التى تعيش على مصانع السكر وكانت هذه القرية « سيباريكا » . ولما لم نر شيئاً مسلياً فى هذه القرية التى تكاد تكون مستعمرة خاصة للموظفين والعمال فى مصنع السكر ، كنا ننتقل لتمضية سهرتنا مساء إلى قرية أخرى تبعد عنها ١٥ دقيقة بالأوتوبيس أو التاكسى وعند ما لا نجد الأوتوبيس أو التاكسى كنا نقطع المسافة سيراً على الأقدام فى طريق هادىء ساكن على ساحل البحر ولا شىء غير الليل الهادىء المترقب ، واضطراب الماء على الساحل الرملى ، وهدير الجنادب فى الأرض المزروعة ليشق كبد هذا السكون الشامل فى صوت أشبه بالصراخ الحاد .

وخلفنا مدينة تختفى معالمها وآثارها ، وأمامنا يظهر الظلام الكثيف المطبق ، وكل شىء هادىء ساكن مترقب لا يسمع غير قرع أقدامنا على الرمال الناعمة ، وعبث النسيم الخفيف بذلك الدغل الكثيف الذى يقوم دون الأرض البكر كالسياج .

ثم تختفى أضواء المدينة التى خلفنا اختفاء تاماً بعد أن ينعطف بنا الطريق . . ولم تظهر أضواء المدينة التى نقصدها . وفى غمرة هذا الظلام المطبق وما يبعثه فى النفس من الروعة والروع ؛ عندما يطرق الانسان لأول مرة أرضاً مجهولة ولغة مجهولة ؛ ومدينة لا يدرى عن أهلها أو نوع الحياة فيها شيئاً ؛ وفوق كل ذلك الليل المطبق والظلام المتراكب ؛ ونحن كالأشباح نخترق إلى غايتنا الليل والظلام .

وأخذت المدينة تدنو منا شيئاً فشيئاً أو تدنو منا وكأننا نقذف بأنفسنا فى أضوائها وطنينها اللذين بددا الظلام والسكون .

وكانت المدينة واسمها «كانيشويلا» تحتفل بعيد الاستقلال عن الولايات المتحدة وكان ذلك يوم ٢٥ فبراير سنة ١٩٥٣ ويشبه إلى حد ما احتفالاتنا بمولد الحسين والمولد النبوى مع فارق واحد هو عدم ظهور الجلابيب ، فالكل فى ملابس أنيقة بسيطة ؛ ولولا وجود اللغة الاسبانية لكانت صورة مطابقة لما يحدث فى وطننا .

وقفت خلف شلة من الفتيات الأنيقات اللائى شعرن كما شعر عدد كبير من الأهالى بأنى أجنبى عن أهل هذه البلاد .

ورأيتها تبسم لى ورأيتنى أبسم لها وفهمت من حديثها إلى صديقاتها كلمة سيجار فأخرجت علبة سجائر وقدمتها مفتوحة لهن ، ثم كانت بداية الحديث بالاسبانية التى لم أكن أعرف منها حرفا فى ذلك الوقت وحيناً بالانجليزية وأحياناً بالاشارات .

ثم رأيتها تنادى إحدى صديقاتها لتقوم بالترجمة بيننا ؛ وهكذا تجمع حولى أكثر من خمسة عشر فتاة يسألننى مختلف الأسئلة عن جنسى ووظيفتى ثم عن مصر ومحمد نجيب وكوبا وأيها أجمل فتيات مصر أم فتيات كوبا وقد شهدت لفتيات كوبا . وعند ما سئلت : هل تعجبك الاقامة والزواج فى كوبا أجبت نعم . وكان السؤال الثانى : من التى تميل إليها ؟ فلم أرتبك وفى الحال أشرت إليها فهى أول من تبسم لى . وكانت كلارا التى كانت تتابع حديثى الذى يترجم لها ، ويتلون وجهها بتعبيرات صافية رائعة عذبة كأنها تجيب بوجهها وعينيها كأروع ما تكون الاجابة باللغة واللسان .

وعند ما سئلت : متى ستسافر الباخرة ؟ أجبت بعد يومين ، وأجابت بأن تمرر أناملها على أهدابها تمثل كيف ستسيل من عينيها الدموع . وفى هذه الليلة كنت صديقاً لكلارا ولجمع كبير من فتيات وفتيان المدينة الصغيرة ودعونا عدداً كبيراً منهم لزيارة الباخرة .

وفى صباح اليوم التالى زارنا عدد كبير من المدرسين الكوبيين الذين يجيدون الانجليزية ، وقمت بشرح الصور الملونة الكبيرة المعلقة فى ممرات الباخرة من الآثار المصرية .

وفى الكابين الخاص بى كان كل منهم يريد أن يذكر مصر بشكل ما فيطلب أحدهم طابع بريد أو قطع من العملة المعدنية الصغيرة ، ويطلب الآخر مجلة أو جريدة ذات حروف عربية .

وتسمع من ذلك الاسطوانات المصرية الراقصة . وفى المساء كنا مدعوين أنا واثنين من زملائى فى حفلة خاصة بهم فى أحد الفنادق وكان لكل منا صديقة يجلس بجوارها على المائدة وكانت بجوارى كلارا التى بدأت تعلمنى بضع كلمات قليلة اسبانية وتسألنى بالإشارة هل ستعود السفينة يوماً ما إلى كوبا ، ويكون جوابى بالاشارة أيضاً . الله وحده يعلم جواب هذا السؤال .

فقد كانت سفينتنا تقصد كندا لا كوبا ، ومن كندا جاءتها هذه الرحلة مصادفة ، وكانت مصادفة جميلة وقد تعود أولا تعود .

غادرنا ميشويلا فى أول يوم من أيام مارس إلى مدينة سانت كروز ملتفين حول شاطىء كوبا الجنوبى فى البحر الكاريبى .

وأنفقنا أياما ستة تستكمل الباخرة شحنتها من السكر الذى تنتجه هذه البلاد . . . ولا شىء فى كوبا غير الموسيقى والرقص ، فالشعب الكوبى يعيش ليومه فقط لايفكر فى غيره يعيش ليأكل ويشرب ويرقص ، وهم يكرهون الأمريكيين من سكان الولايات المتحدة كراهة مطلقة .

والبحارة الأمريكيون يقابلون بالصفير من الصبيان والأطفال فى الطرقات الصغيرة الضيقة ، وقد كانت بلادهم مستعمرة أمريكية يوماً ما ، وقد استقلت اليوم ولكنها ما زالت واقعة تحت تأثير النفوذ الأمريكى ، والدولار الأمريكى يتداوله الناس فى البيع

والشراء كما يتداولون الدولار الكوبى سواء بسواء بغير حاجة إلى عمليات التبديل التى تقوم بها البنوك فى غيرها من البلاد .

والأهالى يعيشون فى مستوى معيشة لائق ، ومنازلهم خشبية فى معظم الأحيان غير المترفين القلائل أصحاب الأقطاعيات الكبيرة فلهم منازل صغيرة من الحجارة ، وقد أتيح لنا أن ندخل منازلهم وفيلاتهم الخشبية الأنيقة ، وبها من الأثاث أو الرياش ما يليق بالقصور .

ولايخلو بيت من بيوتهم البسيطة من فريجيدير ومكنه كهربائية وأثاث يدل على الذوق السليم ، والأرض الزراعية التى كنا نراها فى ضوء النهار ، فندهش للونها الأحمر كأنها صبغت بالدم . أرض شديدة الاحمرار كثيرة الثمار والخصب ، وما أبدع مناظر الطبيعة عند ما تأخذ ألوانها الحقيقية الثابتة الناصعة كأنها فيلم سينمائى ملون يسجل الطبيعة أروع من حقيقتها ، بما يزيد عليها من ألوان ليست فيها ، أو ليست بمثل نضرتها وقوتها ، وكأننا فى كوبا فى وسط ذلك الفيلم ، طبيعة صارخة الألوان ليست باهتة ، كأنها الطبيعة كما يجب أن تكون فى كل البلاد ولكنها ليست كذلك فى كل البلاد .

فهذه البلاد لم تستنزف بعد ، وفيها أراضى شاسعة لا تجد من يزرعها بسبب قلة الأيدى العاملة ، والحكومة القائمة دكتاتورية كمعظم بلاد أمريكا اللاتينية . والجنرال « باتاتا » يحكم هذه البلاد

حكما صارماً مخيفاً ، حتى كان الناس يتهامسون عند ما يمر ذكره على ألسنتهم ، والتهمة التى يرعب منها الجميع وتلجم ألسنة الجميع هى تهمة الشيوعية وما أقسى عقاب الشيوعية فى بلد تحت نفوذ الولايات المتحدة .

ولا يبعد عن ميناء نيواورليانز الأمريكى أكثر من يوم وبعض يوم والكوريون يعتبرون أنفسهم أمريكيون لاحباً فى الولايات المتحدة ولا تأثراً بها ، ولكنهم يعتبرون لفظة أمريكا خاصة بالأمريكيين خاصة بسكانهم جميعاً بما فيها سكان الولايات المتحدة .

وهم يطلقون عليها اسم الولايات للاختصار . كما يطلقون على شعبها لفظة Nortamricano .

والحياة بالنسبة لنا فى هذه البلاد شاقة متعبة ففى سيباديكا كان علينا أن نعبر قنطرة خشبية تحمل قضبان سكة حديد ضيقة ويسير مع امتداد هذه القضبان محاذين بها مدة تصل إلى نصف ساعة فى مغامرة عنيفة عرضة للسقوط فى الماء من هذه الفتحات الكثيرة والألواح الخشبيه الضيقة التى نضطر للسير عليها لنصل إلى الباخرة وذلك لعدم وجود رصيف فى هذه البلاد . وفى سانت كروز . كانت الباخرة تقف على بعد ٣ أميال من الشاطىء بسبب قلة عمق المياه فى طول هذه المسافة ، ولم يكن هناك قنطرة خشبية نعبر عليها وليس من المعقول أن توجد قنطرة خشبية طولها ثلاثة أميال .

لذلك كان لا بد من إنزال القارب الديزل إلى الماء لينقل أفراد ال Crew فى سهرتهم البيضاء أو الحمراء إلى هذه القرية .

ولم أكن أتخيل أننى سأركب هذا القارب فى يوم ما إلا فى ذلك اليوم المشئوم الذى تغرق فيه الباخرة ، وكان على تشغيل الماكينة الديزل فى هذا القارب الملعون لمدة يومين من الأيام الستة ، وكم يكون عجيباً أن أقوم بقيادة هذا القطار الفاجر ليمضى سهرته العابثة غالباً ، وأعود بعد ذلك لأمضى سهرتى الخالية البيضاء فى غرفتى بالسفينة . . ولعل الشيطان وحده يعلم كم عدد المصاحف أو الكتب المقدسة التى يحملها ركاب هذا القارب ، وكم عدد الجلود الواقية التى يعرفها الزناه .

سواء علم الشيطان أم لم يعلم كان على هذا القارب أن يسير كل ليلة حاملا شحنته الكاملة من طاقم السفينة وبحارتها إلى ذلك الشاطىء الهادىء حيث الموسيقى الإسبانية والجمال الاسبانى العذب . وفى أحد هذه الأيام وقد كفت الماكينة عن الدوران وما كدت أنظر إلى أجزائها المكشوفة وأديرها حتى أفلتت منى صرخة لا أدرى كيف أفلتت ونظرت وإذا بالكلاتش المكشوف ينزع منى بدلة العمل التى أنا مرتديها حتى وسطها تقريباً ، والله وحده أراد أن يكون قماش هذه البدلة من النوع الهولندى الرقيق حتى أن جذبة واحدة نزعته وخلعتنى منها أوخلصتها منى ، وماذا لو أبى ذلك القماش

أن ينتزع ، وقاوم أن يتمزق بعد أن يقبض عليه الكلاتش بقبضته الحديدية كالأخطبوط .

غادرنا سانت كروز . فى طريقنا إلى الولايات المتحدة . وفى حقيبتى ثلاث اسطوانات موسيقية راقصه . هى أروع ما سمعت فى فى الحياة . وسأتذكر عندما أسمع هذه الموسيقى فى القاهرة أو الاسكندرية أو أى مكان آخر سأتذكر طرقات كاميشو يلا الهادئة والفيلات الخشبية الأنيقة ، والفردوس العائم فى خليج المكسيك وسكانه الوادعين الكرماء . الحياة البسيطة الممتعة ، والأيام القصيرة السعيدة وما أسرع مرور الأيام السعيدة .

سأتذكر كل ذلك ، وسأذكر كلارا الاسبانية الثانية من يدرى قد يكون هناك لقاء فى يوم ما وقد لا يكون هناك غير الذكرى وما فيها من مرارة وقسوة وألم .

كانوا يظنونى اسبانياً

٨ مارس سنة ١٩٥٣

فوجئنا بلافتة بغيضة فى الترام والأوتوبيس عليها كلمة « مقاعد خاصة للملونين » ، وكنت أجد هذه المقاعد فى الخلف دائماً ، ولكننى كنت لا أعبأ حيث أننى مصرى حر ولست زنجياً أو خلاسياً من أهل البلاد فكثيراً

ما كنت أجلس فى أى مقعد خالى وأتعمد أن يكون فى المقدمة دائماً كان ذلك فى مدينة تيوادرليانز فى جنوب الولايات المتحدة فى يوم من أيام مارس سنة ١٩٥٣ ، وفى هذه المدينة البغيضة قضيت يومين مرا كأنهما عامين لم أكن أعلم أن هذه اللافتة قابلة للحركة والمرور على المقاعد الخلفية . فإذا جاء زنجى ولم يجد له مكاناً فى المقاعد الخاصة بالملونين فإنه يجلس فى أحد مقاعد البيض بعد أن يرفع اللافتة ويضعها على مقعده الجديد .

لم أكن أعلم هذا عند ما جلست فى مقاعد البيض وفوجئت بسيدة زنجية تطلب منى أن أغير مكانى إلى الأمام حيث مقاعد البيض ، والتفت فرأيت اللافتة خلفى فلم أتردد وحمدت الله أن حدث هذا ولم يحدث العكس عند ما يطلب منى أبيض أن أغادر هذه المقاعد إلى الخلف ، وكثيراً ما كانوا يظنوننى إسبانياً فى المحال الكثيرة التى كنت أدخلها فكنت أقابل دائماً ببعض كلمات إسبانية فألفت نظرهم إلى اننى مصرى لا اسبانى ، ولعل هذا هو السبب الذى لم يجعلنى أصطدم بأحد من البيض فيما لو حدثت اهابة لى .

وبالرغم من أن القوم عندهم التمييز الكافى بين الزنوج الملونين وبين الأجانب والغرباء سواء كانوا مصريين أو إسبان أو هنود ، حيث أن سكان هذه البلاد متقاربون فى الصفات والملامح وبالرغم من أنهم يميزون تمييزاً كاملا بين هؤلاء الغرباء وبين مواطنيهم من

الزنوج فإننا كنا نسير فى طرقات هذه المدينة البغيضة والخوف يملأ قلوبنا ، وليست معنا حريتنا التى كانت معنا فى البلاد الكثيرة التى رأيناها من قبل . كنا نسير ونحمل فى قلوبنا الكثير من الخوف والقلق إذا ما دخلنا كازينوا أوملهى أوسينما أو غير ذلك .

فوجئنا بهذا الوضع المزرى ولم نر أسلم من تجنب هؤلاء القوم فى ملاهيهم وكازيناتهم ، وكان يكفينا التجول فى طرقاتهم العريضة الضخمة نشاهد فرقا شاسعاً بين طبقتين ، فهناك الترف والمال والارستقراطيات البغيضة إلى قلبى كأنهم الدمى الملونة والعربات الفارهة والحياة المعقدة الكثيرة التكاليف بمدنيتها المصنوعة الزائفة.

وبجانب ذلك الكادحون من الزنوج حيث العمل الشاق المرهق للرجال والمظهر المتواضع البسيط للنساء والفتيات .

رأينا فى الولايات المتحدة فرقا فاحشاً بين طبقتين ولم أر مثل ذلك الفرق فى هولندا أو روسيا أوكندا . وفى هولندا وروسيا عدد قليل من الملونين وفى كندا وكوبا العدد الكثير من الملونين يعيشون كأنهم عائلة واحدة سعيدة فى مستوى مادى واحد لا تفاوت فيه ولا نشاز . وما هى الفكرة التى أخذناها عن هؤلاء القوم ؟ إنها تؤكد ما كنا نعرفه من قبل عن غطرستهم وغرورهم الذى يصل إلى درجة الوقاحة فى بعض الأحيان .

والأمريكيون وقحون حتى فى خارج بلادهم وليس معنى ذلك

انهم جميعاً بهذه الصفة أى ليس فيهم رجل معتدل فاضل . والواقع لا ، فليست تخلو مدينة من هذا الصنف من الرجال ، ولكن الغالبية وهذه الغالبية هى التى نحكم لها أو عليها . . والغالبية فى أمريكا وقحة متغطرسة يملؤها حب المادة والغرور . وليس هناك غير الدولار الذى يتكلم ويأمر وينهى . وأعتقد أن المادة ستحول هؤلاء القوم فى يوم ما أو قل إنها قد حولتهم بالفعل إلى جنس لا يحس ولا يشعر بالعواطف الانسانية التى يتمتع بها ويعيش فى ظلها ما يجاورهم من الشعوب المختلفة .

نحن الآن فى طريقنا راجعين ، وخلفنا نهر المسيسيبى وأمامنا المحيط الواسع العريض ووجهتنا طرابلس الغرب بعد أن شاهدنا الأمريكيين عن كثب فى بلادهم ، كما شاهدناهم سابقاً فى غير بلادهم . وإنى لأعجب من نفسى كيف يكون هذا رأيى الصريح فى هؤلاء القوم فى الوقت الذى أرسلت فيه عدة خطابات إلى الجامعات الأمريكية أطلب منها شروط الالتحاق . إنى لأعجب من نفسى كيف يكون هذا مع الرأى الذى كونته أو سبق لى تكوينه عن هؤلاء القوم . وقد يكون تعليل ذلك أن العلم لا وطن له . ومما لا نستطيع أن ننكره على هؤلاء القوم هو عظمة صناعتهم ورسوخها وذلك العدد الضخم من الجامعات الذى يصعب تخيله . فقد كنت أتخيل وجود جامعة واحدة فى كل ولاية أمريكية ، أى أن عدد الجامعات لا يزيد عن

خمسين جامعة بأى حال وهذا الرقم هو ضعف أو أكثر قليلا من الرقم نظيره فى بلد مثل فرنسا مثلا . . كنت أتخيل أن عدد الجامعات لن يزيد عن هذا الرقم ولكن فى يوم زيارتى لجامعة Tulane فى مدينة نيو أورليانز فوجئت بمعلومات جديدة منها أن عدد الجامعات فى الولايات المتحدة لا يقل عن الألفين ، منها الجامعات الخاصة التى ينفق عليها من مصادر مالية خاصة ، ومنها الجامعات التى تنفق عليها حكومة الولايات المتحدة أى من ضرائب الشعب .

نعم فى أمريكا ألفى جامعة ، وبها هذه الصناعة الضخمة العريقة التى تكتسح العالم كله بجودتها ورسوخها ووفرتها وكأن هذين التوأمين الجامعات والصناعة يسيران دائماً جنباً إلى جنب إذا وجد أحدهما كان لا بد من وجود الآخر . . ليت شعرى متى أرى فى مصرنا العزيزة الناهضة جامعات وصناعة الأمريكيين والأدب التقليدى للهولنديين أو الروسيين وبساطة الحياة ومتعتها ومرحها التى يتمتع بها الكوبيون فى الهند الغربية . . ليت شعرى متى أرى محاسن هؤلاء وأولئك دون مساوئهم فى مصرنا العزيزة الغالية . .

غادرنا هذه المدينة المغرورة وشعبها المغرور المتعجرف ، فلا يخلو ذهن كل منا من صورة لتلك العجرفة وذلك الغرور . . ومن ذلك هذه الأسئلة التى وجهت إلى كل فرد منا قبل أن يسمح له بأن

يضع قدمه على أرض البلاد بعد أن رست الباخرة . ومن هذه الأسئلة . . هل أنت شيوعى ؟ هل كنت سجيناً فى بلدك ؟ هل تريد الإقامة هنا ؟ . . ولعل بعض هذه الأسئلة لا غبار عليه ما عدا السؤال الأول الذى يكاد يلزم أى واحد منا بأن يكون غير شيوعى لينفق يوما أو يومين فى هذه البلاد . وكنا نجيب على هذه الأسئلة الاجابة التى نعلم انها ترضيهم وتمنع عنا استطرادهم فى أسئلتهم المملة السخيفة حتى جاء بعد ذلك اليوم الذى رفض فيه زميل أن يجيب على ذلك السؤال الأول بنعم أو لا وأنا أعلم أنه غير شيوعى ولكنه أراد أن ينتصر لمبدأ فرفض رفضاً لطيفاً فى بادىء الأمر وكان أن وجد الإلحاح كما رفض أن يؤدى ذلك القسم وكان أن اعتقل عدة أيام ولم يكن سجيناً فى مصر فى يوم ما ولكنه كان سجيناً فى الولايات المتحدة فى ذلك اليوم . ويكون ذلك الزميل قد سبقنا إلى إعلان رأى أشفقنا على أنفسنا أن نعلنه . لماذا أطالب بذلك القسم ؟ قد أكون كاذباً ، فلماذا أقسم يميناً كاذبة ؟ وقد أكون صادقاً فما الذى يجعل إنساناً يضطر إلى ذلك القسم ؟ وماذا لو أن روسيا اتبعت مثل هذه الطريقة وحرمت أن يطأ أرضها غير الشيوعيين من بحارة السفن المختلفة . .

طرابلس الشرق والغرب

٢٩ مارس

فى أواخر شهر مارس صادفت ذلك اليوم الأول الذى أصبحت فيه ليبيا عضواً ثامناً فى جامعة الدول العربية . وليبيا دولة مستقلة آخذة بأسباب النهضة ولكن من عيوبها تغلغل النفوذ الأجنبى الانجليزى والايطالى فى جميع شئونها . كما أن هناك فرقاً ظاهراً بين مستوى حياة الوطنيين وما يتمتع به الأجانب الدخلاء من إنجليز وإيطاليين . وقد فوجئنا بطرابلس الغرب مدينة نظيفة على عكس ما كنا نتوقع ، وكان مدخل المدينة من جهة الميناء لا يقل فخامة وروعة عن الاسكندرية أو مرسيليا عروس البحر الأبيض المتوسط .

وقد يكون السبب فى ذلك هو الحسنة الوحيدة التى للايطاليين وهى حب التعمير فى البلاد التى يحتلونها بعكس الانجليز الذين يميلون إلى التخريب دائماً ومهما طالت إقامتهم فى بلد فانها تترك لأصحابها خراباً .

واللغة العامية الليبية أقرب إلى لغة المعرى من المصرية العامية وإن كانت لهجة الأخيرة هى أرقى اللهجات وأوضحها . ومن

الكلمات التى يستعملها العامة فى حديثهم كلمة «الشعاب» ومعناها الجبل و«الجادة» ومعناها الطريق . والمرأة الليبية محجبة تسير وكأنها فى غرارة كثيفة بيضاء ولا يظهر منها غير ثقب صغير تبرق خلفه عينها لتنظر الطريق المزدحم بالسيارات والعربات .

والخطوة الطبيعية لليبيا هى أن تتخلص من النفوذ الأجنبى الذى يلازم الدول الحديثة العهد بالاستقلال حتى تستطيع أن تتقدم بدون عائق فى السير إلى الأمام . ولست بسبيل أن أكتب خطاباً سياسياً عن ليبيا وإنما الحياة الاجتماعية فى أى شعب من الشعوب هى التى تعنينى أكثر من غيرها . وليبيا الآن تمر فى ذلك الطور الذى كنا نمر به منذ نصف قرن من الزمان . . فالمرأة المحبة جاهلة ، والوعى القومى يكاد يكون معدوماً بين الأعراب والفلاحين باستثناء القلة القليلة من الموظفين الذين أتموا تعليمهم فى مصر أو إيطاليا .

ومما شاهدته يبين لى أن النفوذ الأدبى لايطاليا أقوى مما لمصر فيها بالرغم من الجوار والوحدة والدين واللغة . وليبيا أحوج ماتكون إلى ثورة اجتماعية رشيدة تتناول جميع مرافق الحياة وخاصة مايمس الأسرة والمرأة ليصبح الاستقلال الكامل بعد ذلك نتيجة لازمة لهذه التفاعلات . والجمال فى ليبيا بدوى عريق فى البداوة . وفى سوق الخبز ، وهو المكان الذى يقصده العدد الكثير من النساء والفتيات الوطنيات ليشترين حاجاتهن الضرورية فى سلال صغيرة ،

استطعنا أن نلمح شيئاً من جمالهن الفاتن المحجب من خلف هذه الأستار السميكة البيضاء التى تخفيهن . وللأسواق والمبانى ومظاهر الحياة طابع أقرب ما يكون إلى الطابع التركى . ويظهر هذا واضحاً فى الأحياء الوطنية والدروب التى استطاعت أن تحتفظ بما تركه العثمانيون من أثر طوال هذه السنين . وفى الأحياء الراقية حيث مدخل المدينة وشاطىء البحر مبانى إيطالية صرفة ولغة إيطالية منتشرة مسموعة فى كل مكان .

غادرنا ليبيا بعد أن أفرغنا بضاعتنا القادعة من نيوأورليانز ، وأبحرت الباخرة إلى طرابلس الشام ليتم تفريغ ما تحمله من السكر المستورد من كوبا ، واستقرت الباخرة يوماً واحداً حيث سافرت بعد ذلك إلى العاصمة بيروت .

وكانت بيروت صورة مكبرة لسابقتها طرابلس الشرق ، وأهم ما يلفت النظر السوق الرائجة للكتب ، ففى لبنان نهضة أدبية تنافس مصر منافسة شديدة من هذه كثرة عدد الكتاب ، وتعدد الموضوعات التى يكتبون فيها ، وروعة الاخراج والطبع والأناقة التى تتميز بها كتبهم ، والجمال فى لبنان ذو طابع واحد نضير ليس كما فى مصر متنافر خليط ، ففى مصر جمال مختلف متعدد يختلف فى القرى عنه فى المدن والبلاد الساحلية ، ويتباين تبايناً شديداً فى

المصريات من ساكنات الريف عن المصرية أو المتحضرة من ساكنات المدن ، فيكاد أن يكون لكل مدينة طابع معين يميز فتياتها ونسائها وفى لبنان قد توحد هذا الطابع وامتزج امتزاجاً تاماً ، ومثل ذلك فى التعليم فليس فى لبنان جامعة للثقافة العالية كما فى مصر ، ولكن تشبه المتعلمين أو انصاف المتعلمين فتياناً وفتيات أعلى بكثير من نظيرها فى مصر وغيرها من البلاد العربية ، والجامعة الأمريكية هى التى تجعل ثقافتهم متشابهة متقاربة من نوع واحد ومستوى واحد ، والمناظر الطبيعية الساحرة التى لاحت لنا أول دخولنا ميناء بيروت وكانت الجبال فى الأسبوع الأول من ابريل مغطاة بالجليد ، وعلى أطرافها وسفوحها المنبسطة المنازل الأنيقة يعلو بعضها البعض ، وفى لبنان كما فى تركيا تكثر ليالى السماع والطرب مع فارق واحد ، ففى تركيا كانت اللغة غريبة علينا غير مألوفة ، أما فى لبنان فاللغة ذات لكنة عذبة ، وجرس رائع النغم .

والأهالى تجار غالباً ، ومعظم تجارتهم الناجحة فيما يستوردونه من أوروبا وخاصة الولايات المتحدة ، وليس فى لبنان مصانع أو منشئات لتشغيل العدد الكبير من العمال ، ولعل هذا هو السبب فى ميل اللبنانيين إلى الهجرة وبراعتهم فيها حتى لايخلو منهم بلد من البلاد فى أوروبا أو الأمريكتين .

الرحلة الخامسة

فى بلاد الانجليز

١٤ مايو سنة ١٩٥٣

كنت أود أن أرى اليابان وانجلترا واسبانيا قبل أن أغادر البحر نهائياً ، وأطلق هذه الحياة طلقة بائنة لا رجعة فيها وها هى الظروف تقذف بى فى طريق إلى بلاد الإنجليز فهل ستكون رحلتى الأخيرة أم ستكون لى رحلات سبع حتى أكون كما كان السندباد . . . نحن الآن فى طريقنا فى البحر الأبيض المتوسط وخلعنا جزيرة مالطه ، وأمامنا جبل طارق الذى رأيته للمرة الرابعة أو الخامسة ، سنعبر خليج بسكاى مرة أخرى حتى إذا انقضت أيام ثلاثة ، رست الباخرة على الشاطىء الانجليزى فيخرج كل على وجهه نبحث عن أغراضنا التى تقودنا وتسيرنا ، فمنا من يريد المرأة ، ومنا من يريد الكتب ، ومنا المغرمون بمشاهدة الآثار والاتصال بالشرفاء من الناس كما يفعل السائحون وأكثرنا يريدون الليالى الحمراء والعبث ، وما أكثر العبث فى ميناء يرحب بالبحارة والغرباء ، ونحن فى هذا أوذاك فى البحر أم فى الشاطىء مجهدون أو مكدورون دائماً ، نقضى نهارنا فى عمل شاق حتى إذا أقبل الليل

كانت سهرتنا شاقة أيضاً فتمتد حتى الثانية بعد منتصف كل ليلة وما يصحب ذلك من إنفاق يرهق ميزانيتنا الضئيلة الهزيلة .

وفى البحر نحن أنانيون لا نفكر إلا فى أنفسنا ، فعند ما تقلع السفينة وتتقطع الأسباب بيننا وبين الشاطىء ، تتقطع مشاعرنا التى كنا نشعر بها نحو أصدقائنا والأهل فلا نفكر فى غيرنا ونحن فى دوامة تشغلنا وتذهلنا عما عداها كأننا فى عجلة تدور لا تكف عن الدوران . صباح يأتى وليل ينقضى ، وأيام تطوى ولا شىء غير الماء والسماء والعمل المرهق المتواصل الذى يجعلنا مغلوبين على أعصابنا دائماً .

لست أدرى هل هو البحر الذى يأبى إلا أن يقطع تفكيرنا بأهلنا حتى يقطع اتصالنا بهم على الأرض — أم العمل المرهق الذى لا يترك لنا فرصة .

ها هو جبل طارق يقبل وتقبل معه أنحس ساعة شاهدتها على الباخرة ، وقد تكون أنحس ساعة شاهدتها الباخرة نفسها ؟ كان ذلك يوم السبت ٢٠ أبريل فى الساعة العاشرة صباحاً ، وكنت فى غرفة الماكينة عند ما رأيت المكبس يجرى وهو شعلة متوهجة ، وفى ثوان امتدت ألسنة اللهب تضرب يميناً وشمالا لم ينفع معها كفاحنا العنيف حتى اختلط بملابسنا ووجوهنا الزيت الأسود الملتهب الذى

يلفح الوجوه ، وكان يجب أن توقف الماكينة فى الحال . ولكن كبير المهندسين الايطالى رفض ذلك وآثر أن تستمر المجازفة ، وكانت الباخرة تحمل لأول مرة بعض الركاب من السيدات والفتيات فى طريقهم إلى انجلترا .

ربما آثر أن لا يزعجهم أو رأى أن شيئاً سيمس سمعته الفنية عند مايضطر إلى إيقاف السفينة فى عرض البحر ، وعند ما استشرى القدر أوقفت الباخرة ، ولكن ذلك حدث متأخراً ، وبدأنا عملا مرهقاً عنيفاً استمر ١٦ ساعة متوالية لتغيير المكبس الذى وجد مشقوقاً شقاً بالعرض يبلغ طوله ٢٠ سم .

وبعد ذلك بدأنا نسترد أنفاسنا ونشعر أن تعبنا أجدى ، وما كادت الباخرة تسير ساعة أو بعض ساعة حتى تكرر نفس المنظر السابق ورأينا المكبس الجديد يحرى وهو شعلة يغلب عليها اللون الأبيض فوقفنا مذهولين من هذه المصيبة فليس عندنا احتياطى آخر للمكبس وأمامنا رحلة مدتها خمسة أيام على الأقل ، وأن منظراً لا ينسى منظر جميع طاقم الماكينة ، وهم ينظرون إلى بعضهم البعض ثم إلى الأرض ساهمين صامتين كأنما ينظرون إلى قتيل ولقد طاف بذهنى احتمال الغرق كما قد يكون طاف بذهن الآخرين ، فأمامنا بسكاى مقبرة السفن التى كانت قلوبنا تسقط عند ذكر اسمه وحالة

الماكينة سليمة فكيف بها الآن وهى كالانسان العاجز المريض .

ومع ذلك فقد استمر ذلك الرجل المجنون فى المجازفة ولم توقف الباخرة فى الحال بل تركت بأمره تدور كما كانت فى المره السابقة ، واستمررنا نكافح النار وما هى إلا لحظة حتى دوى انفجار هائل فى جوف الماكينة كانفجار القنبلة ، وكان معنى ذلك حدوث تحطيم فى معدن المكبس المتحرك وأوقفت الماكينة بعد ذلك وأصبح التقدم إلى الأمام تام الاستحالة رجعنا إلى الخلف بعد أن أبطأت سرعة الماكينة وأغلق صمام الوقود عن ذلك المكبس التالف المحطم وكان يجب أن ترســـو على جبل طارق ، أو جزيرة سان فنسان الاسبانية القريبة منا فى ذلك الوقت ليتم ترحيل الركاب والأطفال على أى باخره مسافره إلى انجلترا ، ولتستدعى ورشة تساعدنا فى عملية التصليح .

ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، وانتظرنا الباخره فى عرض البحر بالقرب من جبل طارق ، وبدأنا عملا مرهقاً شاقاً أشد عنفاً مما كان بالأمس حتى استخرجنا المكبس التالف ، ووجدنا حوله شقاً بالعرض يبلغ طوله متراً أو مترين . أى على نصف محيطه بالتقريب ، ووضعنا مكانه درعاً من الصلب المبطن بالقماش ليعزل الفراغ الذى كان يشغله المكبس عن باقى فراغ الماكينة .

وكان خطأ ذلك الباشمهندس المجنون واضحاً فى شيئين ، فقد انتصرنا فى المرة الأولى وكان يهنىء بعضنا البعض على هذا الانتصار ولكن جعلنا نفقد هذا الانتصار ونجد بدلا منه مرارة الفشل والهزيمة . لقد أسرع يعطى للماكينة سرعتها الكاملة حيث كان يجب أن تدور بسرعة بطيئة لمدة يوم أو يومين حتى يستريح المكبس الجديد فى مكانه الجديد . وليس هذا ما حدث فقط ، فقد اشتعل المكبس الثانى ، وكان من الممكن تلافى تحطيمه أو تشققه كما حدث لسابقه إذا أوقفت الماكينة فى الحال بسرعة وتركت لتبرد مدة كافية . ولكنه رفض ذلك فى المرة الأولى ، ثم تركت لتبرد مدة غير كافية مدة لا تزيد عن الخمس دقائق بعد أن تركها حتى وصلت إلى اللون الأبيض ساعة أو بعض ساعة . . ثم أديرت للمرة الثانية وحدث ذلك الانفجار الهائل الذى دلنا على تحطيم المكبس تحطيما كاملا فرجعنا فاشلين يائسين إلى جبل طارق فى سرعة بطيئة فى هذه المرة . وأعجب ما فى الأمر أن الماكينة استجابت لنا فى هذه السرعة وسارت معنا مستريحة ، لولا ذلك الطرق الذى يدل على الكسر الداخلى . وماذا لو سرنا بهذه السرعة فى أول الأمر قبل حدوث هذا الخطأ . ولو أن مصرى يخطىء هذا الخطأ الظاهر للجميع لكان الآن فى المحكمة أو السجن أو على الأقل فى الشارع ، ولكن إيطالى قذر يخطىء وخطؤه ظاهر للجميع فلا يلام على ذلك ولو أدى إلى

غرق الباخرة . انقضت أيام خمسة على المفاجأتين الأوليين واستأنفت الباخرة سيرها بقوة خمسة مكابس بدلا من ستة وفقدت بذلك أكثر من ثلث قوتها فكانت سرعتها ١٠٠ لفة فى الدقيقة بدلا من ١٢٥ لفة وكانت تستهلك ٥٠٠ لتر فى الساعة بدلا من ٩٠٠ من زيت الوقود . . . ودخلنا خليج بسكاى وكان القدر يعد لنا مفاجأة أخرى أشد سواداً ونحساً من المفاجأتين السابقتين . . كان ذلك يوم الخميس ٣ ابريل الساعة الواحدة صباحا عند ما سمعنا صوتاً يشبه الاصطدام الهائل ورأينا الباخرة ترقص فى الفراغ رقصات مرعبة عنيفة مجنونة كأنها تريد أن تقفز من مكانها وتطير فى الجو فنزلنا بالبيجامات إلى غرفة الماكينة وكان عداد السرعة يقرأ ٤٠٠ لفة و٥٠٠ بدلا من ١٠٠ لفة فقط ولم نستطع تعليل ذلك فى أول الأمر فقد اعتقدنا خطأ أن بسكاى ثار علينا ثورة واحدة وبدون إنذار ووقعنا فى وسط عاصفة كالتى تحكى عن السندباد وانصرفنا إلى ذلك التعليل الخاطىء . ولكن عند ما أديرت الباخرة مرة أخرى رأيناها لا تتقدم إلى الأمام خطوة واحدة . ومن ثم استطعنا أن نعلل التعليل الصحيح وهو أن المروحة التى تحرك السفينة انتزعت من مكانها انتزاعا أو كسرت إحدى أطرافها الضخمة . والاحتمال الأول أقرب إلى الصواب ، فأصبح عمود الـ Shaft يدور بمفرده هذه الدورات السريعة الجنونية بعد أن خف عنه الثقل الذى يحفظ

توازنه وهو حوالى ٥ر٧ طن فزادت سرعة الماكينة وانطلقت تدور حول نفسها ، وتقفز كما تدور وتقفز النحلة وهى عاجزة عن التقدم خطوة واحدة . والحل الوحيد أن ترسل الباخرة إشارة استغاثة إلى أقرب ميناء انجليزى حتى تقبل سفينة أخرى تقطر سفينتنا المريضة . فى هذه الحالة تعتبر السفينة الأولى منقذة وسفينتنا فى حكم الغارقة ستدفع فى هذه الحالة مبالغ طائلة قد تصل إلى نصف ثمنها بما فيه من بضائع مكافأة للسفينة المنقذة على حسب قوانين البحر.

هذه ثالثة الأثافى كما يقولون حتى بدأت أعتقد فيما تقوله الروايات البوليسية . إذا حدثت جريمتى قتل فى ليلة واحدة فلتنتظر القتيل الثالث فى أقرب فرصة ممكنة .

وها قد حدث اضطرابان عجيبان فى أول الأمر ، وسرعان ما حدث ما هو أعجب من ذلك ؛ لقد شيبتنى هذه الرحلة بما رأيت فيها من أهوال وغرائب لم أرها فى أربع رحلات ماضية ، ولا ينقصنا إلا أن تصل الباخرة إلى أعماق المحيط ، ونستعمل نحن قوارب النجاة ، ثم ندخل مستشفى الأمراض العقلية . بعد ذلك كتبت لنا النجاة . . اللهم إن طريقنا ليس إلى النار فقد رأينا النار فى خليج بسكاى ، ورأينا الجحيم فى هذه الرحلة ، ومع ذلك فأنا أحب البحر وإن حبى له قد يصل إلى درجة الادمان والعياذ بالله .

فأنا لا أكرهه إلا فى وسط الأمواج والتيارات المخيفة فقط وعند ما ترسو الباخرة على أى شاطىء أنتقم لنفسى أو من نفسى من الحرمان الطويل باللهو والعبث فى هذه الحالة أنسى أننى كنت أكره . البحر بل العكس أعتقد اننى أعشق البحر ولا أرضى به بديلا هـذا هو البحر بقانونه ومظهره ، وطابع الحياة المحطمة المملة فيه ، فهل أحبه أوأحب فيه الوسيلة التى تجعلنى أرى شعوباً مختلفة وألواناً من الحياه متباينة فى الأقطار الغريبة التى ترسو عليها . لا شك فى أننى لو أفلحت فى تغيير هـــذه الحياة التى تمر بى ووطنت نفسى على الاستقرار سنة أو بعض سنة ، ولا أقول شهراً أشك فى أنه سيدفعنى الشوق والرغبة الملحة مرة أخرى لما وراء البحر من حياة وروعة ومتاع .

وبعد مضى يوم كامل أقبلت سفينة بريطانية سحبت سفينتنا إلى أقرب ميناء بريطانى ، وهو فالموث بعد أن كانت وجهتنا ليفربول ، ونزلت الراكبات الفاتنات واستراح (كامبينى) من ذلك الدور الذى أخذ على نفسه القيام به دور العجوز المتصابى فى بدلة البحرية الأنيقة المرصعة بالشرائط العريضة المذهبة ، وكان لا يرى من قبل بغير البنطلون القصير المهدل والفانلة بدلا من القميص .

نزلت الراكبات الفاتنات صباح يوم وصولنا ليستقلوا القطار

الذاهب إلى ليفربول ، وبدأنا نحن نضع أقدامنا على الأرض الثابتة العريضة نحبها ، وأصبحت تلهينا الحوادث اليومية البسيطة والمشاهد والحركة عن التفكير فى أنفسنا ، والجفاف الذى كنا نشعر به وسط الأمواج وفى فالموث رأينا مدينة صغيرة أنيقة ذات شوارع ضيقة نظيفة ، ومنازل ذات طابق أو طابقين على الأكثر ذات طابع إنجليزى بسيط ، فلو أردنا أن نبنى منزلا ونراعى فيه منتهى التبسيط فى التصميم والانشاء ، والمظهر الخارجى فسيكون هذا هو الطابع الانجليزى ، وللإنجليز غرام شديد بالزهور ففى كل منزل نرى حديقة صغيره أو حوض للزهور تتعهده رب أو ربة المنزل .

والإنجليزيات متوسطات الجمال ، وإذا وجدت فيهن جميلة فسيكون جمالها باهراً يندر وجوده فى أى بلد آخر وكلهن ذوات جمال بسيط وكانت هذه البساطة هى طابع الحياة وطابع كل شىء فى بلاد الانجليز .

والصفة التى يتمايز بها الانجليز هى الانطواء على أنفسهم فهم معتدلون فى مرحهم وسلوكهم ، وقد يكون تعليل ذلك وهو أن فالموث بلد زراعى صغير ليس به غير مصنع واحد لتصليح السفن والباقى تلال مزروعة ، ومزارعون مقيمون للزراعة ، وما تستلزم هذه الحياة الريفية من بساطة وتحفظ واعتدال ، وليس هناك هذه الفئة من النساء والفتيات اللواتى يطلبهن البحارة والأجانب والغرباء

فى الموانى التى تنتظم بها حركة السفن الذاهبة والجائية فى مواعيد معينة منتظمة .

هـذه الطبقة التى تعيش على هؤلاء البحارة وتدور فى فلكهم وتقوم حياتها عليهم فبزيارتهم تزيد ، وبزوالهم وانقراضهم تنقرض وتزول وليس فى المدينة حديقة واحده أوعدة حدائق فحسب ، بل هى بأكملها حديقة واحدة كبيرة تنتشر فيها المنازل الأنيقة ، وتتخللها الطرق العامة الضيقة والجو معتدل جداً فى هـذا الجزء الجنوبى من انجلترا ويسميها الانجليز ريفييرا انجلترا ، والأرض جميلة مرتفعة ذات مناظر فريدة ، وأجمل ما بها الغابة فوق أحد هذه التلال المطلة على ساحل البحر ، والمقاعد التى تغرى بالجلوس ، وتكاد تكون مغمورة وسط الزهور البرية المنسقة الألوان وقلما تخلو من عاشقين فى صلاة ومناجاة بعيدين عن أعين الرقباء ، وهناك بحيرة صغيرة يسميها Swan pool ، أو بحيرة البجع على قرب من أرض رميلية منبسطة تزدحم بالسائحات الفاتنات فى حياة تضج بالصخب وتموج بالفتنة ، وعلى بعد خطوات ،القبور الرخامية البسيطة ولهدوء المخيم على سكانها ، وهذه المقابر إن لم تكن فى مثل عظمة Compo Santo فى إيطاليا ولكن سمتها البساطة التى تميز كل شىء فى هـذه البلاد ، وأغرب ما هناك هو هذه الدنيا والآخرة . الحياة والموت الذان

اجتمعا فى صعيد واحد وليس بينهما غـــير بضع خطوات . لقد تركنى يوسف ، الزميل الذى كان معى فى روتردام وأوديسا وكوبا تركنى متخلفاً فى الاسكندرية وكان هو السبب فى نجاحنا الرابع مع الفتيات وبدأت هـذه الرحلة بمفردى حيث صادفنى الفشل الذريع فلم أتمكن بعد إقامة أيام فى فالموث من عمل علاقة محببة مع أى فتاة.

وفى اليوم الذى اعتزمت فيه الحصول على هذه العلاقة اخترت إحداهن وكانت تسير وسط فتيـات ثلاث ، اخترتهـا ذات ملامح دقيقة أنيقة وتبعتها حتى لفت نظرها إلى ، ولـكن ترددى الطويل هو الذى جعل بحاراً بولنـدياً يسبقنى إليها ، وكانت سفينته تجاور سفينتنا فتركتها مغيظاً وانصرفت إلى ساحل البحر . وجدت أمامى موظفة البريد وكنت قد ابتعت منها طوابع فى أول يوم من أيام وصولى إلى فالموث . رأيتها أمامى فى لباس البحر مع صديقة لها وعدة أطفال صغار ، يقفزون من الجسر الحجرى الذى جعل مرفأ للقوارب الصغيرة ، وكان أحـدهم يعابثها ويخطف ملابسها ، فمرت بجانبى وهى شبه عارية . . وعنـد ما قلت لها هل تقبلين جاكتتى ؟ أجابت أشكرك . . وقفت معها بضع دقائق ، وأذكر اننى قلت لها إنك جميلة وفاتنة فلم يسئها ذلك كما يحدث فى مصر . بل على العكس يسرها ويسر أى فتاة فى انجلترا أن يقال لها ذلك ، وقد تسكت وقد تقدم الشكر على ذلك فى غالب الأحيان . ولـكن باقى قد قدمت لى

شكرها كما قدمت لى خطيبها ذلك الغلام الذى كان يعابثها ويخطف ملابسها وقد ظهر فى ملابس طيار ضئيل الجسم . . رجعت إلى الباخرة بخفى حنين حيث كانوا يحتفلون بالعمال الانجليز بمناسبة آخر يوم لنا فى المدينة . وجلست بجوار عجوز أم كان علىّ أن أحتفى بها وأبادلها الحديث ولكنى تركت لغيرى مهمة الرقص معها وتركت ذهنى يطوف ويفكر فى هذه الصديقة المجهولة الاسم كما كان يفكر فى موظفة البريد .

غادرنا مدينة فالموث إلى ليفربول ورأينا مدينة صناعية فخمة ذات مبان يغلب عليها السواد المتراكم من دخان المصانع والسفن الكثيرة الراسية فى الميناء . ومن أروع ما شهدنا تمثال نيلسون وقد قرأت قبل ذلك أنه أقيم على أعلى قاعدة موجودة فى لندن حتى أن أى تمثال من تماثيلهم مهما بلغ ارتفاعه لا يبلغ فى الارتفاع ربع قاعدته . قرأت أن هذا التمثال مقام فى لندن فعجبت أن يكون أيضاً فى ليفربول ورأيت بعينى ارتفاع القاعدة مثل ارتفاع أربع طوابق أو خمس . وفوقها تمثال لا نستطيع أن نتبين ملامحه من ذلك العلو الشاهق . والحديقة العامة فى ليفربول التى تشهد ببراعة الانجليز وغرامهم بالزهور التى تستحق التسجيل فى اللوحات الزيتية الثمينة .

قضينا طوال شهر رمضان فى ليفربول ولم تكن لى صديقة ما

واكتفيت بأن أتجول فى طرقات المدينة وميادينها وحدائقها . وفى كل مكان وكل ركن وفى كل محطة من محطات الترام والأوتوبيس نرى العشاق متعانقين فى قبلات محمومة طويلة والمارة لا يكلفون أنفسهم عناء النظر ، وفى الأماكن المظلمة من الطريق العام يستطيع أن يرتكب أفظع جريمة مع فتاة ، وقد يراها البوليس ولا يتدخل فى ذلك ما لم يكن ذلك إكراه ، ومن المناظر المؤذية منظر هذين الوجهين المتلاصقين فى قبلة عنيفة طويلة ، لا أثر للبراءة والعفة فى هذه الملامح ، لا أثر لذلك الحب الشريف الذى يستدعى الاغتباط عند ماتراه مجسما على ملامح عاشقين ،وليس هناك غير تعبير يدل على الشهوة فى أحط وأقذر معانيها ، والرغبة فى صورة حيوانية تشمئز منها النفس ، ولست أنكر وجود هذه الرغبة أو الشهوة بين الرجل والمرأة ، ولكن هذه الصورة الداعرة فى قسمات كل منهما هى التى لاعهد لنا برؤيتها فى الطريق العام وهى التى كان يجب أن تسدل دونها الستائر وتختبىء خلف الجدران : ومن المناظر التى تستحق التسجيل منظر كاتدرائية انجليكانية فى مدينة ليفربول . لم أرى مثل ضخامتها وعظمتها فى بلد آخر ، وتبلغ فى ارتفاع المقطم أوقلعة صلاح الدين بما فى ذلك الجبل المقامة عليه ، ومما علمته أنه استغرق بناؤها خمسة وعشرون عاماً ، وأهم ما يلفت النظر هو كثرة العنصر النسائى بين مرتادى الكنيسة ، وليس معنى ذلك أن المرأة الانجليزية متدينة

فإن الذى يحيرنى أنها تفرق بين الدين والدنيا بمهارة كبيرة فارتيادها الكنيسة وقيامها بواجباتها الدينية لا يمنعها من أن تأخذ حظها من الحياة والاستمتاع بها كاملة ، فالدين شيء والدنيا شيء آخر والحرية الشخصية لاحد لها فى بلاد الانجليز تفوق كثيراً مارأيت فى هولنده وفرنسا . ولو أن هذه الحرية ضارة وغير مؤذية إلا أنه لا يحدها شيء . وقد رأيت بعينى رأسى الحياة الحيوانية التى تعيشها الفتاة الانجليزية فى ليفربول ، وقد كانت الايطالية هى الصورة العالية السوء للمرأة المستهترة العابثة فى نظرى حتى رأيت الانجليزية وخاصة إذا كانت أما ، أشد استهتاراً وعبثاً من كل ما رأيت .

وهذه الكاتدرائية بالرغم من وجود عدة قيود حولها تدفع إلى التفكير والتأمل واحترام هذه الأرواح والأجساد التى كانت تعيش وتلهو كما نعيش ونلهو . وبالرغم من ذلك نرى العشاق والمتسكعين متسترين بالظلام حول هذه القبور . والهولنديات والفرنسيات اللواتى يكملهن تعليمهن فى انجلترا هن الطبقة الأكثر اعتدالا واتزاناً وليفربول تشبه مرسيليا من حيث كثرة الأجانب المقيمين بها ففى مرسيليا كان المغاربة والجزائريون والسنغاليون . يتجولون فى الطرقات . ويجلسون على المقاهى المكشوفة . وفى ليفربول اليمنيون من مدينة عدن . والصوماليون مع فارق واحد ظاهر فى حياة

الأجانب فى كل من هذين البلدين . فى مرسيليا يعيش الأجانب منبوذين من أهل البلاد فى عزلة تامة عن الفرنسيين أما فى ليفربول فعلى العكس من ذلك وكثيراً مارأينا أسوداً فى منتهى القبح والدمامة يسير وفى ذراعه عروس انجليزية فاتنة كأنها ملكة من ملكات الجمال

وفى يوم من أيام شهر رمضان وقد حبسنى الصيام الطويل الذى يصل إلى ١٧ ساعة فى اليوم حبسنى ذلك الصيام أياماً طويلة عن الخروج . سرت منفرداً . وكانت الطرقات لاتخلو من العشاق الذين يسيرون متعانقين حتى يندر أن يسير رجل بمفرده أوامرأة بمفردها إلا إذا كان أحدهما يبحث عن رفيق له من الجنس الآخر . وعلى واجهة إحدى المحلات التجارية أقبلت إحدى هذه الفتيات . فتيات الليل . تفوح من فمها رائحة الخمر وهذا وحده يكفى لكى ينفر منها أقبلت من خلفى تدفع بكتفيها ظهرى دفعاً متصلا ملحا ثم تقول . هل تحب أن تقضى بعض الوقت معى للحب ولا شىء غير الحب. فلم أر أسلم من أن أتغابى وأدعى الجهل التام باللغة الانجليزية . وادعيت الجهل التام باللغة الأخرى الصامتة التى تتبعها المرأه عند ما يكون لها أن تختار . ادعيت الجهل باللغة التى كانت تقرأ على وجهها . والتى لايجهلها أحد وانصرفت متضاحكة معتقده أننى لم أفهم شيئاً مماتقول وفى طريق عودتى شاهدت أغرب منظر لم أره من قبل فى حياتى وكان ذلك فى ميدان هاملتون وهو أحد الميادين العامة الكبيرة المطلة

على البحر . كان أحدهم يحتضن فتاتين فى وقت واحد كل فى ذراع وقد انضمت الرؤوس الثلاثة فى قبلات طويلة وعلى بعد خطوات يقف رجلان من رجال البوليس يتعمدان التجاهل. صادف وجودى فى ليفربول الأيام التى كانوا يحتفلون فيها بتتويج الملكة اليزابيث الثانية حيث كانوا يديرون الخمر والرقص فى الطرقات طيلة عـــدة ليالى ، وقد عصمنى من ذلك الصيام والحمدلله على أننى لم أقض وقتاً سعيداً فى انجلترا كما كنت أتوقع .

obeikandl.com

الرحلة السادسة

تريستا

٤ يوليه سنة ١٩٥٣

ليس هناك وجه للمقارنة بين سكان إيطاليا فى مدينة جنوا التى رأيتها من قبل وبين سكان هذا الاقليم فى شمال إيطاليا — فى إقليم تريستا . الذى يعتبر بحق عروس البحر الادرياتيكى — وأذكر فى مدينة جنوا وكنت أسير مع زميلى فى طريق الميناء . وقد استوقفتا فتاة تحول بينا وبين الطريق. تطلب منا أن تقبلها ، وتقدم زميلى يقبلها قبلة مسرحية وعند ما جاء دورى أقبلت تمد فمها فى حركة ممطوطة فوضعت يدى على أسفل ذقنها لادير رأسها وأضع على خدها ما ليس منه بد . وفى تريستا وقد استقرت الباخرة فى ضاحية من ضواحيها تعرف باسم (موجا) . شقراوات جميلات تتدفق فى وجوههن حمرة رقيقة وشعورهن قصيرة مقصوصة كشعر الغلام ،جمال نادر يفوق كثيراً جمال الايطاليات على شاطىء البحر الأبيض المتوسط وأخلاق وسلوك تختلف ، أشد الاختلاف فهى صورة مقلوبة بين هذا الاقليم فى شمال إيطاليا وبين الخلاعة والاستهتار

فى جنوبها . وإذا كان فى تريستا عيب واحد هو وجود الجنود الأمريكيين ، الذين أفسدوا فساداً كبيراً حتى كاد أن يكون مثلا عاماً . وقاعدة عامة أن الامريكيين إذا دخلوا قرية أفسدوها بذوقهم وثرائهم ومجونهم . والمناظـــر الطبيعية الساحرة على ذلك الجبل الأخضر تتخلله الطرق المنحدرة . وعلى ضفتيها بيوت ريفية نظيفة والاوتوبيس الميمم إلى حدود يوغسلافيا وهو يرقى أو يهبط منه يميزه ذلك النفير الموسيقى الذى يكاد يكون لحناً من الألحان الرائعة التى تستسيغها الأذن . وعلى الشاطىء الرملى حيث السابحات الفاتنات العابثات مع الموج وفى هذه القرية الصغيرة بدأ غرام جديد لى .

كان ذلك يوم ٤ يوليـه وفى ذلك الميدان الفسيح . فى موجا تتوسط حديقـة صغيرة أنيقة تطل عليها بعض المنـازل وعلى بعد خطوات من الترولى باسى الذاهب الى تريستا . كنت أجلس على إحدى هذه المقاعد فى انتظار الأوتوبيس مع زميل لى عند ما مرت غادة فاتنة تشبه شبهاً عجيباً لممثلة مصرية كبيرة اشتهرت بأن تجرى فى صوتها نبرات حلوة عذبة ، مرت ومعها طفل صغير وسيدة تكبرها سناً ، وأسرعتا تنادى الطفل وأسرع يلبى نداءنا ويستجيب لمداعباتنا وأسئلتنا المتطفلة وهى ترقبنـا من بعد . ثم أشارت إليه فانفلت من بين أيدينا وسارت وهى تتعمد أن لا تلتقى بنظراتنا — نسيت هذه

الحادثة البسيطة كما نسيت بطلتها الفاتنة حتى جاء اليوم الذى رأيتنى أقف فيه بجوارها أمام الملاهى الصاخبة فى (موجا). وقد اتصل بنا حديث قصير لم أتذكر خلاله اننى رأيتها من قبـــل حديث عادى لايدل على شيء، وان كنت قد حاولت أن أجعلها تفهم منه شيئاً ما. حاولت أن أعطى كلماتى وإشارات يدى وتعبير وجهى معنى الأعجاب بهـا مجتهداً بما عندى من كلمات إيطالية قليلة · وبعد يومين رأيتها للمرة الثانية فى ذلك الملهى الصاخب الـكبير ثم تحولت إلى ذلك الطريق المظلم الذى يندر أن يسير فيه غير عاشقين ذلك الطريق الساحلى الذى يسوده الظـلام ويحتل العشاق جسره الحجرى الطويل الممتد على طول الساحل، أو متشابكين فى سيرهم الحالم على الجانب الآخر من الطريق تحت ذلك السفح المعشوشب . كان الوقت مبكراً . لم يؤذن بانتهاء السهرة بعد ، وان كان يؤذن ببعثها . فتبعتها فى ذلك الطريق لعلهـا تريدنى . أو على الأصح لعلهـا تذكرنى، وما يدرينى لو أنها تعمل ذلك من أجلى . وما يضيرنى لو جربت فلا ضير من التجربة إذا لم يكن هناك من شيء مما فـكرت وقدرت. فأمامى الطريق إلى الباخرة . سرت عدة خطوات قليلة لكى الحق بهـا وهى تسير متباطئة وفى ذراعها صبية صغيرة . ولـكن لم ألحق بها كما أردت بل فوجئت بها تقابلنى وجها لوجه ولم تظهر على ملامحها ما يشجعنى على محادثتهـا، ولم أكد اتجاوزهم ببضع خطوات حتى رأيتهـا تتلفت كما

تلفت أنا ، وتبتسم كما تبسمت ، ثم تضحك فى صوت مسموع وتتحول إلى ذلك الجسر الحجرى وتتوقف بجواره . وهكذا عدت واستطعت أن أدير معها حديثاً ناجحاً أكثر نجاحاً من سابقه قبل يومين . وكان ذلك الحديث باللغة الايطالية فهى لا تدرى من الانجليزية شيئاً . وبدأت بسؤالها عن اسمى . ثم هل لك صديقة فى مصر . وفى هذا الحديث انقضت بضع دقائق وأخرجت لها مامعى من صور عائلية ومشاهد مصرية ملونة وكنت أتعمد أن أمس بخلد وجهى شعرها القصير الغزير الذهبى وهى منحنية على هذه الصور وهكذا أصبحنا صديقين وعندما أرادت أن تنصرف استوقفتها لكى أعثر على الكلمة التى أوشكت أن تفلت منى وهى الى اللقاء . وأجابت إلى اللقاء . واستدارت لتنصرف وعدت استوقفها مرة أخرى «ومتى يكون هذا اللقاء واستطردت قبل أن تجيب باكر فى نفس هذا المكان وفى هذه الساعة . وأسرعت تنظر الى الأرض كأنها تفكر وإلى صبيتها الصغيرة كأنها تستشيرها ثم أومأت بالايجاب، وهكذا أصبحت عاشقاً ، وبدأ أول غرام حقيقى صادق لى ، ومع سيلفانا قضيت أسعد أوقات حياتى فى سهرات عاطفية لا أثر للشهوة أو الرغبة فيها . . واحتلت اللغة الايطالية مكان اللغة الاسبانية وزادت كلماتى حتى أوشكت أن تصل إلى الف كلمة . وهو ضعف العدد الذى أعرفه من الاسبانية وهذا يكفى لكى أفهم عنها وتفهم عنى فهما كافياً .

وسيلفانا من عائلة فلاحين ومن طباعهم المحافظة كما هو الحال فى فلاحى مصر أو فلاحى أى بلد آخر ، وهى من مواليد جنوا وكانت تمضى فترة الصيف عند شقيقها فى موجا الذى يعمل فى مصنع بناء السفن ، وعائلتهم فقيرة ولكنها من أجمل جميلات موجا ويحسدنى عليها الكثيرون ، ولجمالها تعرضت لكثير من المشاكل التى يثيرها الزملاء الحاسدون وغير الحاسدين ، كما أغضبت كثيرين حتى استطعت أن أستخلصها لنفسى .

لم أكن عابثاً فى هذه العلاقة الجديدة ، وكم كان بودى أن أتزوج من هذه الكاثوليكية الحسناء ، وقد وقفت مشكلة الدين بيننا أول الأمر ، ثم عادت تظهر مشاكل جديدة أخرى ، وقد أوضحت لها وأنا أقبل الصليب المعلق فوق صدرها ، أننى أحترم دينها ولن أطالبها بتغييره فى يوم ما .

وما أعجب الحب الذى يصنع المعجزات فقد أصبحت فى مدة يومين بطلا من أبطال السباحة والقفز إلى الماء من ارتفاع ٥ أمتار ، وكان السبب فى ذلك هو وجودها فى البحر ولا شىء غير ذلك ، وفى مساء كل ليله كنت أتوجه إلى ذلك الكازينو بجوار بوابة طويلة تشبه بوابة المتولى فى مصر مع اختلاف لون الحياة فقط ، وكنت أجلس على ذلك المقهى القريب من منزلها حتى إذا

مرت وأمامى والدتها أو شقيقتها ، عدت إلى مدينة الملاهى وأنفقت ساعة أو بعض تكون خلالها قد انفلتت من والدتها أو شقيقتها إلى ذلك المكان الخالى البعيد عن أعين الناس مع صبيتها الصغيرة التى لا تفارقها فأقضى ساعة تجعلنى أنسى الجهد المرهق الذى أبذله يومياً فى غرفة الماكينة ، وجيبى لا يخلو من قطع الشيكولاته الصغيرة والصور المصرية الملونة التى تحبها الطفلة الصغيرة ، وجلساتنا بسيطة لا تكلفنى شيئاً فهى ترفض أن يرانا أحد من الأهالى فى مكان عام كالسينما أو المسرح . لقد فكرت فى دعوتها إلى الباخرة يوماً ما ، والحمد لله الذى لم يحدث ذلك .

فقد حدثت ثورة بين البحارة والضباط الملاحين وذلك بسبب الفتيات فقد كانوا يحتفلون بذكرى مولد الجمهورية المصرية الأولى وكان مع كل ضابط ومهندس فتاة يرقص معها فى صالون الباخرة ، وقد أثار ذلك فضول البحارة فحدثت ثورة كلام وجدال وسرعان ما تحولت ، والسبب فى تحويلها إلى الخمر ، فجاءت ثورة مصارعة يابانى وباظت الحفلة والحمد لله على أن سيلفانا لم تكن معى . مادامت لم يزل فى المصريين هذه النعرة الدينية التى يحلو لهم أن ينفذوها على غيرهم فقط أما على أنفسهم فلا ، وكلهم زان وكلهم يشرب الخمر ، وبعد ذلك لم أفكر فى دعوتها إلى الباخرة واكتفيت بلقائها فى البحر نهاراً وفى مكاننا المتفق عليه ليلا . حتى حدث ما لا بد أن يحدث

وانقضت أيام السعادة والراحة . وأقبلت أيام الشدة والتعب ، وإنى لأذكر قول الذى سئل . كم مرة أحب ؟ فقال : وكم مرة أصبت بالزكام . أما أنا فلا أشكو الزكام ، وإنما أشكو الحب وأرجو الله أن يكون هذا آخر حب ، وإنى لأعجب ماذا أعمل بهذا العدد الكبير من الفتيات ، فلكل فتاة رحلة أو لكل رحلة فتاة . وهل أنا سعيد أم يخيل لى ذلك ؟ هل أنا أخدع نفسى أم أخدع الناس إننى أشعر بالغيرة تنهش قلبى نهشاً . فإن تقاليد فتاة أجنبية مهما كان اعتدالها لا تتفق مع تقاليد الفتاة المصرية . أذكر قول صديق لى هل تعتقد أنه توجد فتاة فى مصر ترضى بك زوجاً وأنت فى مثل هذه الحالة تضرب فى الآفاق .

نعم أوافق أيضاً على أنه لو وجدت هـــذه الفتاة لاسترحت وأرحت . وأصبحت من أوفى الناس لها واحفظهم بعهدها . فأنا فى تريستا أرفض صداقة عدة فتيات جميلات من أجل سيلفانا . وقد أرفض صداقة سيلفانا من أجل الفتاة المصرية ولكن أين هى ؟ لست أدرى ماذا سيجىء به الغد . قد تكون سلفانا زوجة لى فى يوم ما - وقد يكون كل نصيبى منها تسويد عدة صفحات يطويها النسيان بعد ذلك . والتقلب فى بضعة أيام منعمة باللذة والقلق والألم ومزاج من كل هذه المشاعر المتدفقة بدلا من السكينة وراحة البال وما أعجب قلب العاشق الذى يرفض الراحة ويلح فى طلب العذاب

يسيره قلبه وعواطفه معدوم الإرادة . مسلوب الرأى مغلوب على أمره . حتى إذا تنبه لخطئه بعد ذلك قد يرعوى ويعود إلى الطريق الصواب . ويغلب عقله على عاطفته . ويكون قد أصابه ما أصابه من هم وقلق وشغل . كانت أيامنا الأولى هادئة سعيدة راضية نجلس فى نهاية طرف بارز طويل من الأرض اتخذ مرفأ للقوارب الصغيرة ، نفترش الأرض على ساحل البحر ، مدلاة أرجلنا فوق الماء ، يخيم علينا الظلام والليل بستائره الكثيفة السوداء . وعلى هذه الكتلة الحديدية المفروشة فى طرف الساحل والتى تربط بها السفن نجلس عليها متلاصقين وتفترش الطفلة الصغيره الأرض . أو تترك لنا بضع لحظات قصيرة متشاغلين بالنظر إلى المدينة الصغيرة وهى توشك أن تنام وتخمد حركة ملاهيها وموسيقاها . وأذكر قولها لى . لو حضرت والدتى الآن ورأتنى معك لقذفت بى إلى الماء . فأجيب . لا تخشى شيئاً فسأسرع إلى إنقاذك . وما يمنعك من أن تخبرى والدتك بما بيننا . وما يمنعنا من الزواج وأمامنا شهران سنقيمهما فى هذه الحديقة تستطيعين بعدها أن تسافرى معى على الباخرة .

وعند ما كنت أودعها فى هذه الليلة أحسست بيديها فى مثل برودة الثلج لا أدرى ما سبب ذلك هل هو الحب ؟ أم الخوف ؟ هل كانت تحبنى أم تخافنى . . . أما أنا فقد كنت أحبها ورفضت

صداقة فتيات كثيرات من أجلها وأذكر فاوست التى كانت تطاردنى بغرامها فأنفر منها ، كما أنفر من أية فتاة تمتهن عاطفتها ونفسها امتهاناً مزرياً ، ولا أحس لها فى قلبى غير الاشفاق والرحمة ، فتزيد فى غرامها حتى كنت أصرخ فى وجهها وهى تتمسح بى وتمر بأناملها على وجهى وشعرى ، وتهمس فى أذنى بأنها تحبنى . وفى باطنى صوت يريد أن يقول إنى لا أريدك وقلبى مشغول بغيرك ، ولكنى كنت ألجأ إلى النفاق بدلا من جرح كبريائها وإهانتها ، وقد كدت أصرخ فى وجه سيلفانا وهى تقف بجوارى باردة جامدة كاوح من الثلج وهى أقرب إلى الانجليزية منها إلى الايطالية المشبوبة العاطفة . لم تكن سيلفانا أول فتاة أحدثها بأسهاب عن نفسى وعن مصر، وعن أى فتاة مرت بى من قبل ، وكنت أغادر مكانى فى موجا . وحولى عدة فتيات جميلات يردن السهر والرقص والغرام.فكنت أغادر مكانى لأرى سيلفانا ولكى لا ترانى هى فى مثل هذا الموقف ، وكان جزائى جزاء سنمار .

لقد أثارت غيرتى وتمادت فى ذلك ، وأحمد الله على أننى لم أنس إننى مصرى وهى ايطالية . تأتى من العادات والأعمال ما لا يستطيع أن يلومها عليه أحد . لم أنس نفسى ولم أصفعها تحت تأثير غيرتى الشديدة معرضاً نفسى بعد ذلك لخطر المحاكم والسجن ـ لقد أردت أن أضع لحبى هذه النهاية القصيرة الجميلة ، ولكن القدر

الذى أراد أن تطول أيامى معها ويزيد شقائى بها . أصبحت أود الرجوع إلى وطنى وبيتى ، وقد كنت من قبل أود عدم الرجوع . وأفادنى ذلك فى أن أحترم التقاليد المصرية الجميلة التى كنت أهزأ بها سابقاً . التقاليد المصرية البسيطة ما أجملها . إننى أدافع عنها الآن ، وسأدافع عنها ما حييت .

لقد رأيت فى رحلاتى السابقة لكل شعب تقاليد معينة تختلف عن تقاليد الشعب الذى يجاوره ، وهى التى تميز شخصية هذا الشعب عن ذاك وكل يحترم هذه التقاليد ويحافظ عليها بل ويقدسها . أما فى مصر فهناك تقاليد بسيطة سليمة ، ولكن الغالبية العظمى لاتحافظ عليها بل تتمرد عليها بجهل ، وبدون تفكير سليم . يريدون أن يقلدوا أوروبا فى كل شىء كما يقلد القرد ، ونسوا أنهم يهدمون شخصيتهم وميزتهم وكيانهم بهذا التقليد .

ما أجمل المصرية لو نظرنا إليها نظرة منصفة . ما أجمل الشعر الأسود والكستنائى والعيون السوداء أو البنية . ما أجمل الملامح المألوفة لنا . القريبة من قلوبنا ، وفى أوروبا تفتننا العيون الزرقاء والشعر الأصفر . ولكننا لا نرى حلاوة طبع المصرية وجمال روحها وتقاليدها وعاداتها . . ما الذى جعل علاقتنا تفسد وتنقطع ما الذى يدفعنى إلى التفكير والقلق بعد أن تفسد هذه العلاقة وتنقطع ، ولكنه كان خطأى فى الحالتين فقد قلت لها بدافع

كراهيتى الشديدة للإيطاليين . إننى أتمنى لو كنت فرنسية تتكلمين اللغة الإيطالية كما أن الكندية تتكلم الانجليزية ، والكوبية تتكلم الاسبانية . لقد نسيت أنها إيطالية ولم أنس كراهتى الشديدة للإيطاليين ، ولا أدرى ماسبب هذه العقدة وماسبب هذه الكراهة هل هى الحياة الباذخة التى رأيتهم ينفقونها فى ليبيا ، والفرق الشاسع البعيد بينها وبين حياة الأهالى الذين يسكنون الأزقة والدروب ، هذه الصورة التى نراها فى نطاق ضيق فى بعض الموانى المصرية مثل الاسكندرية والسويس وبورسعيد سبب هـــذه العقدة ؟ هل هو فرانكو كامينى كبير مهندس الباخرة الذى رأيت فيه صورة لاتنسى من الصفاقة والدناءة والخسة .

لا أنكر أننى رأيت فى تريستا قوماً مؤدبين مهذبين كما رأيت فى كندا وروسيا وهولندا ، وليس من العدل أن نحكم على شعب بأكمله متأثرين بالحكم على شخص واحد أو عدة أشخاص .

ثم كانت اللغة فلم تكن تعرف من الانجليزية حرفاً ولم أكن أعرف من الإيطالية حرفاً يوم أن لقيتها ، وأجهدت نفسى فى دراسة هـذه اللغة كى أفهم عنها وتفهم عنى ، ولكنى لم أصل إلى الدرجة التى كانت تفهمنى بها فاوستا التى تجيد الانجليزية إجادة تامة وما من شك فى أننى لم أفهمها فهماً تاماً ولم تفهمنى هى كذلك ، وقد قلت ذلك فى إحدى المرات . فأغضبها ذلك . فى هذه الفترة أخذ

حباً يضعف وصداقتنا تبلى وترث ، وفى هذه الفترة ظهرت فاوستا تطاردنى بغرامها وصداقتها واستطاعت بإلحاحها أن تورطنى وتحصل منى على وعد بلقائها ، وعند ما كانت العاشرة مساءاً فى اليوم المتفق عليه لمقابلتها كنت آوى إلى فراشى بعد أن اعتكفت طيلة ذلك اليوم وأنا أنتزع من ذهنى صورتى سيلفانا وفاوستا . صورة فتاة تريدنى وأخرى لا أدرى إذا كانت تريدنى أم تجاملنى . تحبنى أم تعطف على ، وما الفرق بين سيلفانا وفاوستا ، والأخيرة برغم نظارتها الطبية أكثر ثقافة وأوسع اطلاعاً . أما سيلفانا فإنها أكثر أنوثة وحياء . . فى هذه الفترة انقلب البحر فجأة فتحول الصيف إلى شتاء فى بضعة لحظات ، وزأر البحر زئيراً عنيفاً حتى طغت الأمواج على الطرقات وحبست المرور ، وأمطرت السماء وأرعدت واشتدت برودة الجو ، وهرب المصطافون ، واعتكفنا فى سفينتنا عدة أيام ، وما أن هدأ الجو وتفاءلنا مرة أخرى بالربيع الصحو حتى أذاع راديو تريستا يحذر المصطافين من الاستحمام بسبب دخول سمكتين من الأسماك المتوحشة (القرش) إلى منطقة الميناء خلف إحدى السفن .

وفى هذه الفتره أخبرت والدتها بعلاقتنا كما طلبت منها سابقاً وقدمتنى إلى والدتها وشقيقتها ، وتبادلت حديثاً طويلا مع شقيقتها الذى نسيت اسمه ، واستطعت أن أختلس عدة دقائق أهمس فى

أذنها بأننى أغار عليك لأننى أحبك ولكنى لم أستطع أن أفهمك ، وقد حضرت لأودعك وستقلع سفينتنا إلى ميناء تريستا بعد يوم أو يومين ولن أحضر إلى (موجا) بعد ذلك . . فأجابت وقد فاجأها قولى . لماذا لا تريد الحضور إلى (موجا) مرة أخرى ؟ فأجبت . ألا تعرفين السبب وكانت إجابتها وهى تنظر إلى الأرض لا . ولم تسعفنى اللغة . . لأقول لها إنك كاذبة فى ذلك فقد آثرت غيرى وتماديت فى ذلك حتى شاب حبى لك الكثير من البغض ولا أقول الكراهية بالرغم من أننى أصلى وأقرأ القرآن ألا أن ذلك لم يكن كافياً ليدخل السكينة إلى قلبى ويبعد القلق والغيظ والحب عن تفكيرى وعقلى .

وفضلا عن ذلك فلست عابثاً ، ولا أريد أن ألقاك مالم أعرف نتيجة هذا اللقاء ، وقد انقضى الشهر ولم يبق على مغادرتنا تريستا بأجمعها غير أيام قلائل ولم أعرف حتى الآن رداً على أسئلتى التى عرضتها .

ولم أكن أدرى أنها تؤخر هذا الرد وتتعمد تأخيره لليوم الأخير وكأنما هناك اتفاق صامت بينها وبين والدتها وشقيقها على ذلك . وعندما انتقلت الباخرة إلى مدينة تريستا لم أستطع أن أحبس نفسى غير أربعة أيام فقط . نعم . لم أنس فى زحمة المدينة الكبيرة ماحدث

لى فى القرية الصغيرة ، وذهبت إليها بعد كل هذه الايمان المغلظة التى حلفتها الا" أحضر إلى (موجا) بعد سفر الباخرة .

وحدث أن قطعت المواصلات الحديدية والعربات بسبب الإضراب العام فى جميع اتجاه تريستا . ولكنى ذهبت إليها بطريقة معربدة شاقة ، وكنت أسير فى طرقات المدينة تحفنى نظرات كثيرة متسائلة مندهشة عن حضور هذا بعد أن سافرت باخرته وما ذا يريد ؟ لقد كنت أرى فى وجوه الشبان والشابات هذه الأسئلة ، وكانت الإجابة عليها بعد لحظات عند ما وقفت بجوارها فى وسط الأضواء الساطعة الشديدة ، ثم عادت تدلف إلى ذلك الركن المعتم خلف المدينة اللاهية ، ولكنى لم أستطع فى خلال الأيام القصيرة الباقية أن أصلح ما أفسدته هى فى خلال الأيام الكثيرة السابقة ، فنفضت يدى منها . . . وما كدت أفعل ذلك حتى رأيتها تخرج من هدوئها وحيائها وهكذا أصبح الطالب مطلوباً ، ولكن بعد أن عافتها نفسى وزهدت فى قربها.

وكان أغلب هذه الأيام خصام طويل متصل لا أكاد أنهيه حتى تبدؤه هى أو تبدؤه الظروف التى لا حيلة لى فيها .

ومن ذلك ماحدث فى يوم عاصف مطير. جعل المدينة الساهرة تغلق أبوابها وتنام مبكرة ، ومع ذلك ذهبت إلى موجا ورأتنى

صبيتها الصغيرة ولم أكن أدرى أنها ستخبرها بذلك . ويشاء الحظ العاثر أن تجلس على مائدتى قبل دخولها بلحظات فتاة لاأعرفها فقد تحولت المائدة بسبب الأعصار العنيف فى الخارج إلى مائدة عامة يجلس عليها الجميع . وكان أن أغضبها ذلك . فلم أكد أقابلها وجهاً لوجه حتى أسرعت مبتعده عنى ـ فتجاهلتها وسرت فى طريق مغيظاً حانقاً أودّ لو أحطمها وأحطم كبرياءها هذه .

وفى مساء هذه الليلة كانت تقف فى طريق عودتى إلى الباخرة على غـــير عادتها . وكانت الفرصة سانحة لكى أسبب لها بعض ما سببت من ألم ولـكنى أشفقت على كبريائها أن تتحطم وأشفقت على نفسى أن لا أودعها ولم يبق على سيرنا غير يوم أو بعض يوم ولست أدرى هل كنت أحبها . أحب هدوءها واتزانها وكان ذلك يغيظنى فى أحيان كثيرة . أم كنت أحب نفسى وأوثرها بالخير . أحب أن تـكون لى زوجة شريفة جميلة . وأجمل مافى الدنيا زوجة شريفة جميلة . . هل كنت أحب هذه الأيام السعيدة التى مرت بى . الأيام القصيرة السريعة ـ قصيرة كعمر الزهور . سريعة كالأحلام جميلة كما هى ، وجميلة كالزهور والأحلام .

لقد كنت احبها ورفضت صداقة كثيرات . ومنهن سينسى . وسينسى هذه مدرسة اللغة الانجليزية فى مدرسة المدينة . وقد اقبل

زميل يبلغنى أنها أعجبت بى وتدعونى للتعرف بها ، ولكن التى أعجبت بى لم ترقنى فرفضت هذه الدعوة وأنا أتمثل ببيتى الشاعر كامل أمين:

ولو كان لى قلبان عشت بواحد ... لهذى رفت لتلك قلبى الثانى
ولكن تعلقنا هوانا بفاضح ... أراها به فى الصدر حيث ترانى

وتكرر طلبها هـــذا وتكرر رفضى لذلك . حتى كان اليوم الأخير لنا فى المدينة ، وكنا نجلس فى جمع من المصريين على ذلك المقهى المواجه للبوابة الطويلة . عند ما أقبلت مع زميلة لها . حيث رأيتها لأول مرة وإن كانت هى رأتنى كثيراً ولم أتثبت من ملامحها فى غير هذه اللحظة . رأيت فتاة جميلة لا تقل جمالا عن سيلفانا إن لم تزد . لعلها كانت تنتظر منى الكلمة التى تقولها جزافاً لمن تعرفه ولمن لا تعرفه . ولكننى لم أستطع أن أقدم صداقتى التى ألحت فى طلبها . لم أستطع كذلك أن قدم لها الكلمة التى أقبلت اليوم تريدها وهل سأندم يوماً ما على ذلك . على أن رفضت صداقة فتاة كريمة مثقفة جميلة فضلا عن أنها تريدنى . وانطلقت خلف فتاة غادرة . تخفى وراء هدوئها العذاب الذى يضنى ويعجز ويحطم .

ولكن لم يكن لى أن أختار . ولو كنت مختاراً لا نصرفت عن طلبيهما فلى من متاعبى ما يصرفنى عن هذه وتلك ، ولكنه القدر الذى اختار لى لكى يضيف إلى متاعبى متاعباً ، وإلى شقائى شقاء .

وعلى شاطىء البحر ، وإن كان الليل قد انتصف أو كاد رحنا ننفق آخر ساعات لنا فى وسط هذه الشلة الكبيرة من الفتيات ، وإن كان لكل فتى فتاة وليس لى شىء ، فقد كانت لى طفلة كبيرة لم تفصح لى عن ذات نفسها كما كنت أريد ولم تنطلق معى كما أرغب . قضينا سهرة سعيدة امتزج فيها الغناء المصرى والإيطالى . والموسيقى الشرقية والموسيقى الايطالية . كانت سهرة صاخبة مرحة .

انصرفنا بعدها إلى ذلك الميدان الفسيح لكى نستقل الترولى باس لآخر مرة فى طريقنا إلى تريستا . وغداً ستضرب الباخرة فى الماء مفارقة ذلك الشاطىء السعيد . وقد تعود يوماً ما إلى ذلك الشاطىء نفسه وقد لا تعود . على الإطلاق . . . وقد تعود ولا أكون بها وأكون قد وطنت نفسى على الاستقرار فى الأرض الثابتة . وقد أكون بها ولا أجد هذه الوجوه التى أراها الآن . . وكيف يثبت الزمن وهو سريع التبديل والتغيير ينقلنا من طور إلى طور وهذه سنة الله فى الأحياء والأشياء .

فى ذلك الميدان الفسيح رأيتها تنتظرنى وما أعجب هذا الوفاء الذى لا يظهر إلا فى الساعات الأخيرة بل فى غير الدقائق الأخيرة فى ذلك الميدان الفسيح الذى رأيتها فيه أول ما رأيتها قبل شهرين وانقضت هذه الأيام ولم أقبلها قبلة واحدة . وقد أردت ذلك يوماً فرأيتنى أطبق على الهواء ، فجن جنونى واندفعت كأننى فى صراع

أقيد يديها محاولا الوصول عبثاً إلى وجهها الذى كانت تدفنه فى صدرى ولم أرى غير شعرها الذهبى القصير أنثر عليه قبلاتى السريعة القصيرة . . بينما روعت الصبية الصغيرة التى كانت بصحبتها دائماً . فى هذا المكان الذى رأيتها فيه لأول مرة وأراها الآن لآخر مرة فغداً سوف تضرب الباخرة فى الماء ولن ترحم عواطفنا عند ما تصارع الموج . وتضربه ضرباً غير رقيق . كأنها تريد أن تبتعد أو تتخلص منه . فى هذا المكان نسيت إساءتها وعذابها ، وما كان يشقينى غير ذلك . وتقدمت إليها مصافحاً ومودعاً الوداع الأخير وكانت تقف ومعها والدتها وشقيقها . وقد تكلمت والدتها ولم تكن تتكلم من قبل . . إذا كنت تريدها فلماذا لا تقيم هنا . . فأجبت . . ولماذا لاتقيم هى معى فى مصر وأنا أعدك بأن أحضرها لزيارتك كل عام . . وكانت إجابتها وكأنها فصل الخطاب . لقد تزوجت شقيقتها من قبل وعرض زوجها الذى يقيم فى (جنوا) أن يحضرها لزيارتنا كل ستة أشهر . والآن تنقضى السنين ولانراها وجنوا بجوارنا قريبة لايفصلها عنا غير ساعات ، أما مصر فيفصلها عنا أيام . . ولم أوجه شيئاً من الرد على قول العجوز الكبيرة . ولم تشرب شيء هذه الطفلة الكبيرة كذلك . وليست إيطاليا بالبلد الذى تغرى الإقامة فيها ، ففيها ما لا يقل عن نصف المليون من العمال العاطلين . . ولنختصر هذه المناقشة الغير محبوبة فى هذا الوقت .

الضيق فلم يبق على انطلاق الأوتوبيس الأخير غير لحظات ، ويدى فى يدها لا أريد أن أدعها . أريد أن أطيل هذه اللحظات القصار وأجمل ما فى العمر لحظات قصار وما أن صافحت والدتها وشقيقتها حتى أسرعت يداى تلف يديها مرة أخرى ، ولم أتنبه لذلك الطفل الصغير الذى يقفز بين ساقينا وهو يمد يده مصافحاً إلا بعد أن نبهتنى لذلك . وعادت يدى تتلقف يديها مرة أخرى وعلى وجهى شىء لا هو الابتسام ولا هو الألم . إنما هو الابتسام والألم يتناوبان على وجهى ، ويمتزجان ، من ذلك ، لا أذكر ما إذا كانت كلماتى الأخيرة فلم تكن هناك كلمات أخيرة . وإنما كانت يدى التى تعتصر يديها ، وعيناى وخلجات وجهى هى التى تعبر عن كلمات كان يعجزنى قولها . . .

مددت يدى أربت على ذراعها . وكم كنت أريد أن أقبلها وانطلقت إلى الترولى باس الذى بدأ يعلن عزمه على السير لا أريد أن أنظر إلى الخلف ونفسى الضعيفة قد تنازعنى إلى التخلف والبقاء وعند ما بدا يتحرك . وينعطف مع الطريق الطويل . وينطلق بعد ذلك اسرعت انظر إلى الخلف والتقطتها عيناى ووجهها وقوامها فى صورة أشبه بالظلال .

لم تطفر الدموع من عينى امامها . وإنما طفرت بعد ذلك

عند ما اخذت الباخرة تبتعد عن ذلك الشاطىء الحبيب مطلقة صفارات ثلاث للتحية والوداع . ويعزيني وقد كتبت لى عنوان إقامتها الدائمة فى جنوا . انه قد تمكننى الظروف من رؤيتها مرة أخرى فى يوم ما .

الرحلة السابعة

جنوا مرة أخرى

٢١ سبتمبر سنة ١٩٠٣

اليوم ٢١ سبتمبر ، وقد عادت الباخرة إلى جنوا مرة أخرى وما أن ألقت مراسيها . حتى أسرعت إلى Ruta حيث تسكن سيلفانا فى إحدى ضواحى جنوا وتبعد عنها مدة ساعة بالسكة الحديد

فى هذه القرية الهادئة التى تقع على قمة شديدة الارتفاع وقد وصلت إليها بعد الثامنة مساء ورحت أشق طريق خلال هـــذه الطرق الضيقة خلف ذلك الدليل الذى تطوع لارشادى فى طريق ملتوى غير معبد شديد الانحدار يضيق حتى لا يكاد يتسع لشخصين ويصعد تارة كأنما يصعد لقمة الجبل ويهبط كأنما يهبط إلى وادى عميق ويكشف بين ذلك عن مناظر طبيعية ساحرة تلوح من أسفل كأنما ننظر إليها من طائرة يطوف بها البحر الملتهب بضوء القمر . وعند مايجتمع البحر والجبل والأرض الخضراء تجتمع جميع عناصر الابداع والسحر الحلال .

وقف بى أمام دار متواضعة ذات طابقين ، وبدأ يطرق الباب

الذى أبى أن يجيب ، وكان ما كدت أحذره فلم تكن سيلفانا فدغادرت تريستا بعد وهى التى قالت أنها ستغادرها فى منتصف سبتمبر أما الآن فهى تنوى مغادرتها فى منتصف أكتوبر كما قيل لى فى هذا اليوم عند جيرانها ، تركت لها خطاباً صغيراً بالايطالية يعبر عن سوء الحظ لعدم رؤيتها ، وأخذت طريق الشاق بعد ذلك . وقد كرهت نفسى الاقامة فى فندق القرية ، وكان على أن أسير إلى قرية أخرى تقع فى سفح هذا المرتفع تسمى Kamolia (كامولیا) وتهبط عنه هبوطاً عمودياً لكى أستقل آخر قطار ذاهب إلى (جنوا) ولم أر فى ليلتى تلك عند الدار والقرية البسيطة الهادئة كما رأيت من قبل ضاحيتها البسيطة الهادئة .

المـــرية

جمال رائع وشعب فقير

٢٥ سبتمبر سنة ١٩٥٣

لم تكد الباخرة ترسو على الشاطىء الاسبانى فى مدينة المرية حتى رأينا الشقروات الجميلات يقفن على رصيف الباخرة الذى يتصل بالطريق الرئيسى فى المدينة لا يفصله عنه الحاجز وإنما تفصله بعض شجيرات .

فى هذه البلدة الصغيرة التى تنتج الفواكه والكروم جمال رائع

وشعب فقير . جمال لم نر مثله فى بلد آخر . وفقر لم نر مثله أيضاً .

فى هذا البلد أقبل وجه جديد ومعه صفحة جديدة يعرض غراما آخراً جديداً كانت — ماسمينا — وليست ماسمينا فى مثل جمال سيلفانا ولكنها كانت تبذل من مظاهر الانصياع والطاعة مايعجز غيرها عن بذله . لا أدرى هل هى ماسمينا بمفردها أم تشاركها الاسبانيات فى هذه الصفة التى تروى عن اليابانيات . . ويحيرنى أن أعلل سبب هذه الطاعة وذلك الانصياع تعليلا تاماً . . هل هى فقيرة وتشاركها فى هذه الصفة جميع فتيات البلدة فكلهن فقيرات جميلات . هل هى متوسطة الجمال ؟ وقفت فى منطقة وسط بين الجمال والقبح فلا هى جميلة ولا هى قبيحة ، وإنما هى مثال شائع لنساء عاديات كثيرات ولكنى رأيت الجميلات فى اسبانيا . الذين يفوقن سيلفانا جمالا لتؤدى هذه الفروض . . . هل هو عدم الاكتراث الذى كنت أقابلها به فتزيد فى غرامها وخضوعها ومثل هذا يحدث كثيراً بين رفيقين إذا كان أحدهما مشبوب العاطفة معذباً فى حبه صادقاً فى غرامه يكون الآخر غير مكترث ، أو على الأقل يبادله عاطفة بمقدار .

سواء كان هذا أم ذاك . فقد قضيت مع ماسمينا أربعة أيام سعيدة وبعد ذلك أصبحت أحمل لسيلفانا أكثر مما كنت أحمل لها من حب فهل أصدق نفسى ؟ نفسى الضعيفة المغلوبة على أمرها .

هل كنت تحب سيلفانا حقاً وتحمل لها المودة والوفاء وتلومها ولا أقول تعنفهـــا . وعند ما تبادلك ما تريد وفوق ما تريد من المودة والوفاء . هل غدرت بى سيلفانا وقد غدرت نفسى الضعيفة بعد شهر واحد من فراقها . كنت تريدها أن تكون فى مثل وفاء بينلوب وتطالبها بما تعجز أنت عن أدائه الآن . . لا أدرى ما الذى يجعل صورتها تلح على الآن كأنها ماثلة أمامى تشخص إلى بنظراتها التى لا تتغير . نظرة ساهمة طويلة مفكرة . كأنها تقرأ شيئاً . ولا أستطيع أن أقرأ فيها شيئا . . . صورتها فى بلوزتها البيضاء وردائها الأخضر مبتسمة نصف ابتسامة تروح وتجىء فى خطو وئيد رقيق .

لا أدرى ما الذى يجعل هذه الصورة . صورتها كالفتاة الشرقية أو التركية ذات ذقن عريضة وشفاة غليظة وأنف دقيق عريض . هذه الصورة لا تريد أن تزول كلما نزعت نفسى من أن تغوص فى الذكرى أجدها تلاحقنى ولا تترك لى فرصة للائتلاف بها وللشعور بالندم والخزى الذى ينالنى منها .

أصبحت أرثى للأيام الطويلة التى مرت بى وكلها جفاء وخصام ولقد كانت أيامنا معدودة فلم نستمتع بها ولم نطرح الأنفة والكلفة التى كانت تسيطر على كلماتنا وحركاتنا وتستبد بعواطفنا فتسيطر

عليها وتغيرها وتعبث بها — فتركتنا غريبين بدلا من أن نكون متفاهمين منسجمين بيننا ستار بدلا من أن يعرض كل منا عواطفه وقلبه فى صراحة وبساطة للآخر . لم نطرح الأنفة التى كانت تخلق لنا الخصام لأسباب تافهة وتمد فيه وتطيل فى أيامه حتى التهمت أيامنا القليلة القصيرة وأتت عليها ولم تترك لى غير القلق الذى كنت أشعر به فى تريستا والحسرة التى شعرت بها بعد ذلك ومازلت أشعر بها حتى الآن .

غادرنا المريه بعد إقامة أربعة أيام . فى طريقنا الى ليفربول للمرة الثانية — فى هذه المرة رأيت صورتين جديدتين مختلفتين أشد الأختلاف أحداهما تخفض هذه البلاد وتعيبها وتحط منها والأخرى ترفعها إلى السماء .

رأيت صورتين جديدتين لم أرهما من قبل فى زيارتى الأولى التى صادفت شهر رمضان . وكانت الصورة الأولى هى الحانة وهى فى مثل الخبز لذلك الشعب السكير الذى لايكاد يفرغ من عمله اليومى فتيانا وفتيات حتى يهرع إليها ، وقد تكون مزدحمة ويقف الساعات الطويلة فى قطار طويل كهذه القطارات الآدمية الطويلة التى كانت تطلب الخبز وغيره من ضروريات الحياه فى أيام الحرب الماضية . . يمتد ذلك الطابور ويلتوى مع جوانبها الخارجية فى

الطريق العام ، ومن الداخل غرفة مغلقة تنعقد فيها سحب الدخان الكثيف ورائحة الكحول الممزوج بالعرق ونجوى العشاق الخافتة فى صوت كالهمس أو الطنين لا تستطيع أن تفسر منه شيئاً ، فهو يتموج ويتحول إلى دوى كدوى الآلة ، يجمع كل ذلك الصوت والرائحة والمظهر فترى العين وتسمع الأذن وتشم الأنف وتتعاون كل هذه الحواس الثلاث لتنقل إلينا صورة كريهة بغيضة ولكنها غير ذلك فى رأى المخمور . ومن داخل القاعة موائد متلاصقة يحيط بها كرسى واحد طويل ملتصق بالجدار ملتو معه فى منحنيات الغرفة وأركانها كأنما وضع لتسهيل تعارف الجنسين حتى يتعرف كل فتى أو فتاة على صديق له من الجنس الآخر . حتى إذا جاءت العاشرة ودوّى صوت عامل الحانة كالرعد معلناً انتهاء السهرة Time Finished بدأ ينصرف ذلك الركب الباقى إلى حيث يمضى باقى سهرته فى منعطفات الطريق المظلمة أو تحت الكبارى المعلقة غير عابئين بالصقيع والظلام

والصورة الأخرى التى تثير الاعجاب ، هى وجود وزارة للعمال يتقدم إليها أى عامل أوصاحب مهنة ما بمجرد تعطله ليقدم البيانات اللازمة عن صناعته وإقامته ، ولا تنقضى أيام معدودة حتى يصله عقد مجهز للتوقيع فى وظيفة تناسبه . وقد يرى هو أنها لا تناسبه فيرفض الالتحاق بهذه الوظيفة لسبب ما فيجرى له البحث عن وظيفة أخرى . وهكذا فالدولة مسئولة عن خلق عمل لكل فرد من الأفراد

وعلى ذلك فليس هناك عاطل واحد فى بلاد الانجليز ، وإذا وجد ذلك العاطل فإنما يكون ذلك لمدة أيام معدودات تصرف له الحكومة خلالها المعونة اللازمة . لمست بذلك صدق مشروع بيفردج الذى تطبقه الحكومة الانجليزية والذى يجعلها تتذبذب بين الرأسمالية والاشتراكية وأن تمزج بينهما وتجمع بين حسناتهما .

وبجانب هذه الوزارة للعمال ، اتحاد كبير يجمع شمل نقاباتهم المختلفة المتفرقة ، ويكون الانضمام إليه إجبارياً لأى فرد يقوم بعمل ما ويتقاضى عليه أجراً مهما كان نوع هذا العمل .. فهى تضم المهندس والعامل والبحار وأصحاب المهن المختلفة من الجنسين فتيان وفتيات .

والفتيات فى المدن عاملات أوطالبات دائماً ، وليست هناك فتاة ليست من إحدى هاتين الجماعتين ؛ فبمجرد وصولها إلى السن التى تبعدها عن الطفولة وتقف بها فى أول الشباب تجد عملا ميسراً سهلا يمكنها من أن تستقل استقلالا اقتصادياً عن عائلتها لو أرادت . وتستطيع بما تتمتع به من حرية شخصية لا حد لها أن تستقل عن أهلها من جميع الوجوه . ولا يشذ عن هذه القاعدة إلا الأرستقراطيات من بنات الأسر الكبيرة التى لم تنقرض بعد ومعظم هؤلاء يعيشون فى القرى وليسوا فى المدن الصناعية الكبيرة .

ويتمتع بهذا النظام جميع الأجانب المقيمين فى هذه البلاد من المنضمين إلى جامعة الدول البريطانية (الكومونولث) ومن غير المنضمين كذلك . وقد كنت فى ضيافة أحد المصريين الذين عاقتهم ظروف الحرب العالمية الماضية عن السفر إلى مصر فتزوج من إيرلندية وأنجب منها وعاش عيشة هادئة مطمئنة لا ينغصها غير الحنين إلى الوطن . . ويشعر بكثير من الإشفاق والألم نحو طفلته النصف إيرلندية فاطمة والتى لا تعرف من العرف غير كلمة (say والله) ، إذا أرادت من محدثها أن يقسم على شىء ما .

وبعد فهذه هى الحياة التى يتمتع بها الانجليز فى الداخل . حياة راقية عالية كالتى يتمتع بها أغنى شعوب العالم . وليسوا هم أغنى الشعوب العالم وإنما مصدر ذلك الاستعمار وامتصاص دماء الشعوب المتخلفة من جيانا البريطانية فى نصف الكرة الغربى والملايو فى أقصى الهند الشرقية ، وكينيا البقرة الحلوب التى لم تستنزف بعد . وبجانب ذلك التجارة الناجحة الأولى فى العالم التى يمسكونها بأيديهم فى جميع أنحاء العالم ولا يدانيهم فيها أحد .

النرويج

١٣ أكتوبر سنة ١٩٥٣

كنت أقف على حاجز الباخرة عند ما أخذت تنساب فى مياه النرويج فى طرقات حلزونية ضيقة تدور وتلف وتحصد بينها كتلا صخرية عائمة ملتفة العشب كثيفة الشجر والدغل . تهبط وتصفر حتى تمس سطح الماء كأنها سفن محطمة غارقة ، وتعلو علواً هائلا عمودياً وتمتد طولا . فكأنما نسير بسفينتنا بين الأنفاق .

والأرض صخرية صلدة كأنها كتل من الحديد أو الخشب العائم حتى كدنا نتخيل عدم وجود التراب فى هذه البلاد . فهى مغطاة كلها بعشب أصفر كثيف تقوم به هنا وهناك شجيرات صغيرة بينما صفرة الورق تلوح من بعد كأنها الحراب الملتهبة تضىء رؤوس الجبال والروابى ، وتحف بالمياه التى تبدو سوداء قاتمة بما ينعكس عليها من ظلال الجبال الشاهقة ، وعند ماينحنى الجبل ويتصل بالأرض السهلة تظهر هذه القرى النموذجية ذات البيوت الخشبية منسقة منمقة كأنها لوحة من صنع رسام . استقرت الباخرة على أفريز مصنع نترات الجير بالقرب من قرية تعرف باسم هيرويا . . . وكنا نخترق أقسام هذا المصنع الكبير ونحن فى طريقنا لنستقل الأوتوبيس أو البسك

كما يسميه النرويجيون إلى مدينتى بروشين Proshien وشين Shien .

وفى قرية بروشين التى تحتوى على طريق واحد طويل وقد لا يعتبر بحال من المدن النرويجية النظيفة فى الشمال . وهى وإن كانت لا تزيد عن ميناء صغير يعيش على هذا المصنع لإنتاج السماد ويتصل بأهله بحارة السفن من أتراك وهولنديين وأسبان لأخذ حاجتهم منه . بالرغم من كل ذلك . رأينا بلداً راقياً لطيفاً حتى يعتبر بحق أرقى بلاد الدنيا أو على الأقل أرقى بلد من البلاد التى رأيتها حتى الآن

ولا أقيس هذا الرقى بعظمة الصناعة وضخامة الانتاج ووفرة الثروة بقدر ما أقيسه بأخلاق الشعب وبساطة الحياة ونظافتها . ففى هذه القرية وقرية أخرى تعرف باسم شين لم أر أثراً لرجل بوليس واحد يقف فى الطريق حتى كدنا نعتقد أن هذا الشعب ليس فى حاجة إلى بوليس ، ولكنا رأينا على بعد كل عدة أمتار حجرة صغيرة تحمل لافتة مضيئة تدل على مركز البوليس ، وكنا نسير فى طرقات القرية ليلا ونرى وجهات المحال التجارية التى يراد إصلاحها مفتوحة على مصراعيها تكشف عن بضائع غالية ثمينة فلا تمتد إليها يد . . . والأهالى جميعهم عمالقة طوال الأجسام فى مظهر جميل واحد متقارب لا أثر للارستقراطية فيه . أو البؤس .

فهذه القرية الصغيرة ، أو الميناء الصغير إذا قارناه بغيره من المدن والموانى الكبيرة فى البلاد الأخرى . أعتبرت النرويج من

أرقى بلاد العالم ، وإن الحضارة ليست فى عظمة أمريكا أو انجلترا من الدول الكبيرة ، وإنما هى فى هذه الجهة من العالم فى الشمال وكلما تقدمنا فى الشمال كلما رأينا حضارة تفخر بها الإنسانية .

استقرت الباخرة أربعة أيام تنقلت خلالها بين هذين المدينتين. شين وبروشين ولا أنكر أننى كنت سعيداً ، ولكن هل أستطيع أن أصور هذه السعادة التى كانت تغمرنى وتحيط بى أم أننى لا أجيد غير تصوير الشقاء والخطوب والأحداث عند ما تضيق على الخناق . . . كنت أول من خطا فى طرقات هذه المدينة . تحوطنى نظرات كثيرة متسائلة مستفهمة من الأهلين . تذكرنى بهذه النظرات التى كانت تكتنفنا فى روسيا نظرات الشبان والفتيات والعجائز والأطفال كأنها تريد أن تقول . . . من أنت ، ومرحباً بك . فى وقت واحد .

يود كل واحد منهم لو يتصل بينى وبينه الحديث والواقع أننى كنت أتجنب الحديث كما أتجنب الأسئلة التى تمهد للحديث وما أسهل أن يسأل أى فتى أو فتاة عن أقرب سينما أو كافيه أو محطة للأوتوبيس ومثل هذه الأسئلة التى لا يستغنى عنها زائر غريب ، وخاصة فى مثل هذه اللغة النرويجية المعقدة التى كنا نبذل الكثير من الجهد لنربط بين حروفها ، والحروف الأوروبية الأخرى لنستشف عما تحمل هذه اللافتة أو تلك ، مع ما يستوحيه مظهرها من معان . . من

السهل أن توجه هـذه الأسئلة . فى إيطاليا أو انجلترا مثلا حيث لا تثير غرابة ولا تدفع فضولا ، أما فى النرويج فإنها تكفى لكى تجمع على أى منا جميع المارة فى الطريق شباناً وفتيات ، وعجائز وأطفال ، فيمطروننا الكثير من الأسئلة حتى تضيق بهم وإن كانوا لا يضيقون بنا . . ومابال نفسى الماكرة تلتوى ولا تريد أن تفصح عما يدور بها من غير التواء ومكر . . . إننا نريد أن نخص الفتيات بأسئلتنا بل نريد أكثر من ذلك . نريد صداقة الفتيات لا صداقة كل هذا الجمع الغفير من الناس نعم لهذا كنا نضيق بهم وإن كانوا لا يضيقون بنا . ولكن من من الفتيات تستطيع أن تنفرد بأجنبى فى أول يوم من أيام ظهوره فى فترة صغيرة . هذه مشكلة فليست كل فتاة تريد ذلك . أو تستطيع ذلك إن أرادت وخاصة إذا كان هذا الأجنبى بحاراً مع ما يتمتع به البحارة من جميع الأجناس فى جميع بلاد العالم من سمعة طيبة يستحقونها .

ثم قطع على هذا التفكير أو هذا الحديث الطويل الذى أحدث به نفسى صوت فتاتين بصحبة شابين ترتديان معطفين أنيقين حمراوين تحمل كل منهما على رأسها شعراً ذهبياً رخصاً كذيل الطاووس وتعرض كل منهما بسمة عريضة لم أنتبه لها ولم أفكر فيما تحمله من معنى .

وسرت فى طريق أنظر الى الناس وأتجنب فى الوقت نفسه

نظراتهم التى لا تريد أن تتجنبنى . ولكن رأيتهما أمامى مرة أخرى منفردين فى هذه المرة تعرضان نفس هذه البسمة العريضة . . وفى طريق جانبى مظلم رأيتهما تقفان فى آخـــره كأنهما تدعوانى الى الدخول فانحرفت فيه . ولكنى فوجئت بخيبة أمل شديدة عندما رأيتنى أسير خلف شابين من شباب المدينة يريد كل منهم نفس الغرض الذى أريد . وبدأ الظلام يكشف عن حديقة صغيرة ومقاعد نظيفة . وانحرف الشابان ناحية المقعد الذى تجلس عليه الفتاتان ولكن حدث ما أبهجنى بعد ذلك فقد غادرت كل مقعدها وسارت بجوارى عدة خطوات حتى دنا مقعد آخر قريب . وفى هذا المقعد بدأ حديث قصير غريب لقد كانت تظننى اسبانياً والعجب انى فى اسبانيا نفسها كانوا يظنوننى كذلك . وحدث مثل ذلك فى بلاد كثيرة رأيتها من قبل . ولعل لأسبانيا سفن ملاحية ورحلات منظمـــة أكثر مما لمصر ، مع ما للمصريين والمصريين من ملاح متقاربة متشابهة .. وهؤلاء الشماليون البيض تفتنهم البشرة السمراء والشعر الأسود . كما تفتننا الوجوه البيض والعيون الملونة . بدأ حديث غريب قصير كنت أشير الى الشىء وأطلب منها بالأشارة أن تنطق اسمه فاذا به أقرب ما يكون الى الانجليزية وكان ذلك الشىء مقعداً أو شجرة فى بادىء الأمر ثم ينتهى إلى أن أشير إلى فمها وأنفها

وعينيها ، وهكذا تجمع عندى عدد من الكلمات تكفى للتفاهم عدة ساعات . وقد أنساها بعد ذلك كما نسيت اسم هذه الفتاة فقد اختلط فى ذهنى اسمها بأسماء النرويجيات الذين عرفتهم بعد ذلك وصورتها صورتين ، وان نسيت لن أنسى أنها أجمل فتاة نلت منها أعذب القبلات . وبدأت أفواج المصريين تغمر المدينة الصغيرة. واخترت أن أحدهم ليكون زميلا لصديقها . والتى اختارت بدورها أن نمضى سهرتنا فى مدينة شين ورفضت كلاهما أن تركب الأوتوبيس تجنباً لنظرات الأهلين وفضولهم وكان لابد من التاكسى . الذى لايقف فى الطريق العام كما هو الحال فى مصر بل يستدعى بالتليفون بواسطة عامل يقيم فى كشك خشبى صغير . . . وفى مدينة شين امتدت سهرتنا حتى الثانية بعد منتصف الليل وكان موعدنا اليوم التالى . . ولكن صرفتنى عنهم فى اليوم التالى (ماريا) التى لم تختر مدينة شين ولم تختر التاكسى وانما اختارت أن ترتقى الجبل بالليل وأن تشركنى معها فى هذه الرياضـــة العنيفة . حتى إذا بلغنا القمة وخلفنا تحتنا المدينة النائمة وآوينا الى مقعد خشبى صغير نلتقط أنفاسنا اللاهثة وتحمل الينا الريح الهمسات التى تنبعث فى سكون الليل بين المنازل الكثيرة المبعثرة فى السفح . أقنا ما أراد الشـــيطان لنا أن نقيم وانصرفنا عندما أقبل سرب من الفتيان والفتيات يلغطون ويمرحون..

لست أدرى أى حيوان يلبس هذا الجلد وأى شيطان يتقمص هذا العقل المشوش المضطرب

لست أدرى أى خبل أصابنى . لقد كنت أومن بالحب . فما بالى اليوم أومن بالعبث. لقد كنت أحب سيلفانا وأجلس بجوارها كما أجلس بجوار ماريا الآن ولكن مع فارق واحد . فمع سيلفانا كنت أحس بالهدوء والتحفظ. وبجوارى جسد بعيد وروح قريب. أناجيها أعذب النجوى . وإنما هذه جسد هامد لا تدرى ولا تعى ولولا هذه الأنفاس الصاعدة الهابطة لما اعتبرت من الأحياء وروح لا تحس ولا تشعر بها . هل كانت صورة سيلفانا تعرض لى حتى تثير فى قلبى عواطف الحب الكامن الطاهر وتجنبنى مما أوشك أن أقع فيه من دنس ؟ نعم كانت تعرض لى صورة سيلفانا غامضة مبهمة غير واضحة المعالم كما كان شيطانى يعرض بها ساخراً كأنه يريد أن يقول . ما يدريك أن سيلفانا كانت تريد مثل ذلك ؟ . .

أنفقت مع ماريا أياماً ثلاثة فى ذلك الركن المهجور من أركان المدينة لا نفترق إلا عند ما تريد هى أن تفترق . وهى لا تريد ذلك إلا بعد أن ينتصف الليل . وتطلب العودة لتقضى ساعات الصباح القليلة فى دارها ثم كان الوداع . وداع الخائف الوجل الذى لا يخشى غير نظرات الناس . أين هذا من وداع سيلفانا التى كانت تطفر من عينيها الدموع أمام والدتها وشقيقتها . . . أين هذه من تلك التى نسيت اسمى بعد يوم واحد .

ولولا اسمها وسهولته لما ذكرته .

إننى أشعر بالندم وأخوف ما يخيفنى أن يزايلنى ذلك الشعور بالندم الذى يمهد للتوبة ويمهد للخير . ذلك الندم الذى كنت أحسه فى أسبانيا . . ثم بدأ يقل ويخفت صوته فى انجلترا ثم هو ينعدم أويكاد فى النرويج حتى أكاد أشعر به ولا أكاد أحسه بل أبذل بعض الجهد لكى أخلقه و أصوره وأحسه . وفى آخر ليلة لنا فى بروشين انهمكنا مع فتيات كثيرات فى السهر والسمر والحديث فى الطابق العلوى من ذلك الفندق الكبير والذى يشرب رواده الخمر ، ولعله شهد أول ما شهد بما أشربه الليلة فأنا لم أشرب الخمر فى حياتى قط ، ولعل هذه الحسنة الوحيدة الباقية لى ، وقد شربت الجعة مرة أو مرتين فعافتها نفسى فلم أكرهها على شربها بعد ذلك . فى ذلك المقهى الكبير رأينا معرضاً من معارض الجمال الفذ ، وانضمت إلينا غادة نسيت إسمها . وهى أجمل ما وقعت عليها عينى . ذات شعر أسود كأنها اسبانية تغمر وجهها سحابة وردية جميلة . . تتحلى بقرطين سوداوين يزيدانها قربا من فتيات الغجر وعند ما قلت لها ذلك . تضاحكت وهى تقول . هل قرأت شيئاً عن الحب فى اسبانيا ؟ فأجبت . نعم ، وإنما لم أقرأ شيئاً عن الحب فى النرويج .

وفى هذه اللحظة قبل أن نغادر البلدة فى طريقنا إلى الباخرة ، وكنا نعلم أنها انتقلت من مكانها الى مكان أسهل على الرصيف إلى مشارف

البلدة فى عرض البحر فى انتظار الصبح القريب لتبدأ السفر... وفى هذه اللحظة انضمت إلينا مجموعة كبيرة من الجميلات ، وعدد من الرجال والأطفال ، مجموعة بالكثرة التى كنا نتحاشى الاندماج فيها من قبل حتى لا تعوق أيامنا القصيرة ، وساعاتنا القليلة المعدودة . وكانت إحداهن تترجم ما كتبت صحيفة نرويجية مسائية عن المصريين السمر Mortiok ، وتقدم أحدهم وهو يشير إلى فتاة جميلة كلها دلال وإغراء ، وهو يقول : إنها تقول أنه يروقها شاربك ، فهل هى تروقك ، فأجبت وأنا أفتح لها ذراعى مرحباً بها . إنها أيضاً تروقنى ، وكانت الساعة الواحدة مساء ، وانطلق بنا الزورق البخارى ساعة كاملة إلى السفينة التى أزمعت السفر حيث قدمت لنا لأول مرة سلماً من الحبال .

هكذا غادرنا النرويج ، وغادرنا الفتيات الشقروات اللواتى لم نر مثل جمالهن فى غير روسيا ، فكلهم عمالقة طوال الأجسام ، ففى النرويج فتيات تفتنهن الشوارب الكثيفة السوداء ، وبها أيضاً أطفال تفزعهم هذه الشوارب وأذكر عند ما كنت أسير بجوار المستعمرة الخشبية للموظفين الملحقة بمصنع السماد ، وأمامى أم وطفلتها التى لم تكد ترانى حتى أخذت تجرى مفزعة تجذب أمها التى أمسكت بيدها جذباً عنيفاً تريد أن تتخلص منها ثم تنطلق .

ولم أتنبه لفزعها إلا عند ما أقبلت الأم تشرح لى متضاحكة وهى تشير إلى أسفل ذقنها أنه لم يفزع الطفلة الصغيرة غير شاربك .

أقلعت الباخرة مع الفجر ، وأخذت تصاحبنا فى رحلتنا الطويلة أسراب من القنابر الملونة المهاجرة مع الخريف ولعلها كانت هاربة من موجة البرد القارس الذى بدأ ينتشر ظله المميت على هذه البلاد .

بدأت رحلتها معنا قوية نشيطة متحفزة . تتلاعب وتلتوى وتدور ، وتعبث مع الموج ، وتضرب فى الهواء بجناحيها فى قوة ونشاط وعنف حتى إذا بلغ منها الجهد آوت إلى السفينة تصيب شيئاً من الراحة ، ومنها الصغار الملونة فى لون الزهور البرية الجميلة تتبع هذه القافلة حتى إذا ابتلت أجنحتها ، وعجزت عن اللحاق بالسفينة استسلمت استسلام اليائس لتصير طعاماً سائغاً للأسماك .

استمرت هذه القنابر فى مهاجرتها الشاقة المتعبة حتى شارفنا خليج بسكاى ولم نعثر لهذه القنابر المنكوبة على أثر . . حتى رست الباخرة على شاطىء الاسكندرية شاهدنا طائراً واحداً من هذه الطيور . مهيض الجناح مكسور الساق عاجزاً عن الطيران . بل كان عاجزاً عن المشى السليم يسير على قدم واحدة عرجاء وكان هذا هو كل ما نجا من هذه القافلة الرشيقة .

وبهذه أكون قد ختمت رحلتى السابعة وكنت كما كان السندباد

ولكن هل كنت أتوقع مثل هذه الحياة فى يوم ما . . لا . . ولو تنبأ متنبىء بمثل ذلك لكان أقرب إلى الجنون أو السخف ، وكأنى أتمثل نفسى فى هذا الركن من أركان المصنع الكبير فى مدينة السويس مع زميل يروى لى قصصاً عن الذين أعرفهم ممن آثروا ركوب البحر وماشاهدوا وراءه من حياة وفتنة وامتحان . كانت تشوقنى أخبارهم وتخلبنى ولكنى لم أتمنى لنفسى مثل ذلك فأنا أحب الاستقرار أكثر مما أحب المغامرة والتنقل ، وخير لى أن أنفق سنوات خمس فى بلد واحد غريب أحبه وأريده بدلا من أن أنفق مثل هذه المدة فى جميع بلاد الدنيا . مدة لاتزيد عن الشهرين فى هذا البلد أوذاك . لم أكن أريد أن أكون بحاراً مغامراً شريداً بقدر ما كنت أريد أن أقضى خمس سنوات فى بلد غريب تنفعنى ثقافته ، ونوع الحياة فيه بين أناس غرباء أحيا حياتهم وأتكلف ما يتكلفون ، وقد تروقنى هذه الحياة فتمتد إلى ما بقى لى من أيام ، وتأتى على مابقى لى من عمر وقد أضيق بها فأرجع إلى موطنى الذى نشأت فيه ، وقد أرضيت نفسى بالرحلة والهجرة والتجربة ، وكيف أعود بعد سنوات خمس وقد تحدث أحداث ويجد جديد ، ثم أجد نفسى غريباً فى بلدى الذى نشأت فيه . قد لاأجد أمى العجوز التى تحبنى ولا أجد خلانى الذين أخلصت لهم وأخلصوا لى ، ثم لا أجد الحياة التى ألفتها بل أجد حياة أخرى أكون غريباً عنها أو غريبة عنى ، وما أقسى أن

يعيش المرء غريباً فى مهد صباه ، وحيدا بين هذه المعالم والآثار والمشاهد والديار التى ألفها وألف رفقاءه وخلصاءه وأهله فيها ، وما جدوى المعالم والمشاهد والديار والآثار إذا لم أجـــد آهليها وساكنيها ، وسيكون ثقيلا أن نفارق بلداً بعد سنوات خمس أو عشر . هذه السنوات التى لابد ستكون حافلة بالحياة . زاخرة باللذة والألم حياة تستجد فيها مشاهد ومعالم وآثار كما تستجد فيها أصدقاء وخلان فى سنوات خمس تترك ولا بد أثراً هائلا يؤرقنى بعد ذلك لو عدت إلى مصر فأعيش موزع العاطفة بين البلدين منقسم النفس والقلب شطرين أحدهما فى بلدى والآخر فى هذا البلد الغريب .

كنت أفكر مثل هذا التفكير وأتمنى مثل هذه الأمانى . فى ذلك الركن من أركان المصنع الكبير وأنا أستمع لحديث ذلك الزميل وهو يقص أخبار من ركبوا البحر وآثروا العيش فيه . . كنت أختار لنفسى كأنما الحياة أن أختار وأريد ، فتكون كما أختار وأريد . ولكنه القدر أختار لى أن أكون بحاراً مغامراً شريداً أحيا هذه الحياة التى رويت لى وأخوض هذه المشاهد والمعالم والآثار التى وضعت لى من قبل فتشغل جزءاً من خيالى وعقلى ينطبع انطباعاً لا تمحوه السنين . وأجد هذه الخيالات والانطباعات كما تخيلت من قبل أن أراها أو أقرب مما تخيلت .

شاهدت هذه المدن التى كانت توصف لى وكم آلمنى أن أفارقها بعد شهر أو شهرين أو بعد عدة أيام . كنت أشعر بالألم الشديد عندما أغادر هذا البلد أو ذاك فى طريقنا إلى مصر أو إلى أى بلد جديد . كما أشـــعر بالبهجة عندما أقبل على ذلك البلد الجديد . . وهكذا تتكرر حياتنا وتعاد . تشعر بالبهجة عند كل جديد ثم تشعر بالكآبة والكآبة الحادة عند ما تفارقه . ليس شعورى هذا نحو بلد معين . أفرح بلقائه وأحزن لفراقه . وإنما كان شعورى ذاك نحو كل بلد أشاهده فكان كل بلد بحياته التى تميزه وشـــعبه الذى يختلف عن غيره من الشعوب . . كأن هـذا البلد صديق معين . له ما يميزه من الصفات والعادات والطباع . وله ما يقدم لى أو ما أجده فيه وما يبعثه فىّ من ألوان التفكير والنشاط حتى آنس له ويأنس لى وآخذ معه فى اللهو والجد مدة تطول أو تقصر وتنتهى حتما بعد ذلك ويجىء الفراق الذى لا بد منه فأشعر بالمرارة والاكتئاب والألم لمغادرة ذلك الصديق البلد ـ أو البلد الصديق ـ كيف لا وكل صديق يؤلمنى فراقه ويسوءنى البعد عنه . . وإذا كانت اقامة شهرين أو ثلاثه شهور على الأكثر تترك مثل هذا الأثر نحو بلد ما فكيف الحال باقامة سنتين أو ثلاث أو خمسة سنوات . . . لقد كنت أرى فى أحلامى أننى أطأ أرضاً مجهولة وأخاطب أناساً غرباء غير معروفين وكأن شطراً من أحلامى قد تحقق بعد أن رأيت بلاداً

كثيرة متعددة وما زال شطرها الأخير ناقصاً لم تحققه الأيام بعد فما زلت أحلم بالهجرة . ولعل هجرتى الآن تكون أسلم مما لو كانت من قبل بعد أن رأيت ما رأيت من بلاد حتى أختار أحسنها إذا كان لى أن أختار . . فكل بلد من البلاد التى رأيتها يشغل جزءاً من ذهنى ويرسم صورة كاملة الوضوح والانطباع فى خيالى . وكثيراً ما تختلط هذه المناظر والصور فأشعر بحنين إلى هذا البلد أو ذاك .

فهذه طرابلس الغرب وهذا القارب الصغير ذو المجدافين يجتاز بنا المياه الضحلة فى منطقة الشعاب لنصل إلى السفينة ليلا بعد قضاء سهرة صاخبة ثم تختلط هذه الصورة بأخرى فى استانبول عندما يقطع الزورق البخارى ساعة كاملة فى نزهة بحرية لطيفة مارين بضواحى استانبول البعيدة لنصل إلى ضاحية الليدو حيث تقف سفينتنا كأنها فى وسط نهر عذب تقوم على شاطئيه الخضرة والحياة والجمال . ثم تمتزج هذه الصورة بأخرى على رصيف هولنده والبيوت ذات الطابع الفلمنكى والظلام المحلى بذرات الجليد الأبيض المعلقة فى الجو يتخللها بعض الضوء فكأنما المدينة خلف ستار جميل من الضباب والأحلام ثم هذه الصورة بكندا التى تختلف عن هذه وتلك بالبرد الشديد القارس والجليد الذى تغوص أقدامنا فيه وتترك آثاراً عميقة واضحة . وتتراكم على معاطفنا ذرات الجليد

المتساقطة فيصبح كل شيء أبيض الأرض والسماء والأحياء والأشياء . وهذه كوبا وكأننا على شاطىء الفردوس تصل الينا فى السفينة أنغام الموسيقى الأسبانية العذبة . مدينة تعيش للرقص والأحلام والأمانى العذاب. ثم تختلط هذه الصور وتمتزج . تتفرق حتى يأخذنى الروع عند ما أتخيل ما يفصل بينها من المسافات والآماد والأيام ثم تمتزج حتى يخيل إلى أنها مدينة واحدة ذات أحياء مختلفة .

وفى الحالين إذا انضمت هذه الصور أو تفرقت . فكأنى بها تنادينى وتلح على وتهيب بى أن أراها مرة أخرى . ولست أتخيل الأشخاص فى هذه المدينة أو تلك بقدر ما أتخيل الأشياء الثابتة الباقية فقد أعود يوماً ولا أرى هؤلاء الأشخاص الذين رأيتهم من قبل . وقد أجدهم تفرقوا وأى جمع لا يتفرق ؟ أو تغيرت حالهم وأى حال لا يتغير ؟ أما هذه الأشياء والمشاهد والصور فكأنى بها تنظر إلى وتشخص لى وتدعونى وتلح فى الدعاء . ماذا أريد من هذا البلد أو ذاك ولست أبغى الثروة وإنما أبغى الحياة الهادئة البسيطة المطمئنة . والولايات المتحدة أكثر هذه البلاد ثروة وأعظمها غنى . والنرويج هى أرقى ما رأيت حياة وشعباً .

إذا كنت مختاراً لن أختار أكثر هذه البلاد ثروة أو أرقاها

شعباً وإنما يجذبنى شىء آخر ليس هذا ولا ذاك لا أدرى ما هو . . شىء يفتننى ولا أستطيع التعبير عنه ذلك هو الحياة التى رأيتها فى كوبا لست أبغى المرأة . . فما أتفه المرأة التى نعبر لها المحيط ونطوى لها البحار والأيام والمسافات . . ولست أبغى الثروة العريضة . أو الغرام الجامح العنيف . ولكن أريد الحياة المعقولة الهادئة بين الاثنين وليست كوبا أوفر هذه البلاد ثروة . وليس شعبها أرقى هذه الشعوب وليست ثقافتها الاسبانية بذى خطر كبير ولكن فيها شيئاً يفتننى ولا أستطيع التعبير عنه . ولن تعرفه حتى تراه كما رأيته أنا .

الرحلة الثامنة

فالنسا اسبانيا

٢٥ نوفمبر سنة ١٩٥٣

لم تمكث الباخرة غير أسبوعين اثنين فى ميناء الاسكندرية ثم بدأت تضرب فى الماء من جديد مخلفة وراءها ذلك النهر الصغير الثائر المضطرب وتتناثر ذرات الماء كالضباب عندما تحطم الريح ثم هذه الأمواج القصيرة السريعة فتنثرها كالغبار. قطرات خفيفة رشيقة تداعب الأحياء والأشياء وتعبق الجو وتصافح الوجوه. فتبعث فيها الأمل والحيوية والنشاط وما هو إلا يوم أو بعض يوم حتى تبدأ العاصفة ويضطرب الموج ويختلط هذا النهر بالبحر الواسع العريض وتتلاشى أطرافه ويصبح البحر كله كالأرض الوعرة ويتحول هذا الضباب المجتمع إلى طوفان كالسياط يلفع ظهر السفينة ويمنع المرور عليها ويدفعنا إلى الالتجاء للقمرات ويتساقط ما فوق الرفوف، وتفتح الأدراج، وتلفظ ما فى جوفها من كتب وأوراق منشورة ثم يلفظ كل منا ما فى جوفه فى صوت كحشرجة

الميت وقد يرغب الميت فى الحياة . أما نحن فما أشد ما نبغض الحياة وتزهد فيها فى هذه اللحظات ، وقد نمتنع عن الطعام والشراب يوماً أو يومين ، ولا تمتنع هذه القوة القاهرة التى تجبرنا على أن نلفظ ما فى جوفنا وليس فى جوفنا شيء ؛ ونمتنع عن الماء العذب ، ونتمنى جرعة ماء واحدة ، ثم نشرب بعد جهد وإغراء وامتناع لنلفظه بعد لحظات . نمتنع عن الطعام حتى نشعر بالألم الذى يشعر به الجائع ، وقد يشتهى الجائع الكسرة من الخبز ، ولا نشتهى شيئاً من كثرة ما يصيبنا من الدوار . لا نتمنى غير الماء القراح الذى لا نشعر بعذوبته فى غير هذه الآونة ولا نشعر بريه للغليل وإطفائه للظمأ فى غير هذه اللحظات ، وليس الليل بأهدأ من النهار . فراش يلفظنى ويضيق بى ، فهو كالجواد الجموح يعض لجامه ويلقى براكبه ولولا ما أبذل من جهد لكى أتشبث به كلما ترنحت الباخرة وما أكثر ما يمتنع علينا النوم ، أو نمتنع نحن عن النوم بما يسببه الانتظار والقلق من تحفز وانتباه ، وعند ما يصارع النوم أعيننا ويصرعها ويبسط سلطانه على أجسامنا المرهقة المكدودة . نأخذ حظنا من نوم مزعج ، ونقتطف بضع لحظات يصيبنا منها من العذاب فى النوم أضعاف ما كان يصيبنا فى اليقظة . نقضى لحظات مهووسة مروعة كأننا نصارع الشياطين كيف الحال لو أراد الله للباخرة أن تغرق

ونحن على هذه الحال من الضعف والهزال والإعياء ولم ينقض على العاصفة يومان فكيف الحال لو أراد الله للباخرة أن تغرق ، وليس فينا فضلة من قوة أو جهد لنبذلها فى الكفاح إذا كان يجدى الكفاح ؟ هذا هو الألم الذى يجعل نفوسنا تتطهر من النزعات والأهواء الفاسدة كما يتطهر جوفنا من الأخلاط الفاسدة . هذا هو الألم الذى يصهرنا ويخلقنا خلقاً جديداً ، ويطهر نفوسنا ويسبغ علينا الإيمان العظيم بالله والرضا بقضائه وقدره ، ولم تعد نفوسنا تجزع كما كانت تجزع من قبل ووهبنا الله السكينة ، ولو رآى الملحدون مثل ما رأينا لما بقى على وجه الأرض ملحد واحد ولما بقى مغرور يعتقد بقدرته القاهرة ، ويثق بجبروته وبطشه ، فما أعجز قوى الإنسان أمام قوى الطبيعة الثائرة وما أضعف العقل الإنسانى وعجزه أمام هذه القدرة القاهرة التى تنظم الطبيعة وتسخرها .

ليس بعد هذا الألم الذى نشعر به الم ، وبعد هذا الجهد الذى نحسه جهد ثم لا يمنعنا من أن نؤدى عملنا كاملا حتى إذا أقبلت فترات الراحة كنا أعجز من أن نقوم بأتفه الأعمال. وهذه المروحة الكهربائية تترنح تريد أن تسقط فلا أقوى على إنقاذها ثم تهوى وترتطم بالأرض وتتحطم فلتبق كما هى حتى الصباح أو حتى يهدأ البحر إذا أراد الله له أن يهدأ . . وعندما أصبح الصباح أقبل الخادم يحمل الى الطعام فى غرفتى بسبب عجزى كعجز الباقين عن التوجه

إلى الصالون . يقبل الخادم ويضع الطعام على منضدة صغيرة وينصرف مشكوراً ثم أدنى المائدة واتناول فطورى الأول مرة على سريرى ثم انقلب بعد ذلك إذا أردت أن احتفظ لجوفى بما نلت من طعام ولا أدرى كم مضى من ساعات أو لحظات حتى أقبل الخادم مرة أخرى يحمل طعام الغداء وكأنما أراد الله للبحر أن يهدأ وانحرفت الباخرة فى طريقها إلى جنوا بدلا من مرسيليا التى كانت موجهة اليها بعد أن وصلنا تلغراف من الاسكندرية يأمرها بذلك . وعاد البحر يمعن فى الهدوء ويقصر أمواجه العالية وتتدانى وتتصل وتعود كما كانت قبل يومين سريعة قصيرة متلاحقة وتعود هذه القطرات الخفيفة تداعب الأحياء والأشياء وتمس الوجوه تشعرنا بهذه البرودة الخفيفة المحتملة وتعود شهيتنا كأشد ما تكون إلى الطعام والشراب وتدب الحياة والقوة فى عروقنا من جديد فنخرج من الغرف ونواجه الفضاء . ونستنشق النسيم وتلوح لنا الأسماك غير بعيدة من الباخرة وذلك النوع الأسود المسمى بالدرفيل يسير جماعات كل اثنين أو ثلاثة يرسم نصف دائرة فى الفراغ غير دار بما كان غير عابئ بما يكون .

ثم ذلك النوع الطيار فى حجم العصفور الصغير ينطلق متدانيا من سطح الماء وكان زعانفه المبسوطة أجنحة صغيرة بيضاء . . . وفى خليج مسينا ينبسط البحر ، ويشف لونه ويصبح كالمرآة وتهدأ

الريح وتخف وتسكن حتى تكاد تتوقف عن الهبوب والحركة .

وترسو الباخرة على ميناء جنوا لبضع ساعات قليلة حيث تستأنف سيرها إلى مرسيليا ، وليس حظنا هنا بأحسن من حظنا هناك، فلعلك تسألنى أيها القارىء عن جنوا ، ماذا عملت فيها ، وعن سيلفانا ماذا فعلت الأيام بها ، والواقع أنى لا أدرى الإجابة على شطر السؤال الثانى ، فسيلفانا لا أدرى ماذا فعل الله بها لعلها فى تريستا ، ولعلها قد عادت إلى جنوا أو إلى قريتها هذه فى ضواحى جنوا . إذا كانت فى تريستا فأنا كثير الاشفاق حتى على الذين لا يستحقون هـذا الاشفاق ، أو الذين لا يبادلوننى هـذا الاشفاق ، وهذه أخبار الحرب تصلنا تباعاً من تريستا بعد أن تطورت المشاحنات بين إيطاليا ويوغوسلافيا من جهة ، وإيطاليا والإنجليز من جهة أخرى وتعدت ميادين الجدل والحوار إلى ميادين أشد خطراً وأعظم أثراً وهى ميادين العراك والاستفزاز ، وسفكت الدماء بأيدى الإنجليز الذين لا يخلو وجودهم فى بلد ما من مصيبة عاجلة أو آجلة ، ولا يسلم قوم ابتلوا بهم من مكر مبيت .

كنا نظن أننا قبل الآخرين سنعرف الكثير عن أخبار تريستا فلكل منا صديقة ما أو أكثر من صديقة فى بعض الأحيان ، وما أصدق أن تعرف الأخبار من أهليها ومشاهديها ، ولكن هذه

أخبار تريستا تنقطع عنا وعن باقى الزملاء فى الباخرة . . . وهم يرسلون خطاباً فى إثر خطاب دون أن يحظى برد ، وقد كان انتظارنا فى أى ميناء أجنبى أو مصرى لا يخلو من خطاب أو عدة خطابات تحمل الأخبار والتحيات من العرائس الجميلات فى تريستا . انقطعت هذه الأخبار ولم تنقطع الأخبار التى تصلنا بالصحف عن الحداد الذى عم تريستا ، والدماء التى سفكت بأيدى القراصنة الإنجليز ، وتريستا كما نعرفها أرض إيطالية . تتكلم لغة الإيطاليين ، وتتعامل بنقودهم والحياة فيها إيطالية صرفة . وقد قابلنا بعض اليوغوسلافيين النازحين من يوغوسلافيا ، والهاربين مما فيها من تعطل وفقر . قابلنا بعض هؤلاء الذين يعترفون بهذا الحق ولا يمارون فيه بل ويدافعون عنه .

وإن كانت يوغوسلافيا قد احتلت من أرض تريستا ما احتلت فى أعقاب الحرب ، وفرضت لنفسها فى وقت من أوقات الفوضى ما اعتبرته حدوداً لها ، فلا يجوز أن يسمى هذا حق إلا إذا جاز أن يسمى ما فعلته إسرائيل حق ، وما عملته الإنجليز فى أرض القنال حق أيضاً ، ومن مصلحة الإنجليز أن تضرب اليوغوسلافيين بالإيطاليين كما كانت تفعل فى الهند ، وكما كانت تفعل فى الأحزاب المصرية المنحلة لتبرر وجودها وتطيل من أمد احتلالها ونقمتها على الشعب الذى ينكب بها .

وسأعود لأقرر ما سمعته من سكان تريستا الأصليين فى منطقة الميناء والضواحى القريبة من حدود يوغوسلافيا فهم يقررون أنهم إيطاليون وترضيهم هذه الكلمة أكثر مما ترضيهم كلمة تريستيون .. ويتشوقون إلى أن يعودوا إلى أحضان إيطاليا ، أو الاستقلال مع الارتباط بإيطاليا حتى تستطيع بلادهم أن تقف على قدميها ، وتنتج ما يكفى أهليها من الضروريات . . فهى منطقة صناعية تعيش على بناء السفن فهى فى مقدمة الدول التى تبنى السفن ، ولكنها لا تستطيع أن تستقل استقلالا اقتصادياً كاملا لضيق رقعتها الزراعية وانصراف أهلها عن الزراعة .

وسأعود إلى سيلفانا وقد يكون هذا آخر عود . لماذا لم ترها فى جنوا ، أو تسأل عنها فى تريستا ؟ جوابى على ذلك أن الباخرة لم تمكث غير ساعات ثمان فى جنوا لا تكفى كلها للذهاب والإياب فقط إلى قريتها هذه البعيدة فى أحضان الريف . . . ولو كانت هذه الساعات تكفى لترددت كثيراً فى الذهاب ، فقد أرسلت لها سابقاً خطاباً إلى عنوانها الذى كتبته لى ولم يصلنى الرد ، وقد تكون فى تريستا لم تغادرها بعد ، ومع ذلك فأنا أجهل عنوانها وتريستا جهلا تاماً فأنا أعرف أين تقع دارها لو ذهبت بنفسى ولكنى لا أستطيع أن أسميها أو أتذكر لها اسما .

وستكشف الأيام عن أخبارها ما كنت أجهل وعن حالها ما كنت أود أن أعرف وسيكفينى هذا فلن نستطيع بقدرتنا الانسانية الضعيفة المحدودة أن نمنع القضاء والقدر عمن نحب أو نحميهم مما كتب عليهم .

لا نستطيع أن نجلب كنوز الأرض لنهديها إلى من نحب وكذلك لا نستطيع أن نختار لهم سعادة أو شقاء . فنحن أعجز من أن نختار ذلك لأنفسنا . وإنما نحن مسيرون بقوى خفية خارجة عن ارادتنا وتجرى على أيدينا وعلى أيدى غيرنا ما نعتبره وجوداً ونختلف فى تعبيره وتأويله ونسميه السعادة والشقاء . . . سأعرف حالها يوماً وسأفرح لها أو أرثى لها فى يوم ما . وقد يكون هذا اليوم قريباً أو بعيداً ولكن سيأتى على كل حال . . . إنطلقت الباخرة محاذية الساحل الإيطالى فى طريقها إلى مرسيليا وعن يمينها هذه الجبال الجرد . التى تظهر ساعة ثم تختفى خلف ستارة ضعيفة رقيقة من الهواء المحمل بالذرات المائية الرقيقة والذى لم يصل إلى درجة الضباب بعد . فتختفى الجبال . ونتوءاتها البارزة وأخاديدها المموجة وقممها المشرعة فى السماء كالحراب والأضواء التى تنبعث منها أو تنعكس عليها فتجىء صورة مشرقة مرقشة بالظلال . . تختفى الجبال وراءنا بكل هذه التفاصيل فكأنها كتلة من الهلام فى لون

من لونى الماء والسماء تحدد أعاليها خط باهت متعرج لا يظهر أو يكاد . وأمامنا الجبال التى لم تظهر بعد كهذه الصورة التى خلفناها وراءنا فكأنها تمثل لنا فترات الحياة التى تمر بنا ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا. ننظر إلى مافات منها فى عدم اكتراث فى غالب الأحيان ثم ننظر إلى هذه الجبال الدافئة كما ننظر إلى حاضرنا بعين الأعجاب وإلى هذه التى أمامنا ولم تظهر بعد فى كثير من الاشفاق .

هذه مرسيليا قبل أن تظهر بثلاث ساعات . ترسل مستطيلا صغيراً باهتاً يعلو سطح الماء ليس فى لون الماء الأزرق ون كان يقرب من لون السماء البيضاء . . كأن الناس أو هذه الملايين التى تسكن اليابسة ترقد فى الجو لا تريم . أو تعلق فى الفضاء لا تريد الصعود لتدلنا على دنو مدينة تعيش وتعلم الملايين من البشر كيف تعيش وسنصلها بعد ساعتين أو ثلاث لنعيش معهم ساعتين أو ثلاثا .

وأمامى الآن مرسيليا بمبانيها وطرقاتها وحركة المرور المزدحمة فيها . . وتباطأت الباخرة فى السير وألقت مرساها الحديدى الضخم وزحفت بطيئة متثاقلة يجرها زورقان بخاريان من امام ومن خلف حتى ألصقاها بالأرض . وما هى إلا ساعة أو بعض ساعة حتى ألصقنا أرجلنا بالأرض كذلك .

ولعلك تنتظر منى أن أحدثك عن المقاهى التى لا تخلو منها بلد

من البلاد وخاصة هذه البلاد الفرنسية التى يشيع فيها هذا النوع والذى نجد فيه نهضتهم المعاصرة ممثلة فى العلوم والفنون والصناعات ونهضتهم القديمة الغابرة وقد غيرتها الآثار المعاصرة والغابرة عما يجاورهم من البلاد . ولكنى لن أحدث عن ذلك . وقد أحدث عن ذلك فيما بعد . إنما سأحدث عن المرأة ذلك المتحف الحى المتنقل الذى خلقه الله ولم تخلقه يد إنسان بل أفاضت عليه بعد ذلك بالتزويق والتنميق هذا المتحف الذى يروح ويغدو ويسعد به الناس ويشقون . بل ويسعد الناس ويشقيهم . كما يسعد هو ويشقى ولكنا نراه وهو سعيد دائماً بألفاظه منمقة رشيقة وإيماءة ساحرة فاتنة وقد يستأنس إذا خلا لنفسه . أما فى وسط الناس فهو يرسل البهاء والسحر والاشراق كالفجر يرسل ألسنته الوردية الجميلة لتبدد سحائب الحلكة والظلام . . هذا المتحف الحى الذى لا يخلو منه بيت أو طريق أو ملهى أو نادى أو حفل . . هذه التى أستطيع أن أفهم من زيها وسمتها ومن حديثها درجة هذا البلد أو ذاك من الرقى وحظه من السعادة والاستمتاع بالحياة . ولم أر فى أى بلد من البلاد السابقة إلا وكانت المرأة هى المقياس الصادق الذى لا يخطىء لحضارة هذا البلد وثقافته ونوع الحياة فيه . ولم تكن لنا من مرسيليا غير الساعات الأخيرة من الليل وساعات الليل فى مرسيليا هى هذه السهرات الصاخبة فى ملهى أو مرقص أو مسرح من

مسارح التمثيل . . ولم يقدم لنا هذا الأخير قصة ما أو تاريخاً وإنما قدم لنا الصبا عارياً كما ولدته أمه . . ولم يكن يثير فينا كما تثير فينا النساء هذه الشهوة الغامضة الواضحة . وإنما هو الصبا الذى شب عن الطوق أو كاد يثير فينا مشاعر متناقضة متضاربة تمتزج ببعضها البعض فيها الشهوة واللذة والألم . الشهوة واللذة لأنفسنا والألم لهذا الصبا الناضر اليتيم الذى لا يملك من أمر نفسه شيئاً . . وكم كانت حيرتنا لنحكم على ما نرى اهى شجاعة فتيات عاريات إذا كان العرى شجاعة أم أهى براءة ذلك الصبا حديث عهد بالطفولة ، وإن استوت الأجساد واكتملت . أم هى صفاقة الاحتراف وقذارة المهنة التى يخدعوننا ويخدعون أنفسهم ، ويطلقون عليها اسم الفن وما هى من الفن فى شىء . بل هى بشاعة الانسانية ، وفسوتها وظلمها وعذابها لهؤلاء الضحايا اللائى يقدمن العرى والكرامة على هذا المسرح أو المذبح الذى لا تروى له غلة ، ولا يشبع جمهوره الصفيق ، ولا يرضى إلا أن يفنى فى لذته كما يفنى الصوفى فى عبادته . . نعم هى صفاقة ذلك الجمهور ، ونحن نعلم الذى يرضى ويعجب بدلا من أن يسخط ويؤلم .

لم يكن حظنا فى مرسيليا بأكثر من حظنا فى سابقتها جنوا فقد غادرنا الباخرة بعد ساعات وعادت تستأنف سعيها شطر اسبانيا وإن كنا لا ندرى أى بلد نريد من هذه البلاد الاسبانية الجميلة .

فأمامنا المرية وفالنسيا وبرشلونه . لا نعرف بأى بلد من هـــذه الثلاث سنلتقى .

أليس فى حياتنا وحياة الكثير منا شيئاً من حياة هذه السفينة. فى هذه اللحظات نسير على غير وجه لا نعرف إلى أى غاية نسير ، وعملنا على ظهرها لا ندرى أى بلد يراد لنا ، فأنا لا أدرى ولا يدرى غيرى والقبطان أيضاً لا يدرى ونحن فى انتظار برقية من الاسكندرية تصلنا أثناء السير لتحدد لنا غايتنا وترسم لنا الطريق ، وهذا الضباب الذى تكاثف بالليل وأحاط بنا كالخيمة البيضاء والذى ارتاعت له الباخرة فأطلقت صفارتها المذعورة مرة ومرات لتنبه إلى وجودها وتدل على مكانها ، ثم يرتفع الضحى ويرتفع الضباب ويصبح ركاما متكاثفاً ثقيلا غير فرجة ضيقة ترى من هنا وهناك صوب المشرق كأنها نافذة من السماء العابسة الملبدة . تبرز من هذه النافذة أشعة بيضاء . متفرقة كأنها أصابع عملاق . تمتزج بسطح الماء وتختلط بلونه الأزرق الباهت فتترك بقعاً مضيئة متوهجة حمراء كالدم . متباعدة عند ما يتغلب السحاب على هذه الأشعة الهزيلة المتراخية فيخنقها إلا من بضع ثغرات ، وتتدانى هذه البقع وتتصل فى خط ذهبى يحدد هذا الفضاء الأزرق الواسع كأنها صورة فى داخل إطار مذهب جميل ، وذلك عند ما يرتفع قرص

الشمس فى الفضاء ، ويبدد هذه الستارة ويمزقها .. أرسلت الشمس بعض الدفء ، وولى السحاب مدبراً وظهر عن يميننا الساحل البعيد السعيد بعيداً ممعناً فى البعد . لا تكاد العين تتنبه إليه كأنه قلامه ظفر تبرز منه بروزاً ضئيلا قمما ضئيلة لآثار قد تكون أبراجاً أوفنارات

وعاد النورس يظهر من جديد ويدلنا على قرب الشاطىء يرتفع فى الفضاء مندفعاً كالسهم متألقاً كالنجم . أو متدانياً من سطح الماء على بعد بوصات وقد تراخت جناحاه وتهدلت . أو عائماً بعد ذلك طافياً مع الموج ضاماً جناحيه الرشيقين مسلماً قياده لذلك النهر الجارى يذهب معه حيث يشاء . كما تذهب بنا هذه الباخرة حيث تشاء . وعاد الشاطىء يظهر واضحاً جلياً وكان ذلك الشاطىء مدينة فالنسيا الاسبانية وسأتحدث الآن عما رأيت فى الموسيو المتحف الوحيد فى هذه المدينة وقد خصص طابقين للوحات الأثرية القديمة منها ما مضى عليها ثلاثة قرون وأحدثها ما مضى عليه نصف قرن . ولن أنسى من هذه اللوحات قصة الطوفان أوقصة نوح وفيها يتخيله الرسام بحاراً نحيلا مهيباً وقد التف بثوب أشبه بالشراع وفى فلكه يقبع من كل زوجين اثنان وقد ارتسم على ملامح ركابه الخوف والقلق والانتظار وبيده مجداف طويل يضرب به واقفاً الماء الذى تبعثرت فيه أجساد المغرقين منهم من قضى ومنهم من يصارع الموج

واليأس ليلحق بالناجين . ولم ينس الرسام أن يصور لنا ذلك الذى آوى إلى جبل يعصمه من الماء وقد لفه الموج ليبتلعه . ونوح فى طلعته الشابه ووجهه المهيب وقد اتصل شعر رأسه الأسود المنثور بشعرات تغطى وجهه ولا تبين غير عينين سوداوين يشع منهما العزم والحزم والصلابة .

ومن هذه الروائع سلسلة طويلة من الصور تمثل المعارك الحربية وقد التحمت الخيول وأشرعت الأسنة وانعقد الغبار كالليل وتناثرت الأشلاء تحت سنابك الخيول . معركة كاملة يصور فيها الرسام كل أهوال الحرب من شجاعة وخوف وإقدام واقتحام ورعب يخلع القلوب ثم يستأنف فى لوحة أخرى وقد انهزم أحد الجيشين وولى مدبراً والجيش المنتصر يضرب فى أقفيتهم وقد تعثر من تعثر وجرح من جرح . يستأنى الرسام فى تصوير المعركة فى عدة صور ثم يختمها وقد رفع أحد الفرسان رأس الزعيم المغلوب على طرف رمح عال يبلغ بها السماء ثم يظهر المنتصرون وقد جلسوا على أنقاض المعركة ليصيبوا شيئاً من طعام وراحة .

وفى احدى هذه الطوابق رأيت اسبانية غانية تعيد نسخ احدى هذه اللوحات القديمة التى مضى عليها نصف قرن . وقد ضمت لوحتها التى أوشكت على الانتهاء وجعلتها تنحرف مع اللوحة الأم التى تمثل جنة وارفة الظلال غزيره النهر والشجر ووقفت هى بين

الجنتين تجرى بأناملها الرشيقة على الخطوط النهائية ، وقفت مع هذه التحفة الحية أبادلها حديثاً قصيراً وليت وقتى كان يتسع لأنفق معها ساعة أو ساعات أو نهارى بأكمله ، ولكنى كنت أنهى الحديث وليس للباخرة غير بعض الساعة لتستأنف رحلتها إلى بلاد الإنجليز

سألتنى هذه الفاتنة . هل هوايتك الرسم ؟ فأجبت إن هوايتى الكتابة ، ولست أعرف لنفسى هوايه غيرها ، وسأكتب عما رأيت بدون شك . ومن اللوحات التى لا تنسى لوحتين من رسم ريبرا ، وقد مضى على رسمهما أكثر من ثلاثة قرون لعجوز شيخ يقبع فى كهف أو شيئاً يكاد يكون مقبرة وتحت قدميه جمجمة ميت يجلس عارياً إلا من خرقة تستر عورته ، وتفاصيل الشعر الأبيض الأشيب فى رأسه ووجهه ، والعضلات النحيلة الضامرة ، وجسده اللامع المضىء كأنما تجرى فيه الحياة والدفء .

وخصصت إحدى القاعات لمجموعة من اللوحات الحية النصف بارزة تمثل أهوال الحرب ، وبشاعة الموت مجسم بالحجوم بعد أن كانت فى لوحاتهم مجسمه بالألوان والرسوم ، ومن هذه التماثيل تمثال من المرمر لرجل صريع يحتضر وقد أثخنت جسده الحراب والطعنات فى غير موضع .

وخصصت إحدى الطوابق للتماثيل الرخامية والجبسية بالحجم

الكامل ، ومما برعوا فيه هو إظهار الجماعات فى مواكب طويلة .

ومن هذه المواكب موكب الموت أو الوفاة ، وهى قصة نعش يحمله على الأعناق موكب كبير من الرجال والشبان يتقدمون موكباً آخر من النساء الثكالى والصبيان . يشاركون الموكب الحزن والوجوم ، والأطفال الرضع على صدور أمهاتهم لا يعقلون ولا يشاركون فى حزن أو وجوم . كل هذا بالحجم الطبيعى حتى يقرب عدد أفراده من الثلاثين ، والنعش قد كشف أعلاه ، وتهدل عنه غطاؤه وبرز منه رأس صاحبه . تجد فى هذا الموكب البكاء والثكل والحزن العميق الدفين ، والهلع والجزع فى صورة تبرز للموت ، وتفيض بالحياه وتجمع بينهما .

وموكب آخر للفلاحين الرعاة فى أرديتهم الفضفاضة الواسعة وملامحهم الصريحة الصلبة حول قطيع من الأبقار . يقابله موكب من الفتيات القرويات يرعون قطيعاً من الأغنام .

خرجتُ من هذا المتحف لأزور إحدى الكنائس الأثرية ، وقد رأيت من براعة النقوش ، وفخامة البناء ، وتعدد الرسوم واللوحات والتماثيل النصفية المفحورة على الخشب ، رأيت فى هذه الكنيسة من الفن ما يجعل الاسبانيين يعتبرون فى صف واحد مع الفنانين الايطاليين .

وفالنسيا مدينة صغيرة أقل من مدينة جنوا الايطالية امتداداً

واتساعاً وأقل منها ثروة وبذخاً ولـكنها تقف معها أوتزيد فى فتنتها وروعتها واستهواتها القلوب ، وتمتاز بعد ذلك بما للأسبانيات من جمال نادر يهز الصخر رؤيته وبساطة سمحة حلوة محببة .

وكم كان أسفى شديداً فى هذه الرحلة وقد مرت بنا على هـذه البلاد مروراً سريعاً كالسحاب قصيراً لا يروى غلة، وها هى الباخرة تقلع مع الفجر وتستقبل مدينة المريه فى مساء الليلة الثانية ، وفى المريه التى أراها الآن للمرة الثانية ذهبت أرتقى الجبل ميمما شطر هذه القلعة الحصينة ذات الطراز العربى التى لا حت لى مصعدة فى السماء ذات أسوار وأبراج وشراريف . يطلق عليها الأسبانيون Alcazaba ، وكم كانت حسرتى شديدة وأنا أقف أمام الجدران التى قاومت سبعة قرون أوتزيد وأتذكر مجد العرب ومجد الاسلام وكيف هوت العروبة والاسلام كما يقول شوقى : هـذه الأطلال والأسوار ، ويحى لو كانت تستطيع أن تتحدث وتروى وتقص علينا ما مر بها من حياة وسؤدد ومجد ، ولـكنها صامتة خرساء تثير فى قلوبنا بسكونها وسكوتها الحسرات .

ارتقيت الحصن من خلال إحدى فرجاته الشاهقة . كانت المريه النائمة ببيوتها البسيطة ودروبها الملتوية كتلك الصورة التى نراها فى مصر، تلوح أسطح المنازل نظيفة بيضاء لاتخلو من العشش الخشبية التى نرى فيها الدواجن ، وتنطلق فيها صياح الديكة ، ويدور هـذا

السور الضخم ويلتف حول حديقة ذات طبقات مدرجة عريضة يعلو بعضها البعض ، ويتوسط كل مدرج منها نافذة صغيرة أو حوض للزهور ، وترتفع هذه المدرجات متعددة الألوان والزهور كأنها هرم مدرج مقلوب يحيط به سور عريض متعدد الأبراج يتبع الأرض التى يحيط بها فى الانخفاض والارتفاع ؛ وفى أسفل الحديقة دهاليز عميقة ضيقة كتلك الصورة التى نتخيلها عن الحدائق ومجالس الأنس والطرب فى عصر العباسيين ، وكذلك الموسيقى الاسبانية التى نهيم ونطرب بها ، والتى لا أشك فى أنها آخر ما أتيح لنا أن نسمع كأنى بهذه الموسيقى تأتى إلينا من خلف القرون لتروى لنا كيف كانت ليالى بغداد .

وتقع هذه القلعة على ساحل البحر وتحجب خلفها قلعة أخرى فى طرف المدينة الآخر على قمة تدانيها فى الارتفاع يفصل من هاتين القلعتين أو هذين الجبلين وادٍ عميق أرضه صخرية ملساء يقطعها فى منتصفها سور حجرى ضخم يحمل فوقه طريقاً ممهداً عريضاً يصل بين القلعتين ، ينحدر من إحدى القلعتين ، ثم ينحنى انحناءة خفيفة ثم يصعد إلى الأخرى وعلى ذلك الطريق من الجانبين عدد لا يحصى من الابراج الحصينة ولا تخلو احدى القلعتين من أثر حديث أدخل عليها وظهر ذلك من لون الحجارة الأبيض الذى لم

تؤثر فيـــه السنين بعد وها هو تمثال للسيد المسيح أو برج يحمل الأجراس .

وفى ذلك الوادى العميق وعلى أرضه الصخرية الملساء تقوم عدة منازل متواضعة تشترك فى فنـاء واحد عريض فى طرفه حوض كبير من الحجارة الصماء مقسم إلى أقسام عدة امتلأ أكثر من ثلثيه لا ينفذ الماء من أحدها إلى الآخرى ويختلف لون الماء فى كل قسم عن الآخر ويحتاط به عدد كبير من النساء يغسلن ملابسهن كما تفعل الريفيات على شاطىء النيل وفى جانب آخر منطقة عريضة مملوءة بالصخر النظيـف وكأنه غسـل عدة مرات من قبل . وعلى هـذا الصخر تنتشر الأثواب لتجف تحت حرارة الشمس . وبهذا ختمت هذه الجولة التى أرضيت فيها تفكيرى وعقلى وأردت أن أبدأ جولة أخرى أرضى بها عاطفتى وقلبى ، وكنت أقصد بهذه الجولة الأخيرة دار السيدة ماسمينا . وكيف لا وقد كانت تلح على فى أن أزورها كلما أقبلت الباخرة إلى ميناء المريه . وأذكر هذه الأسبانية الشقراء التى لم تكن جميلة . ولم تكن دميمة كذلك فهى صورة شائعة لنساء كثيرات كانت بحاجة إلى صديق كما كنت فى أشد الحاجة إلى صديقة. أريد النسيان ، وقد تكون هى كذلك فمن يدرى . وقد سعدت بجوارها ثلاثة أيام فى رحلتى الأولى إلى المريه جعلتنى أنسى أثناءها

ما كنت أريد أن أنسى، كانت السيدة ماسمينا تعيش منفردة كما كنت أعيش منفرداً وتعمل بالتطريز والتفصيل وتبحث بعد ذلك عن التسلية أو العطف والحنان من أى صديق وقد أعطيتها هذه التسلية وهذا العطف أو الحنان الذى تريده . وأعطتنى هى النسيان. وأعطتنى ما هو أكثر من ذلك . أعطتنى درساً من دروس الحياة من غير أن تشعر . وكان ذلك الدرس أن لا أهرع خلف امرأة أو فتاة . وخير لى أن تسعد بى امرأة أو فتاة من أن أسعد أنا فى ظل هذه أو تلك . . خير لى أن أكون مصدراً لسعادة الآخرين على أن يكونوا مصدراً لسعادتى ما دامت الطبيعة لا تسمح بأن يكون كل منا مصدر سعادة للآخرين , وأن أبذل بعض الجهد لكى أروض قلبى على حب من يحبنى وأوطن نفسى على أن أقوم بهذا الدور خير من أن يقوم به غيرى لى . والسيدة ماسمينا فى العقد الثالث تقريباً من العمر نحيلة شقراء لا ترى إلا وهى فرحة مرحة طروبة تأخذ فى الرقص كأنما أخذت على نفسها عهداً بأن تنسينى نفسى وتنسينى مكانى وتنسينى كل شىء . وكم سرنى رقصها ذلك الاسبانى وهى تطير خفيفة كالفراشة تكاد بسرعتها أن لا تلمس الأرض تكشف عن ثنايا بيضاء ناصعة فيبدو فمها أكثر اتساعاً باسطة عينيها على كأنها تترقب تأثيرها فىّ ، لاتنى

عيناها عن التحديق ، وشفتاها عن الابتسام . وتدور قدماها بها كما تدور النحلة حتى أعجز عن متابعتها ولا تعجزعن رقصها أو طيرانها حتى أمد يدى وأجلسها بجوارى قسراً فتكف عن الرقص. وتأخذ فى الثرثرة بعدذلك لاتترك فرصة لى للرد عليها . وكم أفادتنى ثرثرتها هذه لكى أتقن هذه اللغة التى أخذت فى دراستها بعد الاتقان .

كنت أمنى نفسى بيومين سعيدين فى المرية بصحبة هذه السعيدة ، وفى منزلها الذى أعرفه . رأيت صديقتها التى أعرفها كذلك . وكم كان ارتياعى شديداً عند ما رأيت على وجهها أثر التجاعيد وتحت أهدابها ظلال كثيفة سوداء تضيف إلى سنها عشرات السنين . هذه السيدة البيضاء البشرة السوداء الشعر والتى كانت تجرى فى ملامحها طفولة عذبة . كم كان ألمى شديداً عند ما رأيتها تسرع إلى الهرم أو يسرع الهرم إليها. وزاد ألمى بعد ذلك. عند ما علمت أن ماسمينا غادرت المريه واستوطنت فالنسيا . وهكذا حرمت هذه المرة من ماسمينا التى كانت تسقينى من الحب فنوناً وألواناً من ذلك الدلال الذى أكرهه وأضيق به ولا أسألها شيئاً وإنما تعطينى من غير سؤال . كأنها تريد أن تغمرنى بالسعادة غمراً . ويغمرنى ما تقدم لى حتى أنسى نفسى وتنقضى الساعات وكأن لم تنقض دقائق ذلك الحب الذى كنت أظهر بعضاً منه فتظهر أضعاف ما أظهر، أقدم لها

العطف والحنان فيغمرها ذلك العطف والحنان فتنحنى على يدى تقبلها وعلى صدرى تتمسح به . لا تأخذ موقف المترقب المنتظر بل موقف الشريك الذى يأخذ ويعطى ، ويعطى ولا يأخذ وكل ذلك فى غير إفراط ولا تكالب فكأنها تؤدى حقاً واجب الأداء .

ولكننى وقد حرمت فى هذه المرة من ساعة بجوار السيدة ماسمينا ، وعسى أن يكون حظى فى الرحلة القادمة أسعد منه فى هذه المرة .

اتفقنا يوماً واحداً فى مدينة المريه وشاهدنا من فقر أهلها ما يعيد إلى الأذهان الصورة التى رأيناها فى الهند ، وتكون اسبانيا بذلك هى الدولة التى أوشكت أن تنسى أنها دولة أوروبية ـ قبحاً للفقر ما أثقل وطأته على الكبار البالغين الذين يستطيعون مرغمين أن يرضوا بالمر ويستسلموا لقسوته واستبداده ، وإذا كان الفقر ثقيلا على الكبار فما أشد ثقله على الأحداث ونفوسهم متفتحه للحياة والخير والجمال ، ولن أنسى طفلة صغيرة لا تزيد عن العاشرة كانت تقف على رصيف الباخرة وقد كاد الليل أن ينتصف ومعها طفلتان فى مثل سنها ـ طفلة فقيرة حتما من أبوين فقيرين ولكنها بغير شك من أبوين جميلين فقد كانت رائعة الجمال فى مثل سن هذه الصبية كثيرات فى اسبانيا اللواتى يفتك بهن الفقر فتكا ذريعاً .

كنت أفكر فى هذا وأنا أنظر لهذه الصبية الجميلة ، وقد اعتمدت بمرفق على سور الباخرة ، ووقفت تستجدى فى غير احتراف ، وتسأل وكأنها تطلب شيئاً من صديق ، ثم تصمت لحظات وتعود إلى الانطلاق والمرح مع زميلتها ، كان هذا المنظر الذى يصور الفقر والجمال آخر ما شهدت فى أرض اسبانيا وانطلقت الصبية إلى منزلها ولم نبخل عليها بشىء . أهدينا إليها قطع الصابون التى طلبتها ، وما بقى فى أيدينا من النقد الاسبانى ، وستهدى الصابون إلى أمها وستنفق ما معها من نقود ، ولن يغنى عنها ذلك من الفقر شيئاً . قبحاً للفقر ما أثقل وطأته على الكبار البالغين وما أشد ثقله على الأحداث ونفوسهم متفتحة للحياة والخير والجمال ولكنه الفقر يضنى عليهم النحول والذبول كما يخلع على قلوبهم الانكسار والذلة وإذا كان هذا شعور الغريب نحو صبية فقيرة جميلة فكيف يكون شعور الوالدين ومتى يكون لى طفلة حلوه كهذه أتمتع بهذه العاطفة التى يحملها الأب لابنته وبالعاطفة الأخرى التى تحملها البنت لأبيها ما أروع هاتين العاطفتين وما أنبلهما ، وما أقسى أن يعيش المرء محروماً منهما طول الحياة . .

انطلقت الباخرة مع الفجر فى طريقها إلى ليفربول وانطلق الموج خلفها يركب بعضه بعضاً ويطغى بعضه على بعض كالرعيل من الناس يتزاحمون ويتدافعون بالمناكب ، والريح تهب من خلفنا

كأنها تدفعنا إلى الأمام تحثنا على الاسراع ، وتعبث فى الماء فتتناثر فيه البقع البيضاء كأنها النسور المجنحة متدفعة منطلقه تبغى اللحاق بنا وقد أسرعت فى طيرانها ، واختارت الماء بدلا من السماء وظهر عدد غير قليل من طيور البحر يتقاسم لونه البياض والسواد ، وقد اختار طيرانه خلف الباخرة مترقباً ما تصرعه مروحتها من صغار السمك ، وما تسوقه إليه من رزق فى غير عناء ينقض عليها بعين بصير لا تخطىء فيصيبها وهى فى ذهولها أو يصرعها ، ويتجنب بما له من فراسة . ويبتعد بما له من تجربة عن هـــذه الدرافيل الكبيرة والأسماك الضخمة التى تسابق السفينة وتسبقها عنيفة متحدية وذلك النهر الصغير المضطرب الذى تتركه آثار السفينة كما تترك إبل القوافل آثارها فى الرمال .

والذى يبدو اليوم قصيراً ممعناً فى القصر لا يزيد عن عدة أقدام يطويه الموج بعد ذلك ويترك منه بقعاً صغيرة خضراء لا تلبث أن تطوى وتتلاشى مع الأمواج المنطلقة كما تطوى حياتنا وتتلاشى ، أليست أعمارنا على وجه الزمن كهذه البقع الصغيرة الخضراء فى مياه البحر الواسع العريض . أليست حياتنا كهذه الدقائق التى تظهر فيها ثم تتلاشى كما يتلاشى ما تتركه السفينة من أثر .

انقضت أيام خمسة على مغادرتنا اسبانيا وشاهدنا ما أراد

البحر لنا أن نشاهد من هدوء البحر واضطرابه ، ومن وداعة الأمواج وطغيانها ، وعادت ليفربول وهى الغرض الحقيقى من الرحلة والهدف الذى تحملنا له كل هذه المتاعب ، فكانت الباخرة تمر كما تمر الأطياف على كل من إيطاليا وفرنسا واسبانيا لتأخذ إلى ليفربول ما أراد أخذه لها من بضائع وفواكه .

ولو أخذ رأينا فى ذلك لما اخترناها غرضاً أو هدفاً نتحمل من أجله المتاعب فقد رأينا ليفربول قبل ذلك وضقنا بها وبأهلها . وزهدنا فى عشرتهم ولون حياتهم التى لا يملكون غيرها . حياة باردة هامدة هى أقرب ما تكون إلى السكوت والموت . غيرنا مضيق جبل طارق وتعرضنا لذلك الامتحان الضيق القاسى الذى يمتحن به البحر أعصابنا وتفكيرنا وثقتنا بأنفسنا ونكون بذلك قد تعرضنا لهذا الامتحان مرتين فى رحلة الذهاب الأولى فى حوض البحر الأبيض والثانية بالقرب من شواطىء البرتغال .

وفى خليج بسكاى وترقد فى هذا الخليج باخرة مصرية غارقة منذ عشرات السنين كانت تسمى (نجمة المكس) وترقد فيه كذلك مروحة سفينتنا التى فقدت فيه من قبل . ولم نكد نعبر هذا الخليج وتكتب لنا السلامة فى الخروج منه حتى سمعنا عن غرق باخرة سورية كما سمعنا على أنه لم ينج من بحارتها أحد .

وما استقرت الباخرة على شاطىء نهر ميرزى فى ليفربول . حتى

كنت أستعد للقيام بجولة فى الريف الانجليزى وأنا أعرف أن اقامتنا فى ليفربول ستمتد الى شهر كامل . وليست هنا سيلفانا لتمنعنى عن القيام بساحة قصيرة ممكنه .

الريف الانجليزى

نيو بريتون New Prighton

وفى مدينة نيو بريتون شاهدت ما سبق أن شاهدته فى مرسيليا وكان ذلك مسرحاً من مسارح التمثيل يعرض على واجهة صورة امرأة عارية فى عدة مواضع مختلفة لا يستر جسدها شيء وإن كان وجهها جميلا لا يتفق مع هذا العرى .

وعلى خشبة المسرح كانت عارية كما ولدتها أمها غير وشاح ينزلق على كتفها ويمر بين ثدييها. كانت تقف جامدة ساكنة وحولها فتيات صغيرات يرقصن فى أزياء مختلفة وهى فى سكونها وجمودها كالتمثال لعلها تستر بذلك السكون والجمود العرى الذى لم يستطع الوشاح أن يستره .

ثم يسدل الستار ويرفع من جديد لتظهر هذه الفاتنة فى وضع امرأة يابانية تجلس عارية على أرض الحمام كما تجلس للصلاة . ثم إسبانية أو هولندية أو غير ذلك ، وهكذا يسدل الستار ويرفع

لتمثل لنا بعريها ووشاحها . وذلك اللسان من الضوء الذى يتجمع ويتركز على جسدها فى ألوان عدة . تمثل لنا بكل ذلك صور نساء العالم المختلفة تظهر فى احدها ملقاة كما يلقى الشيء أو جالسة على قاعدة تمثال كإحدى فتيات الليل فى باريس . يتركز الضوء الذى كان يغمر أرض المسرح وفراغه ويتجمع على جسدها حتى يبدو سابحاً فى الظلام ، الظلام الذى يجعل المسرح عميقاً لاحد لعمقه ويباعد بين أركانه وأطرافه الذى كان يربط بينها الضوء ويدنى بعضها ببعض . فيبدو ذلك الجسد معلقاً فى الفراغ المظلم العميق .

صورة لا ينقصها إلا الشيطان ولعله كان مشغولا كعادته فى أذهان المتفرجين ينتظر الفرصة السانحة لاستفزازهم واثارتهم ومن هذه الفرص السانحة عندما يسدل الستار وتعمل إحدى الأيدى المجهولة لتضع ذلك الوشاح على جسد هذه الفاتنة فى مكانه الملائم من الثديين المشرعين فى السماء منزلقاً فى غير عناية على كتفها الأيمن معلقاً بين فخذيها ليستر ما يمكن أن يستر فلا ينحرف يميناً أو شمالا بل يبدو فى وضعه الرأسى معلقاً فى الفراغ . ثم يرفع الستار ويظهر الوشاح وقد وضع بشيء من العجلة أو من العمد من يدرى . يبدو ذلك الوشاح وقد انحرف وكان يجب ألا ينحرف وكشف وكان يجب ألا يكشف . وهنا تبدأ هذه الفرص السانحة للشيطان ليعبث فى العقول ويؤثر فى الأعصاب والأذهان وكأنما قد اجتمعت أبطال

القصة الثلاث أبطال كل ملحمة ومعركة للشيطان والمرأة والظلام . وكان ميدانها الغرائز الدقيقة القوية وخصمها العقول الانسانيـــة الضعيفة والأعصاب المرهقة المـكدودة .

ترى من الذى يضع الوشاح فى عجلة أوابطاء فى عمد أو غير عمد رجل أو امرأة ترى ما الذى يحدث خلف الستار .

ثم يأتى دور ممثلة أخرى تمثل فى غير قصة متصلة أطوار المرأة والفتاة فطوراً هى الصبية الساذجة البكر ، وطوراً هى المرأة المدللة الجميلة وقد أخذ دلالها يستبـــد بها حتى وصـل إلى درجة البكاء والشهيق . وما أبرعها حواء عند ما تمزج الغصب والدلال والبكاء والشهيق وطوراً هى الـكهلة العجوز المتصابيـة تحب الناس وتفرط فى هذا الحب ولا يحبها أحد .

وكان كل ذلك التمثيل البسيط السليم غير كاف ليمنعنى من التفكير فى الممثلة الأولى العارية وقد عرفت بعد خروجى أنها انجليزية فاتنة واسمها لورا وقـد عجزت عن أن أحصل على صورتهـا العارية بأى ثمن كان .

سوثبورت South Port

ما أشد اختلاف الصور عندما تتمثل ليفربول بدخان مصانعها وسواد مبانيها وذلك الطريق الطويل الممتد على طول الميناء المزدحم

بالسفن من جنسيات مختلفة يفصلها عن الطريق سور عريض ممتد . وفى داخل هـذا السور نرى البحارة من جميع الجنسيات ونسمع أحاديث مختلفة اللغات واللهجات فكانها مدينة دولية تجمع داخل أسوارها دول العالم المختلفة . وخارج هذه الأسوار طريق طويل نصف ممهد تقطعه العربات الخشبية التى لا ينقطع ضجيجها وعجيجها ذاهبة جائية تجرها بغال فى مثل ضخامة الجمال ساعية بما تحمل من بضائع . ويغطى كل ذلك الضباب الذى يمتزج لونه الشفاف بلون مبانيها السود فتأتى صورة من الصور المزعجة فى عين النائم .

وفى قلب المدينة يشتد الزحام فى الطريق ويصل إلى أقصاه فى ساعات النهار حتى يصبح السير فى الطريق العام مجهداً ثقيلا حتى إذا أقبل المساء ترى المدينة فى سبات أقرب إلى الموت .

ما أشـد اختلاف الصور عند ما نتمثل ليفربول ونتمثل هذه القرى الانجليزية التى تحيط بها . ففى سوثبورت مدينـة أقرب ما تكون إلى المدن الايطالية أو الأمريكية التى تطيب فيها الحياة . ومن لم ير هذه القرى الانجليزية البعيدة لا يستطيع أن يحكم حكماً سليما على بلاد الانجليز فللمبانى هناك طابع أقرب مايكون إلى الطابع الإيطالى . رصيف طويل ممتد تقوم فى نهايته أعمدة من الحديد المزخرف يرسم كل عمودين اتصل أعلاهما قوساً من الأقواس

من الأقواس الأنيقة البديعة وتحمل هذه الأقواس مع أطراف المبانى سقفاً مائلا من زجاج لتنحدر عليه مياه الأمطار .

وعلى جانبى الطريق شجيرات متراصة كأنها وضعت بحساب دقيق عارية أطرافها مجردة من الأوراق تنبعث منها الأضواء فى مختلف الألوان حيث تحمل كل شجرة عشرات الثريات الملونة فتبدو على هذه الأشجار التى لا عداد لها الموزعة على جميع طرقات المدينة كأن النجوم قد هبطت من السماء واختارت أن تشارك الناس فى أفراحهم .

وقد كنت أظن أن هذه الثريات قد وضعت للاحتفال بعيد الميلاد ولكنى علمت فيما بعد أن هذه هى طريقة الإضاءة فى المدينة فى أيام الميلاد وغير الميلاد .

طريقة فريدة تميز المدينة حتى اشتهرت بهذه الآلاف المؤلفة من النجوم الملونة التى تزحم طرقات المدينة فتخلع عليها جمالا وسحراً وبهجة وروعة ، وتتحول بفضل هذه الآلاف من الأشجار إلى جنة يحسد عليها الانجليز .

وذلك غير جنتين أخريين إحداهما فى وسط المدينة مستطيلة الشكل تأخذ طول الطريق الرئيسى وتطل عليها جميع المبانى القائمة على هذا الطريق ، تعزف فى قلبهـــا فرقة موسيقية كاملة فتمتزج

الأضواء والأنغام ويتكون من مزاجهما رواء وسحر يقربها من الأحلام القصيرة الجميلة حتى نقضى بها الساعات وكأننا لم نقض بها شيئاً .

أما الحديقة الأخرى فهى تطل على ساحل البحر ويهرع إليها الصيادون فتياناً وفتيات عندما يرتفع المد الذى يظهر واضحاً محسوساً على هذه الشواطىء .وفيها ينفقون الساعات فى صيد السمك .

شستر CHESTER

مدينة الكنائس التى تصل إلى العشرات وهى بقعة صغيرة لا تزيد حاجتها عن كنيسة واحدة . ذهبت إليها فى يوم من أيام الآحاد وكان القسيس فى الطريق العام وقد جعل ظهره إلى كنيسة ووجهه إلى أخرى تقابلها وأخذ يرفع عقيرته بالصياح ويخرج صوته بكل قوته وجهده لعله أن يبلغ الآذان .

ويقف البعض فتيان وفتيات يريدون الاستماع وينصرف الآخر لينفق ما تعود أن ينفق من وقته فى الحانات .

والتلتوار يحتوى على طابقين بدلا من طابق واحد يعلو بعضهما البعض ويصل بينهما درج أنيق بين كل عدة خطوات ، ويزخر كل

طابق بما يعرض من ألوان البضائع والتحف والملابس خلف الواجهات الزجاجية المضيئة ، ويزدحم بالجميلات والأنيقات يفقن كثيراً جميلات ليفربول ، فهن فى هذه المدن الصغيرة يجمعن بين نضارة الريف وحضارة المدينة ، يجرى على وجوههن هذا الغشاء الرقيق الوردى بدلا من ذلك اللون الباهت الكابى الذى تحمله فتاة المدينة بما يسببه لها السهر والتدخين والإفراط فى الشراب .

والمدينة بمبانيها ذات طابع إنجليزى قديم أقرب ما يكون إلى الطابع الهولندى أو النرويجى ، ولعلها بفتياتها أقرب إلى فتيات هولنده أو النرويج كذلك .

ولم يكن فى هذه المدينة وفى هذا اليوم يوم الأحد غير السينما أو الحانة التى لا تخلو منها مدينة ما ، وخرجت من الأولى لأدخل إلى الأخرى وأنفق فيها ما بقى من ساعات ، وإذا كان لا بد أن أشرب فليكن ذلك الشراب الخفيف الذى يسمونه الجعة ، والذى لا هو بالخمر ولا هو بالماء وإنما هو شىء بينهما . ليكن ذلك الشراب الأسود المر الذى لا أسيغه لمرارته التى لا تشبهها غير مرارة حياتى والنشوة الخفيفة التى تعقبها هذه كالنشوة التى تعقبها حياتى إذا كانت لحياتى نشوة ما .

جرعت أول كوب ، وامتدت يدى إلى ثان وثالث ولم أدرى عدد الأكواب التى جرعتها بعد ذلك ، وبدأ جزء من نفسى يفلت من الرقابة والتحفظ اللذين فرضتها نفسى على نفسى ، ورأيتنى أميل لأهمس فى أذن غاده على أبواب الأربعين تحمل فى وجهها أثراً من جمال لأقول.. إلى أين تذهبين؟ فأجابت إلى ويلز . وأنت؟ قلت: إلى ليفربول . وما اسمك ؟ قالت فرانسيس، قلت اسم جميل يافرانسيس ومكان جميل هه ؟ ولكن ألا تحبين أن ترينى فى ليفربول فى يوم ما فأجابت وهل تحب أن ترانى فى ويلز فى يوم ما؟ وأضافت يحسن أن نلتقى فى شستر هنا فى مثل هذا اليوم من الأسبوع القادم وأجبت نعم وأنا أعرف اننى لن أوفى بذلك .

وأرسلت نظرة أخرى إلى رواد الحانة أدرس هذه الانطباعات التى انطلقت والسبب فى إطلاقها الخمر فبدت على القطرة . انطلقت كما ينطلق الجواد الذى فك من عقاله لا يقيده شىء ولا يحده شىء ولعل حالى كان خيراً من حالهم . فلست أحس فى رأسى غير صداع شديد وإن كنت متمالكا واعياً . فحالى خير من حال هذه العجوز وقد أطار الخمر صوابها . تترنح وهى جالسة كأنها فى حلقة من حلقات الذكر ، وعلى فمها ابتسامة كليله بلهاء تتحدث يميناً وشمالا ، ولن يكون حديثها غير ثرثرة تافهة فارغة كعقلها التافه الفارغ .

وأخرى فى مثل طهارة العذراء مزهوة بجمالها تتأنق فى لفتها وحركتها كما يتأنق الغزال ، وكان هذه السموم الصفراء والسوداء لم تلعب برأسها بعد فهى تدرس القاعة ومن فيها ترقب هذه وتلك. وترقب من يدخل القاعة ومن يخرج منها فكأنها تقارن جمالها بأولئك وتأثيرها وفتنتها فى هؤلاء .

كانت الساعة تشير إلى العاشرة ولم يبق غير دقائق على آخر قطار يغادر المدينة إلى ليفربول ، وبين القطارين . الذاهب أحدهما إلى ليفربول ، والذاهب ثانيهما إلى ويلز . كنت أصافح فرانسيس وزميلتها وهى تعتقد أنى آت فى الأسبوع القادم وأنا أعتقد عدم الوفاء

بلاكبول BLACKPOOL

ليت شعرى متى أرى فى مصر هذه الحياة الراقية التى يتمتع بها رجل الشارع هنا ، وفى مصر والشرق حياة راقية نظيفة ، ولكنها كانت وما زالت وقفاً على بعض أفراد وعصبيات قليلة . ليت شعرى متى أرى فى مصر حياة راقية نظيفة كالماء والهواء المشاع يتمتع بها كافة الناس . متى أرى مصر قطعة من أوروبا ويخدعنا من يقول أن مصر ستفقد ميزتها ، وستفقد كل ما يحبب الأوروبيين فيها متى صارت كذلك .

وفى هذا القول — ومعظم قائله أوروبيون — خداع كبير فإن مصر إذا صارت قطعة من أوروبا ، فليس معنى ذلك أنها ستفقد لغتها ودينها وتقاليدها ، فلسنا نريد لها ذلك ولكننا نريد لها بجانب هذه العمد الثلاثة حياة راقية نظيفة كالحياة التى تمتع بها أوربا وانجلترا .

وليست أوروبا بلداً واحداً وإنما هى بلدان مختلفة يتمايز هذا البلد عن ذاك باختلاف هذه العمد الثلاث كلها أو بعضها فتخلع هنا لوناً من ألوان الحياة نتعشقه فى بلد ما ولا نجد له نظيراً فى سواه .

فنى هولنده حياة ليست كما فى انجلترا فهما متدانيان فى الروعة ، ولكنهما مختلفان على كل حال كما تختلف ملامح الأشقاء .

وقد يختلف مذهب هذه الدولة عن تلك إذا كانت كاثوليك أو بروتسنانت فيحدث هذا الاختلاف كما يحدث الاختلاف فى اللغة شيئاً متغيراً مثيراً يشعرنا عند ما ننتقل من هذه إلى تلك كأنما انتقلنا من حياة إلى حياة ومن جو إلى جو .

فى إيطاليا حياة مرحة صاخبة ولغة جميلة سهله ذات جرس موسيقى ، وشمس حارة دافئة ، وطعام وافر كثير ، وشراب يسيل أنهاراً وخاصة النبيذ .

وفى اسبانيا كما فى إيطاليا جمال النساء واللغة والموسيقى ويزيد على ذلك جمال عشرتهم وروحهم الأليفة الودود ، وفى انجلترا برودهم

التقليدى ، وانطوائهم على أنفسهم ، وحبهم للسكون والصمت ، ولا يدخل فى ذلك النساء فهن فى كل من هذه البلاد يملن إلى الثرثرة ولا يطقن السكوت والصمت .

وللإنجليزية المرأة طريقة نادرة للإلقاء والحديث ، وطريقتها تميزها عن غيرها فى السلوك والاتصال بالناس . طريقة تميل إلى الاناء والبطء ، وسلوك يطبعه طابع الاعتدال والتحفظ ، فهى ترسل الإيماءة والتحية والكلمة العابرة بطريقة مصنوعة ، ولكنها لرقتها وجمالها تفوق ما ترسله غيرها على سجيتها بغير عناية .

وقد اتصلت بينى وبينهن أحاديث كثيرة أبدأها أنا فى غالب الأحيان معتمداً على هذه المناسبات الظاهرة التى توحى بالحديث عن الجو أو المدينة ثم يتدفق الحديث وتتدفق الابتسامات ، وأغلب هذا يحدث فى صالونات القطار الذى ينطلق ساعة أو ساعتين كما حدث وأنا فى طريق إلى بلاكبول التى تبعد ساعتين كاملتين عن ليفربول .

ولعلى ضقت بهذا الكذب الذى كنت أكذبه على نفسى فى بعض الأحيان ، فكل فتاة أو امرأة يتصل بينى وبينها الحديث ويجمعنى بها مكان واحد أقول لها إن صدقا وإن كذبا إنك أجمل انجليزية رأيتها للآن وقد أقول إنك أجمل من رأيت حتى الآن . والعجيب أن هؤلاء الحمقاوات يصدقن ذلك وينطلقن معى فى الثرثرة وقد تبوح

إحداهن فى دقائق قليلة بالكثير من أخبارها وأسرارها مشفوعة بما تحمله من صور ، صورة زوجها وابنها إذا كانت أم ، وصورة أبيها أو أخيها إذا كانت فتاة .

وطبيعى ، أن أنسى أسماء هذا الجيش الكبير وأشك فى أننى أستطيع أن أتعرف على واحدة من هؤلاء إن رأيتها بعد ذلك .

أما صاحبتى هذه فكنت أرى فى وجهها ونظراتها الرغبة فى الحديث ولكنها تنتظر منى أن أبدأ أنا الحديث ، ولكنى لم أنشط لأى حديث ، فقد كانت جميلة وأشفقت على نفسى أن تترك فىَّ أثراً ما بعد مفارقتها ، فأنا أريد أن أكون بعيداً عن ذلك الأثر الذى يجب أن نفكر ونروى قبل أن نعرض أنفسنا له فليس جميلا كله ذلك الأثر . . أغرضت عنها ساعة أو بعض ساعة منصرفا إلى القراءة فى جريدة الديلى اكسبريس التى لا تخلو من خبر سيء تنشره عن مصر أو عن صلاح سالم التى تلقبه بوزير الرقص فى مصر .

ثم انصرفت إلى الكتابة ، وكأنما أثار فضولها وأنا أكتب من اليمين إلى الشمال فألقت ما فى يدها من خيوط الصوف الذى كانت تنسجه . وراحت ترقبنى فى صمت . وانقطع ذلك الصمت عند ما مددت يدى إلى باب الصالون أريد أن أغلقه فقالت كأنما كنت أغلقه لأجلها : أشكرك . وراحت

تساعدنى فى إغلاقه . وهكذا امتد بيننا الحديث ولم أكن بحاجة إلى أن أقول لها كاذباً إنك جميلة فقد كانت من أجمل الجميلات . وحدث ما كنت أخشاه فقد غادرت القطار قبل أن أغادره تاركة ذلك الأثر الذى لم أكن أريده ولكنها كتبت لى بخطها الآثار التى تنصح هى لى بزيارتها فى بلاكبول كما كتبت اسمى مدينتين يقصدهما السائحون الأجانب فى شمال ويلز عندما طلبت منها ذلك . ثم غادرت القطار وجلست وحيداً فى الصالون وطفت وحيداً فى بلاكبول بعد ذلك.

وكان أروع ما فى بلاكبول برجاً حديدياً ضخماً تبدأ قاعدته فوق بناء ضخم كبير وتتسع هذه القاعدة اتساعا كبيراً من أسفل وتنتهى من أعلى بقمة مدببة شاهقة الارتفاع على نظام برج إيفل الفرنسى ، والمصاعد الكهربائية صاعدة هابطة بين القاعدة والقمة حاملة الزوار الذين يشهدون البحر والمدينة من ارتفاع يدانى ارتفاع السحاب . وفى الطابق الأرضى لذلك المبنى متحف جميل من متاحف الأسماك أعد ليكون كهفاً ضخماً كبيراً كأنما أخذ من جوف البحار أو من قمم الجبال والأسماك فى موطنها خلف واجهات من الزجاج . أسماك الملايو وبورما مخططة كالنمر أو الحمار الوحشى ، وأسماك

البحر الكاريبى والأمازون ذات سيقان طويلة كطائرة هيليكوبتر وأسماك شفافة من جيانا والبرازيل وكأن جلدها من الزجاج الشفاف تستطيع العين أن تخترقه . والأسماك الضخمة كالتماسيح تسير على زعانفها كما تسير الماشية على أرجلها تحمل على رأسها زعانف ملتوية كما يحمل الوعل قروناً متشابكة متداخلة . ويضم هذا الطابق الأسماك من جميع مياه العالم وقد وضعت الأسماك الدقيقة فى أحواض صغيرة دقيقة والأسماك الضخمة فى قاعات كبيرة ضخمة .

وفى الطابق الثانى حديقة حيوان كاملة من القنافذ إلى التماسيح والكراكى والنمور وعصافير الكناريا .

وفى الطابق الثالث جوقة موسيقية كاملة ومسرح أنيق وقاعة فخمة مذهبة ثم طابق للأنتيكات الدقيقة الصنع التى تمثل الحياة متحركة متعددة الصور يقوم بها شخوص من التماثيل الخشبية الدقيقة الصنع .

وتقوم كل صورة فى صندوق خشبى مستقل عندما نضغط على عجلته تتحرك هذه التماثيل وتقوم بأدوارها المرسومة لها تروح وتجىء وتشرب وتأكل وتلعب وتعمل ، تمثل لنا الحياة فى أطوارها المختلفة والأساطير حقيقة ماثلة والمعارك والحروب التاريخية كما استطاع الانسان أن يتخيلها .

وفى داخل هذه الصناديق التى لا حصر لها الحياة الانجليزية فى البيت والحقل والكنيسة والمدرسة . ثم الأساطير ومنها أسطورة سندريلا ومن الحروب غزو نابليون لميناء جنوا .

وفى الطابق الأخير ينظم الصعود لذلك البرج الضخم ، وبين كل هذه الطوابق تنتشر (الكافيهات) والأماكن الهادئة وحدائق السطح تقوم بالخدمة فيها عاملات أنيقات . ومع إحداهن وكان النهار أوشك أن ينتصف تقدمت لتقول من أى مدينة أنت ؟ فأجبت . ماذا تخمنين ؟ فأجابت بعد تفكير قليل لعلك من جمايكا .

قلت وهل يحضر عندكم أناس من جمايكا (وجمايكا مستعمرة انجليزية بالقرب من البحر الكاريبى وتتكلم اللغة الاسبانية) .

قالت — هل زرت حدائق الشتاء ؟ إنها مكان جميل يجب أن تراه. وهى هنا غير بعيدة من مكاننا الذى نحن فيه وتفتح أبوابها كل مساء . وأضافت وهى تبتسم نصف ابتسامة عذبة : وسأكون هناك هذا المساء .

وتذكرت ذلك الاسم الذى كتبته لى فتاة القطار فقلت : متى تفرغين من عملك ؟ أجابت : فى الرابعة . قلت : سأكون هناك فى السابعة وستكون لى زميلة تراقصنى فى حدائق الشتاء .

حدائق الشتاء . . لم أر أجمل من هذا الاسم ولا أشد انطباقاً

على ذلك المبنى الكبير المسقوف وبداخله حديقة يشيع فى جنباتها الدفء والجمال والأضواء ، متعددة الغرف والدهاليز والردهات ؛ فهنا مسرح وسينما ومرقص كبير تحيط به طوابق متعددة للنظارة . لا ينقصها شيء لتكون حديقة ولا ينقصها شيء لتكون مدينة داخل المدينة .

نجد فيها الجلسات الهادئة الحالمة التى يعشقها ذوى الأمزجة الهادئة الحالمة ، ونجد فيها الجلسات الصاخبة التى تفعم بالنشاط وتزخر بالحركة والانطلاق . ولراغبى المشى الطويل طرقات واسعة مسقوفة أنيقة مفروشة بالرخام الأبيض وعلى جانبيها الأزهار والورود .

فى شمال ويلز North of Wales

مدينة لانجلن أو لانجوثن كما تنطقها لغة الوالش التى تختلف عن الانجليزية تمام الاختلاف ، فهى أقرب ما تكون إلى لغة النرويج وهولنده منها إلى اللغة الانجليزية وهذه اللغة لا يعرفها غير الشيوخ والمسنين فهى بذلك فى طريق الانقراض .

ولانجوثن التى تبعد ٣٨ ميلا عن ليفربول يقطعها القطار فى ثلاث ساعات ، وكانت هذه أطول مسافة قطعتها فى قلب الأراضى

الزراعية والغابات فى صباح يوم صاف ، فأما الأراضى الزراعية كأنها بساط باهت ممزق تناثر فيه البقع ، والبقع هنا هى هـذه المساحات الشاسعة المجدبة غير أعشاب كليله صفراء .

أما الغابات فمنها ماهو فوق الروابى العالية المرتفعة ، ومنها ماهو فى واد سحيق ، وأروعها ما كان فى ذلك الوادى السحيق تتخلله قناة ضيقة لم تصل إلى أن تكون نهراً ، وعلى جانبى النهر وفى أطراف الوادى أشجار طوال متجاورة متماسكة . تتلاصق فروعها المنظمة كما يتلاصق العشب والقطار على جانبى ذلك المنحدر السحيق ، وعلى جانبى هذه الرؤوس الخضر الرجراجه يسير على حذر .

وكان على فى هذه الرحلة أن أستقل قطارات ثلاثة فى طريق الذهاب بدلا من قطار واحد مباشرة ومما يحيرنى بالرغم من ذلك هو سهولة السفر وسهولة قطع الأميال الطوال وسهولة الحياة نفسها فى هذه البلاد المتمدنة ، ففى كل صالون من صالونات القطار خريطة بسيطة للبلاد التى يمر بها القطار ، ويكفى أن ينظر المسافر إلى هـذه الخريطة ثم ينظر مرة أخرى إلى اللافتة المضيئة على هذه المحطة أو تلك ليعرف كم بقى له من محطات ، ولا يغادر القطار محطة إلى أخرى إلا إذا تلقى السائق إشارة خضراء من مصباح أخضر بالليل أو قطعة من القماش الأخضر بالنهار ، ويكون الحارس قد توثق

من غلق جميع الأبواب ، وهذا الحارس يصاحب القطار فى رحلته كلها ، ويقوم بعمله هذا فى كل محطة من المحطات ولا نجد له أثر فى صالونات القطار ، فيكفى أن يجتاز المسافر بوابة السفر ومعه تذكرته ولا يتعرض لأى تفتيش بعد ذلك .

وفى مدينة روك فيرى كان على أن أنتظر القطار الثانى الذى سيصل بعد ساعة كاملة أتيح لى خلالها أن أجوس خلال المدينة التى تشبه مدينة نيوبريتون متجولا فى طرقاتها الأنيقة النظيفة ومنفقاً مابقى من وقت فى كافيه يقدم لى أقداح الشاى الأبيض المر الذى يستسيغه الانجليز ، وأصبحنا نستسيغه كذلك بعد أن أكثرنا من شربه وكأنى بهم فى أزمات التموين الحادة خلال الحرب الماضية قد اضطروا إلى احتساء الشاى خالياً ، من غير سكر ، ثم تعودوا ذلك ولم يستطيعوا الرجوع عنه بعد أن وضعت الحرب أوزارها .

ارتقيت القطار الثانى إلى مدينة رووابن Rowabon ماراً على مدينة شستر التى رأيتها من قبل ، وفى مدينة رووابن شاهدت أول منجم من مناجم الفحم ، وقد كسى الغبار الأسود هذه المبانى التى تختلف اختلافاً تاماً عن مثيلاتها فى انجلترا كسى الفحم هذه المدينة رداءاً خاصاً ولوناً مميزاً فتغيرت الحياة والأشياء والمشاهد فكأن الأرض كتلة كبيرة من الفحم لفظها المنجم من جوفه ، ثم تناثرت

عليها الأشجار والأغصان والفروع ، واختلط اللونان الأصفر والاسود وامتزجا عليها . والعربات الصغيرة المحملة بالفحم ذاهبة جائية خلف الأكوام التى ترتفع كالتلال وتلتف كالسور حول المنجم .

ولا تخلو هذه المنطقة الصناعية من الغابات التى ترتفع أشجارها الضخمة فى السحاب شاهقة عارية من الأوراق والغصون . تسير خلالها العربات المحملة بالجذوع كما تسير الديدان بين الأشجار التى تتخيل أنها طويلة عالية فى مصر .

عاد بى القطار الثالث إلى مدينة لانجوثن ورأيت أول مارأيت نهراً لا يزيد عمقه عن قدم أو بعض قدم فى عدة نواح ، عريضاً كالبحيرة تتناثر فى وسطه الصخور والجنادل ، والماء يتحدر فوقها فى هدير وهرير ، وقد اختلطت ألوانه الثلاثة وامتزجت . فهو أبيض كاللبن ، وهو ينحدر من أعلى إلى أسفل وصاف لا لون له فى المناطق الساكنة الهادئة ، وأسود عند ما يقل عمق الماء فوق الصخور المتناثرة ، والطيور البيض بين هذه الألوان الثلاثة فى متسع كالمستنقع العريض يشطر المدينة شطرين ، وتصل بين الشاطئين قنطرة عريضة تحمل الناس ، ويتجمع الماء من فتحاتها الثلاث ليهدأ بعد ذلك ويستقر فى مجرى هادىء سليم .

ويميز المدينة ذلك الصوت الموسيقى الذى يحدثه هدير الماء ويسمع على بعد فى أى مكان من المدينة التى تحوطها الجبال العالية وقد لمست السماء . فكأن هذه الرؤوس الجبلية قد ارتفعت حتى مست السماء أو أن السماء قد هبطت حتى مست هذه الرؤوس وجثم الضباب على أنفاس المدينة كالخيمة البيضاء . وتعاون الضباب والجبال ليعنف البرد القارس بالمدينة فتقفر الطرقات من المارة ويخيم على المدينة هدوء شاحب وبرود عميق .

اخترت أول كافيه صادفنى وأخذت مقعدى بجوار النافذة أرقب الطريق خلف زجاجها المغلق وجلس بجوار المدفأة عجوز صامت حتى دخلت الكافيه غادة هيفاء فى بنطلون أنيق وأخذت مقعدها بجوار الشيخ الذى سرعان ما نشط للحديث . ثم تنبهت على قولها لماذا لا تدنو من المدفأة ، فنهضت وأخذت مكانى كما أرادت وأخذت معها فى حديث وكأن الشيخ لم يرتح له فغادرنا مودعا .

وخلت القاعة بعد أن ازدحمت بالرواد والطاعمين وأخذنا فى حديث طويل مستعينين بأقداح الشاى المرة ولفائف التدخين والشطائر الخفيفة ففى فالغرفة خير من الخارج ، ففيها الدف ، والابتسام العذب والمرح الجميل الذى ينطلق على طبيعته الصادرة من أعماق القلوب .

ورأيتنى بعد ذلك مدعواً إلى منزلها لتقدمنى إلى بعض قريباتها

ولأول مرة دخلت منزلا ريفياً تبدأ غرفة بغرفه الطعام تتوسطها مائدة كبيرة ويتصدر الغرفة مقاعد وثيرة بجوار الموقد وجهاز التلفزيون . وقدمتنى إلى سيدة كبيرة مسنة ووقفت ربة البيت تقلب الفحم فى المدفأة وراحت صاحبتنا واسمها آن تجهز أقداح الشاى .

وكان أن عدنا إلى السينما بعد أن دار حديث عادى لا غناء فيه . وكانت بجوارى انجليزية فاتنة فرحة مرحة لا تشبه الانجليزيات فى العزلة وحب الانطواء. وعندما قلت لها ذلك ، عادت تروى لى النكتة التالية :

تجمع عدد كبير من الجنود من جنسيات مختلفة فى قطار تائه وكان ذلك فى وقت الحرب العظمى الماضية ، حتى رسا بهم على مدينة ما وقيل لهم ليقم كل منكم بأى عمل كان حتى تضع الحرب أوزارها . وتقدم كل ليؤدى العمل الذى يتقنه ، فعمد الألمان إلى تشكيل الطوابير الحربية من شباب المدينة والإسبان إلى تشييد المبانى والطليان إلى الفنون الجميلة والامريكيين إلى تمويل كل هذه المشروعات بالمال . بينما انطوى الانجليز على أنفسهم وعندما سئلوا عن ذلك كانت إجابتهم We are not yet introduced أى أننا لم نقدم بعد .

وكانت آن جميلة كأروع ما تكون الانجليزية جميلة عملاقة الجسم

تشبه فتيات النرويج رشيقة فى مثل رشاقة راكبات الخيل وان كان عملها التمريض وليس ركوب الخيل . فهى أقرب إلى فتيات الشمال منها إلى الانجليزية فى طباعها الباردة .

وقد عرضت علىّ أن نلتقى فى مدينة شستر وهى تقع فى منتصف الطريق بين سفينتى فى ليفربول وقريتها البعيدة فى شمال ويلز .

وتذكرت أن هذا العرض قد عرض علىّ قبل ذلك ، وتذكرت فرانسيس التى تسكن فى مدينة من مدن هذه المنطقة لا أتذكر اسمها .

عرضت علىّ هذه كما عرضت تلك أن نلتقى فى شستر ولكنى تجاهلت الاجابة بنعم أو لا ، وأجبت سألتقى بك فى هذا المكان إذا عادت الباخرة مرة أخرى إلى ليفربول أو أراك فى أى مدينة أخرى تنتقلين اليها بحكم عملك .

وهكذا اخترت أن تظل هذه الصداقة الجديدة سليمة . من يدرى ماذا يخبىء لى الغد أو ماذا تخبىء لى الرحلة . خير لهذه الصداقة أن تظل بعيدة عما يشينها ، وقد ألتقى بها فى شستر مدينه لا يعرفنى ولا يعرفها فيها أحد . وسيحدث لا بد شىء أو أشياء وسيؤثر هذا الشىء أو هذه الأشياء على هذه الصداقة فيذهب بها بعد أن يذهب بأثرها النظيف الذى أريد له البقاء وطول العمر .

انتهى الفيلم الانجليزى وانتهت هذه اللحظات كما ينتهى كل شىء وكل شىء إلى انتهاء ثم كان الوداع وكانت آخر كلماتى سأذكرك يا آن .

وست كربى WEST KERBY

هذه هى المدينة السادسة التى أختم بها هذه السياحة القصيرة والتى تشبه مدينة نيوبريتون ويفصل المدينتين عن ليفربول نهر ميرزى وتطل كلاهما على مياه بحر ارلندا ويصلهما بليفربول نفق تحت قاع النهر أو باخرة صغيرة تربط هذه الشواطىء بعضها ببعض.

ومن نفس المحطة التى ذهبت منها إلى شستر وشمال ويلز انتظرت القطار الذاهب إلى وست كيربى، ومن النظم البديعة لافته مضيئة تحمل أسماء بلاد عدة وأمام كل بلدة رقم ما فاذا كانت وست كيربى وأمامها رقم ٣ فمعنى ذلك أن ثالث قطار يمر هنا هو الذى يتجه إلى هذه المدينة فاذا مر قطار ما يتغير هذا الرقم إلى ٢ ثم إلى ١ من تلقاء نفسه.

وفى مدينة وست كيربى أتيح لى أن أشهد رواية مسرحية ويشاء الحظ العاثر أن تكون هذه الرواية قد شهدتها من قبل فى مدينة سوثبورت والقصة تدور حول بؤس الفنان الزوج الذى تورطه زوجه فى أعمال المطبخ ويورطه صديقه فى بيع لوحاته بثمن بخس وهى نادرة الثمن ثم ينتهى به التوريط إلى أن يتنكر من

المشترى الأول فى زى امرأة فلا تعرفه زوجه عندما ينسى نفسه فى هذا الزى ويصعد إلى مخدعها حيث تكون أسرع منه إلى الاستنجاد بالبوليس .

قصة فكاهية تعرض لوناً من ألوان الحياة ، وتعرض بجانب ذلك كيف ينمو الحب بين الفتى والفتاة وتكتمل شخصية كلا منهما بسبب ذلك الساحر العجيب ، الحب ، الذى يتم تحت سمع الناس وأبصارهم لاليتستر عليه ، ولا يجاهد فى إخفائه ، ولا يستخذى منه أحد . تعرض كل ذلك فى قصة بسيطة سليمة تؤدى على المسرح بالبساطة نفسها التى تؤدى بها فى الحياة . ولم أر كالمسرح لسان صدق فى رسم صورة المجتمع الذى يعاصره ، وعادات الناس وتقاليدهم وطباعهم . فنرى من لون الفكاهة الراقية العذبة مدى مايتمتعون به من عاطفة وذوق ، ومن هذه الصورة المرحة على خشبة المسرح نستطيع أن نفهم شيئاً عن الحياة الحقيقية لهؤلاء الناس فى عقر دورهم.

وإذا علمنا أن لكل قرية أومدينة صغيرة مسرح مثل هذا لايقل فخامة عن دار الأوبرا المصرية ، وجمهوره المزدحم هنا فى بطن الريف فى مثل نظافة ذلك الجمهور القليل من رواد مسرح القاهرة .

عدت بعد ذلك إلى ليفربول أعجب للفرق الشاسع بين حياة الإنجليز فى المدن الصناعية الكبيرة التى نسمع فيها كل اللغات ،

ونرى فيها كل الوجوه من بيض وصفر وسود ، وفى طرقاتها كل ما يخطر بالبال من أزياء العالم القديم والحديث .

فنى مدينة مثل ليفربول حياً كاملا يسكنه الصينيون ، وحياً كاملا يسكنه الهنود وينتشر بين ذلك الزنوج واليمنيين من عدن ، ويلبس كل من هؤلاء الزى الوطنى الذى يحرص عليه ولا يظهر إلا به ، وأغلب ذلك الزى ظهوراً السارى للمرأة الهندية والعمامة المنتفخة التى تشبه عمائم الدراويش لبعض الرجال الهنود .

وليس كل هؤلاء زائرون ثم راحلون بعد ذلك . بل كلهم أو معظمهم مقيمون دائمون يخلعون على المدينة طابعاً غريباً متناقضاً مثيراً لا أثر فيه للانسجام الذى يسود الجماعة الواحدة ، والفئة الواحدة فى القرى والمدن الصغيرة .

وبعد ذلك فالحياة فى ليفربول حياة عابثة ولعل أصدق وصف لتصويرها هو ما حدث مع ادنا Edna . وقد كانت تنتظر صديقاً كما كنت أنتظر صديقة ، وقد تأخر عنها صديقها كما تأخرت عنى صديقتى ، وليست الصداقة فى ليفربول ذات كيان ثابت بل هى مجنونة تنمو كأسرع ما يكون النمو وتزول كأسرع ما يكون الزوال غير تاركة أثراً ما .

كانت تقف قلقة ومعها زميلة لها كما كنت قلقاً ومعى زميل لى ،

وليس قلقى على هذه الصديقة التى لم تحضر ، وإنما قلقى ذلك أن أحصل على أى صديقة قبل أن يتقدم الليل ، وكان أن رسم الشيطان فى ذهنى الصورة واضحة لا ينقصها إلا أن تكون لى غرفة خاصة فى ليفربول أجهزها بما يلزمها من طعام وشراب ووقود لأنفق فى هذا المسكن المستقل ساعات الصباح الأولى من كل ليلة - والأيام التى ننقطع فيها عن العمل ، وهذه الأمسيات الجميلة إذا اقتصرناها على فتاة واحدة ، والقانون أو العرف الذى اصطلح الناس عليه هنا لا يسمح إلا بفتاة واحدة ، ولكننا لم نكن نعثر على فتاة واحدة بل بفتيات كثيرات أنفق ليلة مع هذه الفتاة أو تلك لا أدرى سأراها إذا كان الغد ، أم سأرى وجه آخر جديد ؟ .

وكانت إدنا هى ذلك الوجه الجديد ، وقد اعتذرت بادىء الأمر بأنها تنتظر صديق ، فأخرجت من جيبى بنساً وقلت هل تقبلين هذا الرهان بينى وبين صديقك ، فوافقت على ذلك وعمدت إلى الرهان أريد أن أخدع فيه ولكنى لم أفلح ، فقد جاء الرهان يؤيد حق صاحبها فيها . ولكنها صحبتنى رغماً عن ذلك ، وأخذت صورتى مكانها بين صور أصدقائها ، ولا أقول عشاقها الكثيرين ، ورأيت فيها صورة صديقها اليونانى الذى كانت تنتظره . على هذه الصورة كانت الصداقة تنمو وبمثل هذه الصورة كانت الصداقة تزول ، وعلى هذا النحو كنا نمضى لياليا فى ليفربول .

ولعل أعجب ما كانت تخبؤه هذه الرحلة أن تقف الباخرة على ميناء جنوا قبل أن ترسو على الاسكندرية ونكون بذلك قد ختمنا الرحلة بهذه المدينة كما بدأناها بها ، ولعلك تنتظر منى أن أحدث بشيء عن سيلفانا وعن حبي لهـــذه ألتريستينية الجميلة الشقراء ، ولكن لن أحدث بشيء عن هـذا الحب لسبب واحد بسيط وهو أن هذا الحب قد مات .

لا انني أخدع نفسى الحق أنى أردت له أن يموت ، وما زلت أريد له ذلك ، ولكن هل سيموت بمجرد أن أريد أنا ذلك .

جواب ذلك عند الزمن ، ذلك البلسم العجيب والطبيب الساحر الماهر الذى يرقأ الدموع ويمس الجراح برحمته ويفعل الأعاجيب وأنا فى الانتظار .

الرحلة التاسعة

قرطاجنّة

لقد أصبحت كالجمرة التى ألقيت فى المـاء إلقاءً ـ فهل تصبح الجمرة جمرة بعد ذلك أم تتحول إلى شىء خامد هامد تختلف عن الجمر الملتهب تمام الاختلاف ، وإذا تركت الجمرة لتكون جمرة فهل ستكون خالدة وهى تحرق نفسها بنفسها إذا لم تحرق الآخرين ، تتوهج ثم تنطفى ثم تصبح رماداً ، وهل سيكون ذلك الشىء الهامد الخامد خالداً ، كلاهما إلى انتهاء إلا أن هـذه أحرقت وتوهجت وتلاشت أما تلك فلم تحرق ولم تتوهج ، وإن كانت تلاشت أيضاً وما لى أطيل الحديث عن الجمرة التى أطفأها المـاء إلا أننى أريد أن أقول إننى هذه الجمرة نفسها ، وليس الماء هنا هو هذا البحر العريض العميق الذى نسير فيه ، وإنما العكس فإن ذلك البحر يزيدهذه الجمرة حرارة ولهباً واشتعالا . أما ذلك الماء فهو الشاطى ـ شاطىء أى بلد كان . ذلك الشاطىء الذى يفجئنى كما تفجأ الماءالجمرات . وما بالك لو كان ذلك الشاطىء شاطىء اسبانيا التى تعيش للذة واللهو والاستمتاع

بالحياة . وهذه قرطاجنة أو كرتاخينه كما ينطقها الاسبان قادمين إليها من فالنسيا . والحياة فى هذه المدينة أو تلك حياة اسبانية متشابهة تعيش للذة تقدمها وتفتن فى تقديمها ، وإذا بنا نشبع منها بأسرع مما نتصور بعد أن كنا نتضور جوعا . وما أسهل أن يشبع المرء من شىء مباح لا يلح فى طلبه ولا يجهد نفسه فى الحصول عليه . وكيف نلح ونجتهد فى طلب شىء سهل المتناول يحاصرنا ويلح علينا ويدعونا بدلا من أن نحاصره ونلح عليه وندعوه .

لا غرابة فى أن نزهد فى ذلك الشىء ونمل منه وننصرف عنه ولا غرابة فى أن تطفأ الجمرات وتخمد مهما كانت ضراوتها وشدتها فى الوهج والفتك .

لم تكن نفسى مهيأة للعاطفة ، وما أكثر ما كانت نفسى مهيأة للعاطفة من قبل ، وما أكثر ما كان يؤثر فىّ ذلك القصص السخيف قصص الوفاء والحب العذرى الذى كان يبكينى من قبل ولكنه اليوم لن يبلغ من نفسى الجامدة شيئاً . إننى أبحث عن نفسى الشاعرة فلا أجدها ، وإنما نفسى الماجنة هى التى تبحث عنى وتأخذ علىّ كل سبيل . ونفسى الماجنة مهيأة اليوم للذة ، اللذة الحسية ، فليكن كما تريد . وهى لا تريد إلا أن أغرق إلى أذنى فى هذا البحر الذى لا يفنى حتى إذا كان ذلك صرت كهذه الجمرة التى صورتها آنفاً .

ماذا أريد أن أكون ؟ هل أكون كما كان جميل بن معمر ؟ أم أكون كما كان عمر بن أبى ربيعة ؟ لست أريد أن أكون شاعراً كما كانا وإنما أعنى أن أسير فى الحياة كما سارا وأختار الطريق التى اختارها هذا أو ذاك . لقد كنت كما كان جميل فى يوم مضى وجر علىّ ذلك ما جر من قلق وعذاب وتعب . لقد كنت كما كان جميل ليس مرة واحدة بل مرات ثلاث — أعنى ثلاث فتيات ، كنت فى كل منهن صادقا غير متكلف الصدق محباً غير متكلف الحب والغرام . وكانت كلا منهن إما أن لا تشعر بهذا الحب ولا تحس بما أحمل لها من عاطفة وما يصطرع فى صدرى من عذاب — وإما أن تحس ذلك ولكن لا تبادلنى به وتقف دونى شامتة أو كالشامتة — وإما أن تحس ذلك وتبادلنى به ولكن ليس بالمقدار الذى يرضينى وليس يرضينى القليل.

واليوم سأكون كما كان عمر بن أبى ربيعة ، سأختار لنفسى ذلك الرأى فى المرأة الذى اختاره عمر — والنظرة التى كان ينظر إليها بها — ولست مبالغاً إذا قلت إن هذه النظرة نفسها وذلك الرأى نفسه تحبهما المرأة أصدق الحب لأنهما جزء من طبيعة الأنثى مهما كان لونها . ولست مبالغاً إذا قلت إن نساء كثيرات يضقن بهؤلاء العذريون الذين يخلعون عليهن صفات الملائكة . وليست كل امرأة ملاكا ، بل ليست المرأة ملاكا . وإذا وجدت امرأة عميقة العاطفة مثالية النزعة رقيقة الحس والشعور والتفكير فستكون بجانب ذلك

أنثى لها ما للنساء من هذه النزعات الغامضة العميقة القوية الملحة التى تزهيها أن تؤثر فى الرجل بفتنتها وجسدها ، كما تؤثر فيه بجانبها المعنوى . قد تكون شعلة ملتهبة من الحس والشعور والعاطفة ، وستكون بجانب ذلك شعلة ملتهبة من اللذة والرغبة والفتك .

هذه حالى اليوم ولعلها كانت حال ابن أبى ربيعة فى يوم مضى إذا كان هذا قد فعل كل ما قال ، وإذا لم يكن الشعراء يقولون ما لا يفعلون . هذه حالى اليوم وقد تنتهى بى إلى الزهد كما انتهت بها إليه — قد يكون ذلك ثم يكون زهداً متشائماً طويلا لا حد لتشاؤمه ولا نهاية لطوله .. وكل ما استطعت عمله الآن أن أجنب نفسى الخمر أو أجنب الخمر نفسى ولعلى أثِرا فى ذلك أريد أن أحصل على اللذة وعلى أكبر مقدار من اللذة وأنا واع غير سكران . فكما أننى أحصل على مقدار ما كتب لى من شقاء وعذاب ومحنة وجهد وأنا فى أتم حالات الوعى واليقظة فلأشعر باللذة كذلك وأنا فى أتم حالات الوعى واليقظة . فنحن لا نرى إلا فى حالين : إما أن تضرب الباخرة فى أعماق المحيط أو أن ترسو على شاطىء ما ، وعلى ذلك الشاطىء حياة كلها إثم وفى البحر حياة أقل ما توصف به أنها كفارة عن ذلك الإثم .

فحياتنا فى البحر إثم واحد طويل متصل ، يبدأ عندما ترسى الباخرة مرساها الثقيل على الشاطىء السعيد ، ولا ينتهى إلا فى يوم

الرحيل ، حيث نجد فى عبث الأمواج والأنواء كفارة عن ذلك الإثم . ونحن بين هذين الإثم والكفارة عن الإثم ننفق أيامنا فى عذاب متصل وجحيم مقيم .

والعجيب أن هذه اللذة فى الإثم وهذا الألم فى الكفارة عن الإثم غير منفصلين انفصالا تاماً . فهما وإن كانا منفصلين فى بعض الأحيان فانهما ليمتزجان امتزاجا تاماً فى كثير من الأحيان . فكثيراً ما أشعر بالألم وأنا مع اسبانية ، فتاة أعرف اسمها أو لا أعرفه .. كثيراً ما أشعر بالألم فى هذه اللحظات التى كان ينتظر أن تخلو من الألم . كثيراً ما أشعر بالألم لذلك الجمال المباح أو الألم لهذه النفس الماجنة — نفسى طبعاً — التى تريد فلا أستطيع أن أقف بينها وبين ما تريد . تنطلق ولا أستطيع منعها من أن تنطلق .

هذه هى اللذة التى لا تخلو من الألم ، والألم الذى أشعر به واعياً — فليس بينى وبين الخمر سبب حتى الآن ولا أريد أن يمتد بينى وبينها سبب فيما يجد من أيام — وما زلت أكتفى بأقداح القهوة التركية أو الفرنسية مع أكواب الماء القراح تاركاً لصاحبتى أقداح النبيذ أو الزبيب مشفوعة بأقداح الصودا . وقد أتغزل يوماً ما فى جمال هذه القهوة التركية أو الفرنسية كما تغزل أبو نواس فى الخمر . ولعل هذه القهوة هى التى تزيد فى انتباهى بدلا من أن تزيد فى ذهولى فأشعر بالألم فى ساعة من ساعات الصفو كان ينتظر أن تخلو من الألم .

وعكس ذلك يحدث عند ما تنتقم منا الأعاصير والأنواء . الأعاصير التى تعبث بنا وبسفينتنا ، وحصوات الثلج التى تحصبنا وترتطم بالأبواب المغلقة كما يرتطم الرصاص المنهمر فى معركة تسفك فيها الدماء . فى وسط هذه الأمواج كثيراً ما نشعر باللذة ، اللذة ما نجتاز امتحاناً عسيراً كان لا بد أن يجتاز ، واللذة عند ما نقتل الساعات بدلا من أن تقتلنا الساعات فى امتحان بطىء طويل يضاعف العذاب من بطئه وطوله .

وسأرسم صورتى على قدر الإمكان فى وقت من أوقات الكفارة عن الاثم هل رأيت وجهاً ضامراً معروفا . إختلطت شعرات رأسه وذقنه وشاربيه ونمت كما يريد البحر لها أن تنمو . وتهدلت على جسده الضامر بدلته السوداء التى يرتديها فى وقت العمل يتكلم همساً عند ما يحسن الارتفاع بالصوت . ويتكلم بالاشارة عند ما يحسن الهمس تعبث به الصفراء والسوداء عبثاً شديداً ، والأولى يعرفها أصدقاء البحر . أما الثانية فيشترك فى معرفتها الجميع . والصفراء هى ذلك السائل الأصفر المر يشبه الصدأ . والذى يجعل الطعام لا يثبت فى جوفنا لحظات ـ ويرحمنا من الصفراء والسوداء الصيام الطويل المتصل عن الطعام . ولكن أين نحن من الصيام والباخرة يراد لها أن تسير ولكى نعمل على أن تسير يجب أن نعرف نحن كيف نسير!

أين الصيام الذى يفتك بهذين العدوين الداخلين مع ما نقوم من

جهد مرهق تقيل . وقد استطعت أن أكسر حدة الصفراء بعدعامين في وسط الأمواج كما كسرت حدة السوداء في البلاد الكثيرة التي مررت بها ليس في ذلك شك . ولكن ليس هناك شك كذلك في أنه ما زالت بعض آثارهما تطيف بي وتزور كلما حلا لها أن تطيف وتزور .

والحق أننا في البر نكسر حدة السوداء حيث نملك ذلك الشيء أو يملكنا ذلك الشيء الذي يكسر حدتها . حتى إذا خيل إلينا أن هذه الجذوة قد خمدت تعود في وسط الأمواج لتثبت لنا أننا كنا واهمين .

ومثل ذلك عن الصفراء أو عكس ذلك عن الصفراء . فهي تنمو في البر كما يحلو لها أن تنمو حتى إذا استقبلتنا الأنواء راحت تعبث بنا نصرعها حيناً وتصرعنا في غالب الأحيان .

ولطف الله بنا أن لا تجتمع السوداء والصفراء ونحن في وسط الأعاصير حتى لتصبح حياتنا بين هذين اللونين سوداء صفراء .

وقد أنسيت الحديث عن قرطاجنة وهي التي جعلتها عنواناً لهذا الحديث . ولعل فيها كان يتغنى ابن زيدون . ويتعذب مع صاحبته ولاّدة . ولكني لم تكن لي صاحبه هناك . وإنما لي صاحبات كثيرات أحبهن كما ينبغي أن يكون الحب حتى إذا أقلعت الباخرة

قطعت ما بينى وبينهن من أسباب ونسيتهن كما ينبغى أن يكون النسيان.

وقرطاجنة مدينة محصورة بين جبلين أو بين جبل واحد متصل يقف دونها ويحيط بها من كل جانب حتى يحجبها عن الأنظار فتختفى خلف الجبال لا يبين منها شىء ولا يظهر منها ما يدل على وجود مدينة ما . ولعل هـذا ما جعلها مدينة القرصان فى العصور الوسطى والذى جعلها تزعج البحار عدة قرون فنحن نمر عليها فى طريق العودة وفى ضوء النهار فلا نراها . أما بالليل فكانت تدل عليها وتنبىء بوجودها شعلة ملتهبة محترقة تصدر من معامل البترول تنعكس من خلف الجبال فتصطبغ السماء كلها بلون الورد يخلع على المدينـة سحراً رائعاً حالماً . ولعلها الوحيدة فى المدن الاسبانية المنفردة بذلك الاستتار الطبيعى . ولعل هـــذا ما جعل البحرية الاسبانية تتخذ منهـا ترسانه ومرفأ لأساطيلها كما كان يتخذها القرصان مكاناً حصيناً لمغامراتهم الراعبة .

ومن أروع الآثار فى هذه المدينة التى أثرت وتأثرت بالرومان والعرب . وعادت بعد ذلك كما عادت غيرها من المدن الاسبانية ذات طابع فريد لم يخلص لأن يكون رومانياً أو عربياً .

من أروع الآثار فى هذه المدينة كنيسة كانت مسجداً قبل عدة قرون . كنيسة تعرف باسم ملوك توليدو . ولعلها طليطلة كما نعرفها فهى لا يميزها عن مساجد المسلمين غير ما نرى من مسوح

الرهبان واختلاط الرجال بالنساء ، وما أضيف على البناء العربى من تماثيل ورسوم .

وسأترك إسبانيا وقد استقبلنا خليج بسكاى فى طريقنا إلى ميناء هامبورج الألمانى والباخرة تتقدم ويكاد الموج أن يقفها فى مكانها فكانت قوة السفينة تريد أن تدفعها إلى الأمام وقوة الموج تريد أن تردها إلى الخلف . وكأن هاتين القوتين قد تعادلتا فوقفت السفينة فى مكانها بينما آلاتها دائرة تصارع الموج الذى تزيد قوته عن قوتها فى بعض الأحيان فيردها رداً عنيفاً إلى الخلف . قطعنا ذلك الخليج فى أربعة أيام وكان لا يقطع من قبل فى غير يوم وبعض يوم وما كنا إلا لنبتعد عن غايتنا بدلا من أن نقترب منها وعدد الساعات التى أمامنا يزيد بدلا من أن ينقص ويثبت بغير زيادة ولا نقصان فى الأحوال التى نحسد عليها . ونحن يخيل إلينا أننا نسير ما دامت الآلة تزأر وتهدر وهكذا يمر الزمن ونحن خارج مدار الزمن وتمر الساعات ونحن خارج نطاق الساعات حتى فقدنا ماقفدنا من أيام . وهكذا تكون الكفارة عن الاثم . فقد كنا نسير على ظهر الباخرة مهطعى رءوسنا وقد انحنى أعلانا على أسفلنا حذر الموج العالى الذى لا ندرى أهو الذى يجذبنا إليه أم نحن الذين ننجذب إليه فما هى إلا أن يغوص من السفينة أحد الجانبين حتى نجد أرجلنا تسوقنا إلى الجانب المنحدر حيث الحاجز القليل الارتفاع فلا ينجينا من ذلك

الطوفان المسلط ، والريح التى تصفر فى الآذان حتى ليكاد يصيبنا الصمم. لا ينجينا من ذلك إلا أن ينحنى أعلانا على أسفلنا حتى تنخفض رءوسنا أثناء السير أو الجرى ولا تعلو عن ذلك الحاجز بأى حال بمثل هذه الطريقة كنا نسير على ظهر الباخرة نخطف الطريق خطفاً بين الأمواج التى تريد أن تخطفنا من يمين وشمال . ومثل ذلك الحال عند ما نسير فى جوف السفينة فكأنما ننحدر من علٍ حتى لنكاد ننكفىء على وجوهنا عند ما يغوص مقدم السفينة فى الماء ثم نجد أنفسنا نسير مصعدين كأنما نرقى سفح جبل أو تل عند ما يرتفع مقدمها فى السماء ، وإذا علمت أن مقدم السفينة هذا يغوص فى الماء ويرتفع فى السماء بأسرع مما نأخذ أنفاسنا ، وإذا علمت أن هذه هى أخف أنواع الموج وأبسطها ، وأصعب منها أن يميل أحد جانبى السفينة حتى يكاد يجرف من الماء ثم يرتفع ليغوص جانبها الآخر مع أن ارتفاع الجانبين يزيد على عدة أمتار ، وأصعب من هذه وتلك موجة يسمونها المدفونة ، وهى منخفضة قليلة الارتفاع ولكنها تدور بسفينتنا كما تدور الرحى فكأنها فقدت محورها ، أو أصابها الدوار ومن ثم تكون إصابتنا أسرع ما تكون إلى الدوار وكيف إذا اجتمعت هذه الأنواع الثلاثة ، وكان ذلك ما حدث فى خليج بسكاى ، فكانت الباخرة تميل على جانبها الأيمن كما يميل الأعرج . ولا تكاد تهم بالارتفاع حتى يغوص مقدمها ويجرف ماشاء

أن يجرف من الماء ، وهى بين هذين تسير فى حركة رحويه فكأنما أصابها الدوار أو الثمل . كما أصاب رءوسنا الدوار والثمل . وتصفر الريح كأنها تريد منا أن نطير فى السماء بدلا من أن نسير على الأرض إذا كانت هذه أرض ، وتنهمر حصوات الثلج كما ينهمر الرصاص حتى يترك فى سطح الزجاج الصفيق الغير قابل للكسر آثاراً كوخز الإبر ، وهذه سفينة بعيدة ترقص كما أن سفينتنا ترقص وهى فى وسط ذلك الظلام المتراكب لا يبين منها غير نقطة كالنجم تعلو حتى نخالها نجماً من نجوم السماء فنحن لا نفرق بين النجوم والبواخر فإن النجوم ذاتها ترقص فى السماء ما دامت سفينتنا ترقص فى الماء فليس حالنا بخير من حال هـــذه السفينة البعيدة المنكوبة ، ولعل ركاب هذه السفينة وملاحوها يرون فى سفينتنا ما نرى فى سفينتهم ذلك النجم الصاعد الهابط يرقص بين السماء والمـاء .

وسأترك هذا العذاب على ظهر السفينة وأشرك نفسى مع هؤلاء السمار فى أحد صالونات الباخرة ، وكان أحدهم يروى قصة غرق الباخرة زمزم التى أعطبها الألمـان فى المحيط الأطلسى فى الحرب العالمية المـاضية . وقصة الأسر الطويل مدة خمس سنوات فى جوف المعسكرات للذين اختاروا أن يحيوا هذه الحياة الفارغة السهلة تحميهم السلطات .

والحياة الأخـــرى الشاقة المجهدة للذى اختار أن يعيش بين

الطلقاء من الألمان يعمل كما يعملون ويلهو كما يلهون ويخاف ويفزع كما يخافون ويفزعون ، وإن كانت حياة هؤلاء وأولئك ، هؤلاء الذين آثروا حماية السلطات وعاشوا فى كنفها ، وقد ضمن لهم الأسر شيئاً من الأمن والراحة ، وأولئك الذين آثروا أن يعيشوا مع الألمان فى المصانع يكدحون لأنفسهم يتعطلون حيناً ويعملون حيناً آخر حياة قوامها الاعتماد على أنفسهم غرباء ، فى بلد يضيق العيش فيه بأهله أثناء الحرب .

حياة هؤلاء وأولئك الطلقاء والأسرى ، كانت لا تخلو من الفزع والخوف وما تحمله الطائرات فى جوفها من عذاب مسلط ونقمة مروعة يطمئنون يوماً ويفزعون فى أكثر الأيام ، ولكنها تركت فيهم أثراً واحداً باقياً وهو حبهم للألمان وتأثرهم بهم برغم ما سببوا لهم من ألم وما نال سفينتهم على أيديهم من اعتداء ، فكأنما السنوات الخمس كانت كافية لتنسيهم ذلك الألم وتنسيهم ذلك الاعتداء كما أنستهم عقوق أهليهم وتهاونهم فى العمل على تخليصهم أو حث المسئولين على تخليصهم من الأسر قبل أن تباد مصر ألمانيا بإعلان الحرب .

كأنما أنستهم هذه السنوات الخمس عدوان المعتدى ، وإهمال الصديق والأهل ، وأبدلتهم الميل لذلك المعتدى والعطف والاشفاق والحسرات للصديق والأهل تساوى الجميع فى حبهم الشديد لألمانيا

وعطفهم الذى لايحد للألمانيين . حتى اقتحم الحلفاء برلين وفتحت المعتقلات أمام الأسرى ، وفتحت أبواب العودة أمام الغرباء والطلقاء ، ومنهم من آثر الرجوع إلى وطنه ، وبعضهم هؤلاء الذين يديرون هـــذا الحديث ، ومنهم من آثر البقاء . كانت الباخرة قبل دخولها هامبورج بعدة ساعات تشق طريقها فى بحر متجمد من الثلج كأنما هى عربة تسير فى اليابسة تشق الصخور بمقدمها المدبب ، ثم ينساب باقى جسدها العائم العريض ، وتتحطم على جوانبها صحائف الثلج المبسوطة كما تتحطم الصخور ، وينطلق منها أزيز وقرقعة وأنين .

وننظر إلى ذلك النهر التى كانت تتركه الباخرة فى المـاء كما تترك القوافل بعض آثارها فى الرمال . ننظر إلى ذلك النهر فإذا به فعلا كالرمال أو الطريق المطروقة . فلا تكاد تمر لحظات حتى ينطبق شاطئيه ويركب بعضهما بعضاً فإذا به قطع عائمة متماسكة من الجليد الأبيض ، وإذا الفضاء كله هـذا الجليد الأبيض التى كمل تجمده ، والجليد فى لون الزجاج التى لم يكمل تجمده بعد ، وبين هذين اللونين من الشقوق التى التثمت والشقوق التى كادت تلتئم وأشعة الشمس الضعيفة النامية تبرز من خلف الغمام فلا تبلغ من هذه المياه المتجمدة شيئاً إلا أن تبعث فيها شيئاً من الأضواء تنعكس فى لون الطمى بين هذه الشقوق البيض فتخلع على الجليد المتكسر صورة اليابسة .

كانت أول زيارة للباخرة منذ إنشاءها إلى ألمانيا ـ وكلنا فرح ، وكلنا مسرور ، وكلنا سيقابل صديق أو صديقة فى هذه المدينة أو تلك من مدن ألمانيا . فمنا بعض هؤلاء الأسرى ، أو الذين كانوا أسرى يرون ألمانيا لأول مرة بعد أن وضعت الحرب أوزارها .

وكلهم مشوق لرؤية صديقه الألمانى أو المصرى الذى آثر البقاء فى ألمانيا وأنا أيضاً مشوق إلى رؤية صديقة ألمانية ، ولعل تعجب من ذلك فأنا لم أكن أسيراً أو طليقاً كما كان بحارة الباخرة زمزم، وإنما هى صديقة ألمانية كانت تراسلنى يغير أن أرى لها وجهاً أو أميز لها سحنه أو أعرف لها صوتاً . كانت تراسلنى طيلة سنوات أربع بدأت وقت أن كنت فى أول عملى بشركة السماد ، وما زالت حتى الآن لم تنتهى بعد وكانت خطاباتها تصلنى فى السويس والقاهرة والاسكندرية قبل أن أختار حياة البحر، ثم كانت تصلنى فى الموانى الخارجية التى أرسو عليها وأكثرها ليفربول بعد أن اخترت حياة البحر . كانت خطاباتنا مثالية النزعة صوفية فى بعض الأحيان لاتخلو من الدعابة والفكاهة والعبث فى كثير من الأحيان حتى تولد بين قلبينا شيئاً أكثر من أن يكون صداقة ، وأقل من أن يكون حباً . فلست أريد أن أكون مثل بشار أحب قبل أن أرى شخص من أحب ، وقد يكون شاعرنا قد سمع صوت صاحبته وميز نبراتها . أما أنا فلم أسمع صوت صاحبتى وكنت فى قراءة كلماتها أسمع نبرات

صوتى أنا لانبرات صوتها هى . وليت الكلمات تستطيع أن تنقل إلينا كما ينقل الأثير نبرات الصـــوت بجانب ما تنقل من صور القلب والعقل والعاطفة .

هامبورج

كان أقسى ما يحدث فى إسبانيا عند ما ألج داراً من دور الرقيق وتقبل على عجوز شمطاء ، أو قهرمانه كما تسميها كتب ألف ليله ، تقوم بالاشراف على ذلك الجمال المباح ، فأطلب منها أن تحضر لى فتاة ، وقد تسألنى هل تريدها بدنية أم نحيلة وكأنها قد أخذت على دارها عهداً ألا يساء داخلها ولا يرداد على غير ما يحب . كم كنت أحس بالألم الشديد عند ما أطلب ذلك الطلب كما أطلب أى لون من ألوان البضائع بدلا من أن أعمد إلى شىء من المجاملة الكاذبة أو الغرام الكاذب ليرضى غرور هـذه الانسانة التى نكبتها الأيام فى مصيرها ، وقد تخفف عنها هذه المجاملة الكاذبة أو الحب المكذوب ، وإن علمت أنه مكذوب قد يخفف عنها ذلك بعض ما تحمل من ألم . أما فى ألمانيا فلم يكن هناك شعور بالألم ، وكان الرقيق يعرض خلف واجهات من الزجاج كما تعرض ألوان البضائع المختلفة ، فهن جالسات على المقاعد كما تجلس التماثيل الخشبية التى تعرض أزياء النساء ولكنها لا تعرض الأزياء هنا ، وإنما تعرض

الأجساد عرضاً رخيصاً ممجوحا ، أشهـــد أننى رأيته وأشهد أننى ضقت به وتألمت منه فانصرفت إلى الحان لعلى واجد فيها شيئاً لا تمجه نفس ولا تثير فيها ضيقاً ولا ألماً .

وكانت إريكا فى هـذه المرة شقراء جميلة ذات وجـه مستدير وعينين فى مثل لون الخمر كنت لا أمل من التحديق فيهما ، فتجيبنى ما ذا تريد أن ترى إننى فتاة رديئة هل يكفيك هـــذا ؟ فأجيبها فلتكونى كما تظنين ، ولـكن عيناك تحكى عكس ذلك قد تـكونى منحرفة وقد أكون أكثر منك انحرافاً . قد تـكونى آثمه وأنا أكثر منك إثماً ولـكن عيوننا مسلطة على عيوب الآخرين أكثر مما هى مسلطة على عيوبنا .

وقد كنت أريد كريست وهى التى كنت أراسلها طيلة سنوات أربع ، كنت أريد كريست وأراد الله إريكا ، واكتفيت بإرسال برقية رداً على خطابها — وقد كان يفصلنى عنها سفر يوم كامل . لم أستطع أن ألبى رغبتها كذلك فى أن نلتقى فى منتصف الطريق بين هامبورج ومدينتها جلادباخ القريبة من حدود هولنده .

ولأنصرف عن كريست الآن وحسبى أن أنفق أيامى القليلة مع إريكا ، وهل ستبقى صداقة كريست أو إريكا .

هل ستبقى صداقة كريست التى أنشأتها الرسائل ، أو غرامها

الذى أنشأته الرسائل — ما أتفه هـذه الرسائل ، وقد كنت أقرأ لإريكا خطاباً غرامياً من ضابط لاتينى بحار يشرح لها عاطفته وهيامه وعذابه وصدقه فى الوقت الذى كانت تلتصق بى تمسح وجهها بوجهى ، وقد أسندت كتفيها العريضتين على صدرى لقد كنت أقرأ هذه الكلمات فى غرفة ما ، فكأنى بها تعتبرنى كاتبها ، وكاتبها يكثر من كلمة البائس ، وصدقينى وغير ذلك فأعلق على قوله ضاحكا . صدقينى أنا أن لا تصدقى أى إنسان !

هل كانت تؤثر فيها هذه اللهجة التى تعرفها فى صاحبها أم تؤثر فيها لهجتى التى أقرؤها لها بها ، ما أتفه هذه الخطابات التى يسمونها الغرامية ، وما يدريني لو أن خطاباتى مع كريست يفعل بها مثل ذلك : أكتبها مخلصاً ويقرأها لها عشيق قد يكون مخلصاً كذلك ، ما أتفه هذه الخطابات التى أعتقد أنها لا تساوى ثمن القصاصات التى كتبت عليها ، فمثلها مثل الحب الذى ينمو فى لحظات ويزول فى لحظات لا يثبت لمحنة أو تجربة . ينمو اعتباطاً عند ما يصطدم الفتى بأى فتاة ثم يسمى ذلك حباً ويعتقد أن الأقدار هى التى نظمت له هذه المصادفة السعيدة أو المقابلة السعيدة . حتى إذا التقى بفتاة أخرى أخذ يحبها كذلك ، فهو يحب كل فتاة يراها . لا يستطيع أن يثبت أمام أى فتاة بغير أن يحبها ، فإن الأقدار كما يعتقد هى التى

تنظم له أمره كما يحب تعباً بغرامه وعبثه ولذته وأوجه حياته العقيمة التافهة ، والأيام آخذة فى سيرها لا تلوى على شىء ولا تنظر إلى شىء لا يهمها من أمرنا قليل أو كثير تدور كما يدور الرحى كما يقول الشاعر وهل تنظر الرحى إلى ما تحدثه من أثر عند تأخذ فى الطحن والجرش هكذا الأيام تسير كما يحلو لها أن تسير لا تعبأ بالضاحك أو المتضاحك ، الفرح المرح ، أو البائس الحزين .

ولم نكن فى ألمانيا بائسين محزونين وفى ألمانيا جيش جرار من النساء كفيل لأن يبعد عنا ذلك ذلك البؤس والحزن ينتشرون بين السفن يلبون دعوة أى داعى ، ويتبعن إشارة أى مشير ، وقد أصاب سفينتنا بعضاً من ذلك الخير أو الشر كما أصاب غيرنا من السفن المجاورة ، وأصاب كل من يريد ذلك الخير الوفير الذى ساقه بؤس ألمانيا وفقرها ، حتى ذلك الذى يقوم على خدمتنا رائحاً جائياً لم يعدم له صديقة تقف معه فى كنّه الذى يشرف منه على تقديم الصحون وأوانى الطعام ، وقد تطلقت أساريره السمراء ، ونشط كأروع ما يكون النشاط ، وأمسك بيده النصف سوداء تفاحة فى لون الخد يلصقها بخد صاحبته النضير فتتفرق ألوانها فى ألوانه وتفنى فيه كان كما وصفت فرحاً مرحاً ، يستخفه الفرح والمرح والنشاط حتى أفلتت من يده صفحة الطعام محدثة على الأرض ضجيجاً روّعه ، فوقف جامداً كما يجمد الخشب يحدق فى الطعام

المراق لا يكاد يتحرك . . ولكن تحرك كما يتحرك النزبرك عند ما ربت أحدنا على ذراعه أن لا بأس .

وكان صاحبنا مصاباً بالصرع وقد صدمته هذه اللسة الرقيقة كما تصدم المحارب القنبلة فانثنى أعلاه على أسفله وأربد وجهه وأطلق صرخة تمثل الخوف والرعب وتقلصت أطرافه وتقبضت كما تتقبض أطراف الميت ، وسال الدم من فيه وانطلقت عنه غزالته نافرة مذعورة ، ورحنا ننظر إلى ذلك الجسد الهامد الذى كان يرسل الدعابة والمزاح منذ لحظات وهو الآن بين الحياة والموت بل هو اقرب إلى الموت منه إلى الحياة .

ما أتفه هذه الحياة التى تملكنا ولا نملك منها شيئاً ، وما أعجز الإنسان الذى يظن فى نفسه القدرة والبطش والفتك وهو اعجز من ان يقى نفسه ما كتب عليه او يمنع عنها عاديات الأيام .

وهل تؤدى هذه الصدمات التى نراها ونفجأ بها والتى تصيبنا وتصيب غيرنا ـ هل تؤدى هذه الصدمات إلى الزهد أو الرغبة عن الحياة المنطلقة التى لايحدها شىء . نعم قد يؤدى ذلك إلى الزهد ولكنه زهد قصير العمر ، قصير الأمد . ثم نعود إلى الحياة الأولى أكثر إنطلاقا وأشد رغبة ، فلم تفطر طبيعتنا على الكمال ، وإنما الكمال شىء نتكلفه ونحاوله ونجهد وراءه كما يقولون . وقد نلحق

منه شيئا أو لا نلحق فى أغلب الأحيان . ونتيجة ذلك أن يشتد الصراع بين طبيعتنا الضعيفة الفاسدة وشوقنا إلى الكمال . ويشتد ذلك الصراع شدة وعنفاً فى شخص ما عن الآخر . أما أنا فأشعر بذلك الصراع يشتد حيناً حتى يدنينى من الهوس فينغص على حياتى، ثم يضعف حتى لا يكاد يحس أو يحس بعض خلجات لا تكاد تظهر حتى تتلاشى وتنحسر كما يتلاشى وينحسر ضوء العربة يخطف الطريق المظلم خطفاً سريعاً . أو يتوسط بين هذين ـ بين الشدة والعنف حتى يصبح جـــزءاً من حياتى لا ينفصل عنها لا يدعنى منفرداً أو ملتجئاً إلى الجماعة يتعقبنى فى ساعات الليل وفى ساعات النهار .

هذه هى حالى اليوم ، ذلك القلق الذى أدرى جيداً كيف بدأ ومتى ؟ ولست أدرى كيف ينتهى ومتى . وسأعود الآن إلى إريكا والتى لم تستطع أن تمنع عنى ذلك القلق . وكيف تمنع عنى القلق وهى مصدر ذلك القلق . وكيف يمتنع الأثر ومصدره باق مستمر .

سأعود إلى إريكا وقد أتيح لها أن تلج غرفتى بالسفينة ، وكم كنت أود أن تتاح هذه الفرصة لكريست بدلا من إريكا .

ولو كانت هذه النظرة التى تنظر بها هذا النوع من المرأة هى النظرة التى تنظر بها المرأة العفيفة إلى الرجل العفيف لكانت ساعة حلوة وصداقة كريمة تترك فى النفس أجمل الأثر . ولكن لهذا النوع

من المرأة نظرة أخرى للحياة ، ورأياً خاصاً فيما يليق ومالا يليق . وتفكيراً منحرفاً مختلفا تمام الاختلاف عن تفكير زميلتها التى لم تتعرض كما تعرضت ولم تأثم كما أثمت ، ونحن مضطرون إلى أن نعالج الأمور مع هذه بطريقة تختلف عندما نعالجها مع تلك ويحدث مايحدث من أزمات وتتعقد ماتتعقد من أمور عندما نخلط فى المعاملة بينهما . فلا يجوز أن نعامل الرقيق معاملة تليق بالملكات أو نعامل الملكات معاملة فتيات الرقيق .

وقد يبهج الملكات أن يعاملن معاملة الرقيق ولكن لا يبهج الرقيق بحال أن يعاملن معاملة الملكات . فلن يبلغ ذلك من نفسه الغليظة شيئاً . وقد تجرد من نفسه الحرّه التى وهبها له الله فنبذها من صار رقيقاً فوجب أن يعامل كذلك . وينطبق هذا على الرجل فما أكثر الرقيق من الرجال الذين يملؤون الدنيا وضاعة وخسة ولؤماً . ويخطىء من يظن أن المعاملة الكريمة النبيلة ستؤثر فى نفسه شيئاً وقد فقدت نفسه القدرة على التأثر كما فقدت القدرة على التأثير ، وسأترك الرقيق من الرجال الآن إلى عود قريب ، وحسبى الرقيق من نساء المانيا ، وحسبى منهن إريكا التى جلست تعابثنى وأعابثها ويعبث الحب أو الشهوة بنا ، وبين يدى خطاب رقيق يسيل رقة وعذوبة كتبه لها بحار متيم بها معذب فى غرامها كأنما أسال عاطفته بين السطور ، وسكب مياه قلبه على الكلمات .

فجاءت جذابة ذات نغم حلو معنىّ حزين ، ولكنها كانت فى شاغل عن ذلك النغم الحلو الحزين ، وقد يكون أليق بها لطمات عنيفة سريعة ، بدلا من هذه الكلمات المستعطفة البائسة التى يلح بها عليها ذلك البحار البعيد .

ولكن البحار البعيد لم يكن يعرف أن صاحبته قد صارت إلى ذلك النوع من الرقيق . لعله لم يكن يدرى ذلك ، ولعله كان يدرى .

ولكن لا يريد أن يفهم ماترى عيناه . ومثل هؤلاء كثيرون يريدون أن يروا بأعينهم ما يسبق أن يحسوه بقلوبهم وعواطفهم الرقيقة المريضة ، وعلى عيونهم أن تبطل الحق وتحق الباطل وتلغى مايسوء وتثبت مايسر على عيونهم أن تكون فى خدمتهم أو فى خدمة عواطفهم تخلع على الأحياء والأشياء الصور التى تخلعها عليها قلوبهم المريضة . ماأسوأ أن أكون كذلك ليس من ناحية المرأة فحسب بل فى كل وجه من أوجه الحياة . ما أسوأ أن أسير بعاطفتى أنظر إلى الأشياء كما أحب أن تكون ويسوءنى أن أراها كما أرادها الله أن تكون . أحب فأخلع جمال الدنيا على من أحب ، وأكره فأخلع مساوئها على من أكره يمنعنى الحب والكره من هذه النظرة العاقلة المجردة من الغرض والتى تعقب دائماً الحكم السليم .

إمدن EMDEN

تقدمت الباخرة إلى إمدن تشق طريقها فى جبال من الثلوج كالصخر تقرقع على جوانب السفينة . وقد تزول هذه الجبال ، تزول وتتحول إلى ظلام أبيض كثيف عندما تصير ضباباً يرد أبصارنا عن أطراف السفينة القريبة ، ظلام لا يميزه شىء عن ظلام الليل ، غير اختلاف اللونين وإن كان ظلام الليالى الصافية لا نشعر به ولا نحسه لما ينبعث من بريق الثلوج التى تحول الليل إلى نهار . أما ذلك الضباب فهو الذى يحول النهار إلى ليل ويضطر السفينة أن تنتظر يوماً أو أياماً ، حتى إذا أراد الله لهذه الغمة أن تنكشف وتزول . فانها تتجمع أو تتجمد لتعود كما كانت أجبال من الثلج ولكنها على كل حال لا تعوق السفينة عن السير كما تعوقها أجبال الضباب .

استقرت الباخرة فى ضاحية من ضواحى إمدن تسمى اسنهافن ثم لايمر يوم أو بعض يوم حتى يتجمد الماء حول سفينتنا ومايجاورها من السفن وحتى نرى العمال فى أكثر من مكان يقفون على الجليد كما يقفون على اليابسة أثناء قيامهم بإصلاح بعض الصنادل الصغيرة.

وفى الطريق كان الأطفال يتقاذفون بكرات الثلج وينزلقون على زحافات خشبية يقلدون بها إسكيمو كندا .

وفى طريقنا إلى المدينة كان البرد الذى يخلع الآذان ، والريح

التى تسفع الوجوه ، وأقدامنا تسوخ كما تسوخ أقدام الاعراب فى الرمال ، والرمال هنا بيضاء نقتلع أقدامنا منها اقتلاعا ، ويملكنا الإشفاق أن نطأ مياه البحر ونحن نظنها اليابسة وقد امتزج الأرض والبحر امتزاجا حتى صعب التمييز بينهما ، ولولا هذه السفن الصغيرة وقد جمد حولها الماء كأنها العربات أو المركبات قد آوت إلى أفرين الطريق فى مدينة مزدحمه ولولا هذه السفن لما استطعنا أن نميز بين البر والبحر ، وفى الفضاء العريض كان يضاعف لنا العذاب حتى إذا ولجنا الطرق المطروقة وحالت بيننا وبين الطبيعة العاتية ، المبانى القائمة والشجيرات المتراصة البيضاء ـ خف عنا بعض ذلك العذاب ـ كالأعراب الذين تحميهم المبانى والأطلال القائمة من عسف الرمال. حتى إذا انتهينا إلى غايتنا وولجنا حانة أو كافية قضينا أجمل الساعات ، نشعر بالفارق الكبير بين الجنة والجحيم وليس بينهما غير بضع خطوات ، بل ليس بينهما إلا أن نعبر الباب ، من منا يستطيع أن يفرط فى النزول إلى البر كما كان يفعل فى البلاد الدافئة .. من منا يستطيع ذلك ؟ والنزول هنا ضرب من الانتحار، ويكفى أن يرتاد أحدنا المدينة ليلة حتى يعتكف بضع ليال .

ولم يطل حظنا مع الجرمانيات ذوات السيقان الغليظة والوجوه المشرقة . وأنا لم أر وجوها أكثر إشراقا وأنصع لونا يميزها ذلك الطابع الذى لا أستطيع وصفه ، فكأنه صفة ملازمة

لهذه البلاد ذات الطقس البارد وكأن البرد يخلع على بشرتهن لوناً رائقاً كشعاع الشمس ، ولم نر الشمس فى هـذه المدينة إطلاقا ، وإن كانت كل جميـلة تحمل فى وجهها شمساً لهـا ما للشمس من نصوع وإشراق ، وما أكثر ما نرى الشموس ، وإن كنت قد اكتفيت بشمس واحدة فإن نفسى لتنازعنى لأن أحترق بشموس أخريات · وكانت إريكا هى هـذه الشمس التى اخترتها ولا أريد أن أقول ـ اختارتها لى الظروف ـ ولـكن على شريطة واحدة هى أن أنظر اليها النظرة التى تريدها والتى اختارتها لنفسها ، وقد اختارت لنفسها حياة الرقيق .. فلتكن نظرتى لها كذلك . فاذا كانت هـذا هو ما تريد فلا أنزل عند إرادتها ، وقد حاولت أن أنظر اليها نظرة غير هذه فساءها ذلك . فلنضع فلسفتنا ومثاليتنا جانباً ولأكن كما تريد الفتاة أن أكون ، مادام ذلك فيما يتعلق بها ويمس شأناً دقيقاً من شئونها .

وإن بينى وبين إريكا صحفة لم تتم ولم تختم فصولها بعد ويقينى أننى سأراها فى يوم ما . وستتم هذه الفصول على أى وجه كان .

ويشهد الله أننى قهرت نفسى فى هذه المرة وهى التى كانت تقهرنى فى معظم المرات ، واستطعت أن أمنع نفسى حتى عن أن أقول كلمة غرام واحدة صادقا أوكاذبا . واكتفيت بهذه اللذة الهينة اليسيرة التى لا تعقب ألما .

ولولا جوع ألمانيا وعبث الاستعمار بها لما كانت هذه اللذة الآثمة التى حملت الربان على أن يشق طريقه بين الغرف ليستوثق من عدم وجود فتيـــات قبل أن تزمع الباخرة على الرحيل من أرض ألمانيا كلها .

وألمانيا تشبه هولنده إلى حد كبير ولست أقارن الأخلاق فى البلدين فبينهما فارق كبير فقد عبث الاستعمار بألمانيا عبثا فظيعا والاستعمار يجر فى ذيله الجوع - الجوع الذى يفتك بأعراض النساء

وألمانيا فى هذه الصفة أشد بؤساً وفقراً من اسبانيا التى كنا نظنها فى مؤخرة الصفوف . وليس معنى ذلك أن ألمانيا هى التى فى مؤخرة الصفوف بل العكس هى فى مقدمة الصفوف الآن فى أوربا ولكنها تتجرع بالرغم من ذلك ما كتب على المغلوب من ذل

والعجيب أن فى ألمانيا تأمين اجتماعى شامل كالذى يجرى فى بلاد الانجليز يتيح للعاطلين عن العمل شيئا من الكفاف يمنعهم من السؤال أو النوم فى الطرقات . وليس فى اسبانيا شىء من ذلك . وليس للعاطل أو الجائع فى اسبانيا غير الاســـتجداء والنوم فى الحدائق العامة . ولكن مظاهر البؤس فى ألمانيا بالرغم من ذلك . تفوق أضعافا مضاعفة مثيلاتها فى اسبانيا وقد يكون تعليل ذلك هو بساطة الحياة فى اسبانيا ورخص أسباب العيش وتكاليفه فبأى

مقدار تافه يستطيع المرء أن يعيش فهو ان عاش على الفاكهة وما أرخص الفاكهة حتى كادت أن تكون طعام الفقير يساعده على ذلك شمس دافئة توفر عليه الكثير من نفقات التدفئة التي لا يستغني عنها الألمان

فالفقير في اسبانيا يستطيع أن يعيش بالقليل ولكنه لا يجد هذا القليل . وعلى العكس في ألمانيا قد يكون في جيبه الكثير بالقياس إلى بلد آخر ولكنه في بلده يقصر عن أن يفي بحاجته . وهذه هي آثار الحرب أو على الأصح آثار الهزيمة وما تركته في الأخلاق والطباع والعادات تلمس بوضوح وتدل على نفسها بوضوح كما تدل على نفسها آثار التخريب الواضحة في كل مكان .

ولم يكن التخريب الذي رأيته في أودسيا الروسية أو روتردام الهولندية شيئا يقاس إلى جانب التخريب في ألمانيا . وأعجب ما رأينا في وسط هذه الأنقاض والخرائب المهدمة، جبال من الأسمنت في حجم العمائر الضخمة جعلت لتكون خنادق تحمي المدنيين مما في جوف الطائرات من دمار . فكانت كما أريد لها أن تكون فكل شيء قد تخرب حولها ولم تتخرب هي فما زالت قائمة . وماذا لو كان أصابنا من ويلات الحرب مثل ما أصاب ألمانيا ماذا كنا نعمل بهذه الخنادق ذات السقوف الرقيقة من الأسمنت التي كنا نظنها شيئا وهي ليست من الخنادق

فى شىء ولا عجب أن نظهـــا شـــيئا فقـــد كان درآنا أن تسقف البيوت بالأسمنت فى الأحيـــاء الوطنية بمصر وكانت إلى عهد قريب تسقف بالأخشـــاب وما زالت تسقف بالسعف والجريد فى بطن الريف فمهدنا بالأسمنت ما زال حديثا وهو الذى جعلنا نعتبر هـذه السقوف الرقيقة شيئا، ما دامت هذه السقوف ليست فى البيوت أو ليست فى كل البيوت !

وقى الله مصر ويلات الحروب وما يصيب الآدميين فى أعقاب الحروب فى أعراضهم ومثلهم، وقى الله الانسانية جميعها من أعدائها الكثيرين الذين يتناوشونها من كل جانب لاهم لهم إلا أن يصلوا بها كما يصلوا بأنفسهم إلى درك الحيوان .

وسأترك ألمانيا الآن التى تعيش فى فناء وانحلال ولعل أروع ما يمثليها هو هـذه الصوره التى تطبع على بعض عملاتهم المعدنيـة الصغيرة صورة فتاة تكاد أن تكون عارية. وألمانيا اليوم هى هذه الفتاة، فهى تعيش فى هذا العرى وليس العرى الذى يمس الأبدان فقط خلف الواجهات الزجاجية ومنازل اللهو. ولكنه العرى الذى يمس الوجوه كذلك فلم يترك الفقر لهم شيئا من الحيـاء أو الخجل يشترك فى ذلك الرجال والنساء ويكفى نكراً من القول أن يكون رجالهم قوادون إلا القليل منهم وكأنهم وهم يأتون ذلك الأمر المنكر

يأتون عملا جلياً نبيلا أو ليس اكرام الضيف عملا جليلا نبيلا .

والحق أنى أضيق بهؤلاء الألمانيين، أضيق بادعائهم وغرورهم ووقاحتهم وليست مدنيتهم بالشيء النادر المثال . وإنما هى مدنية عادية كأى مدنية أخرى فى أوربا .

أشهد أنى أضيق بهؤلاء الأدعياء المغلوبين كما أضيق بالأمريكيين الغالبين . ولو غلبت ألمانيا لرأينا من ادعائها وغرورها ووقاحتها مثل ماتراه من أمريكا اليوم . ما أقبح الغالبين المغلوبين فكلاهما وقح مغرور . الوقاحة والغرور صفتان متلازمتان يصاب بهما الأفراد كما تصاب بهما الجماعات والشعوب .

سأترك ألمانيا البائسة التى تدفع ثمن هزيمتها من الأخلاق والأعراض والمثل ، وأنتقل إلى فرنسا وقد انتقلت الباخرة إلى مدينة روان واستقرت فى ضاحية من ضواحيها تعرف باسم كورونى .

وكورونى قرية صغيرة هادئة تصدر الدقيق وبها معمل لتكرير البترول وآخر لصناعة البوناس وبين هذين المعملين منازل القرويين ، وعلى الشاطىء الآخر من النهر أرض زراعية خصبة وجمال أنيق خصب . وليست الفرنسية جميلة ذلك الجمال الأخاذ الذى يفتن من نظرة واحدة ، وقد يكون ذلك فى الاسبانية أو الايطالية . أما الفرنسية فلا فهى كالألمانية ليس جمالها

فاتنا أخاذاً . وفى ذهنى صورة للألمانية عرفتها عن قرب وفى ذهنى صورة للفرنسية لم يأن الحديث عنها بعد، وأنا من هتين الصورتين مفتون بهما معجب بكلاهما ولكنى غير واجد فيهما ذلك الجمال الطاغى الذى يفتن فى نظرة واحدة . وإنما فيهما ذلك الجمال الذى نبحث عنه فى نظرات كثيرة حتى نجده ونفتن به افتتانا .

والحق أن فى كل بلد جمال وكان إرادة الله قد وزعت الجمال بالقسط بين البلاد والعباد حتى ليصعب أن نقصر الجمال على بلد واحد أو تصبح هذه المدينة أو تلك مستفردة بما فيها من جميلات ففى كل زمان ومكان جمال وجميلات ولو بحثنا بين السود فى جمايكا أو الصفر فى جزر الهند الشرقية لرأينا ما نريد وفوق ما نريد من جميلات

وليست الفرنسية مستفردة بهذه الإناقة التى تروى عنها ويبالغ فيها فهى لا تزيد عن الأسبانيه أو الأيطالية فى شىء والمرأة فى كل من هذه البلاد الثلاثة متشابهة تقريباً حتى كادت أن تكون ملامحهم واحدة يصعب التمييز بينها وعاداتهم متشابهة مشتركة لا يميزهم غير ما فى الإختلاف بين لغاتهم الثلاثة .

أما الفارقة بين إحداها والألمانية فهو فارق كبير كذلك الفارق الكبير بين اللغة الألمانية وإحدى هذه اللغات .

فللألمانية سحنة خاصة وملامح معينة كما أن لها هذه اللغة الجافة التى تنبو فى السمع وتقرع الأذن بحروفها الضخمة وخاءاتها الكثيرة وألفاظها التى تمتلىء بها أفواه الحسان الضيقة الأنيقة وجرسها الذى يخلو من العذوبة على كل حال، فالفارق كبير بينها وبين اللغة الفرنسية الأنيقة التى تترك فى الأذن أثرا جميلا وصدى حلوا رنين. ولا أدرى أين قرأت أن الفارق بين الملامح يبعد ويقرب كما يبعد ويقرب الفرق بين اللغات . وغفر الله لى فقد تحدثت عن المرأة كثيرا وكان كل بلد لا يحوى غير المرأة فعليها أقصر انتباهى وحديثى وعليها يقصر سعيى عندما تطأ قدماى أرض الشاطىء .

سأترك المرأة مؤقتا وأتحدث عما رأيت فى متحف الفنون بمدينة روان . وماذا أعمل وقد أبت الفنون الا أن تمس المرأة كذلك وتتحدث عنها بالألوان والرسوم، كما أتحدث عنها بالألفاظ والمعانى ثم يصح حديثى عن المرأة متصلا سواء رغبت ذلك أو رغبت عنه وفى ذلك المتحف وقفت أمام لوحات ثلاث، كانت الأولى تمثل موكبا من العاريات أحطن برجل أو بعدة رجال وقد اختار الرسام لأقدام الرجال حوافر أقرب ما تكون إلى حوافر الحملان وابعد ما تكون عن حوافر الذئاب .

وأى غرابة فى أن يتحول الرجل إلى حمل أو إلى ذئب بين

النساء العاريات، إلى حمل إذا شبع وإلى ذئب إذا جاع، أى غرابة فى أن تتحول الغريزة إلى حنان أو إلى طوفان. فاللوحه واحدة وليفهمها كل كما يريد فهى كالكأس مرة فى فم وحلوة سائغة فى آخر أو النغم حلوا رائعا يبعث البهجة ويدفع إلى الرضى عند قوم وحزينا أليما يثير الحزن والأسى عند آخرين .

ولوحة أخرى تمثل الحب بين الاعراب فى جوف الصحراء وقد انخذ كل إعرابى فتاة يبادلها الغرام بين الخيام والجمال الرابضة والناهضة والتى تريد النهوض، وقد انطبقت أفواه العيس واستطالت كأنها لا يعجبها ماترى . وأخرى عن الحلاقة فى حمام من حمامات ألف ليلة، نافورة كبيرة وحوض رائع فى ظل الشجر الوارف والأغصان اللدنة الخضر وأجساد المستحمات اللدنه فى ضوء القمر. ومن الألوان البارزة التى تبرز عن قماش اللوحة بروزا مايخيل إلينا إذا قربنا منها أننا لا نرى شيئا وكلما ابتعدنا عنها رأينا شيئا وفهمنا أشياء رائعة مبدعة فهى عن قرب عـــدة أخلاط قد انتثرت على اللوحه فى غير عناية، ومن بعد غابة كثيفة نضيرة وعاشقين يختلسان القبل وما بين القبل من حديث وشوق. وسأعود إلى كورونى مرة أخرى وأنا واجد فيها الحياة والحركة . وليس السكون والجمود على قماش اللوحة مهما كانت رائعة مبدعة ونحن فى هذا الجمال الحقيق نشترك

مع الطبيعة ونصبح جزءا منها، ونحن نقف فى مسرحها ونقوم بأدوارنا المقسومة لنا كما يعمل الممثلون على خشبة المسرح . بدلا من أن نقف خارج هذا المسرح مع المتفرجين المعجبين .

وأنا أريد أن أرسل بعضا من نفسى أو أرسل نفسى كلها التفنى فى هذه الطبيعة السمحة اليسيرة الحلوه فنحن نسير أياما وأسابيع بسفينتنا، لا نرى الماء الذى يأخذ عدة ألوان، قد يكون جليدا متماسكا أو مياها زرقة شديدة القتمة تكاد تقرب من السواد تنتثر على سطحها البقع البيض كما ينتثر الحباب فى كأس من الخمر قد تكون مياه حمراء أو خضراء أو بين هذين اللونين عندما تلج السفينة نهرا من الأنهار أو بحرا من البحار الساكنة المغلقة .

ونحن بين كل هذه الألوان نتحرق شوقا إلى ذلك اللون الحبيب اللون الذى تتعشقه نفوسنا وتتعلق به أفئدتنا مشاعرنا ذلك هو لون الأرض الطيبة وليست تفتننا منظر المدن المزدحمة والبيوت القائمة والجمهور الكثيف من الناس بقدر ما تفتننا منظر شجرة قائمة ودغل كثيف متراكب أو دوحة عملاقة تعكس ظلها على صفحة مياه جارية نقية . وعلى جانب السين ربضت السفن . ومنها سفينتنا . وفوق كل سفينة وأحد من هذه الكبارى المعلقة مقاطعاتها مرتفعا عنها تجرى عليه عربات مقلوبة كعربات الترام . تحمل فى جريها أعدال الدقيق تفرغها فى

جوف السفن ، وعلى الجانب الآخر البساط الأخضر الجميل يرتفع فيه دغل من الشجر الكثيف المصمت، مرتفعا كما يرتفع الجدار ومتضاما كما يتضام العشب وممتدا كما يمتد الجبل المزروع . لا ينفذ منه الضوء .ولولا أعالى الأشجار وأطرافها المشرشرة لما كانت غير جبل مصمت، وإن كانت هذه الأشجار تنفرج سوقها قليلا لتكشف عن الطرق المطروقة والمنازل البيض متناثرة على قمم الروابى البعيدة . ومتناثرة على البساط الأخضر القريب حمامات بيض كأنما يرمزن للأناقة والوداعة والأمان. فعلى أحد الشاطئين الريف خالصا وعلى الطرف الآخر الريف والمدينة، المصانع وبيوت الفلاحين . وكنا نشق طريقنا فى قلب مصنع البوتاس لنستقل الأوتوبيس إلى مدينة روان، كنا نشق طريقنا بين الماكينات والآلات، ثم بين قرقرة الدجاج وغناء الطيور بين الفؤوس، تقطع فى الأرض الرخوة أرض الحدائقة الصغيرة الملحقة بأفنية البيوت .

كنا نقطع هذا الطريق نهارا وللنهار عيون مبصرة كما يقولون فنشاهد هذه الطبيعة كأروع ما تكون. الأطفال فى صخب والعذارى يأخذن الطريق عدوا وقد التهبت الخدود حتى كادت أن تشتعل ومنهن من آثرن المشى الهادى الرفيق ليمتصن من الطريق والسابلة بنظرهن الهادىء الرشيق أما فى الليل . فقد كنا نتوقع الشر من الأحياء .

ويتوقع الأحياء الشر منا. ذلك الشر الذى يكمن فى اعطاف الطريق والطريق مظلمه قاتمة الحلكة إلا من ضوء ضئيل قليل يظهر لناخوف الناس من بعضهم البعض . وقليل مايظهر الناس بالليل حتى لينذر أن تقابل فتى أو فتاة تنظر إلينا كما ننظر إليه يخشى كل منا صاحبه ولا يظهر له ذلك . فنحن نتوقع فى كل خطوة كمين وفى كل نبأه لص أو قاطع طريق ولا غرابة فى ذلك فقد حذرنا البوليس من إرتياد هذه المنطقة ليلا . وحذرنا من السير فيها بعد الغروب وأين يغنى النذير والتحذير ونحن لا نملك غير هـذه الساعات بعد الغروب نشتريها من أنفسنا لنملأها باللذة والشعور أيا كان لون هذه اللذة ونوع ذلك بالشعور .

باريس

ما أشد شوقى لرؤية بغداد وباريس، ولا أدرى لمـاذا هتين المدينتين بالذات . ولعل ذلك من كثرة ما قرأت عنهما حتى إشتقت إلى رؤيتهما . وما أعرف أننى قرأت كما قرأت عن بغداد حتى كان يخيل إلى أننى أعيش فى حى من أحيائها بين الرصافة والجسر كذلك الشاعر الذى كان يتغزل فى عيون الحسان بين الرصافة والجسر . كأنى كنت أعيش فى بغداد ، ومصر بلد يساق إلى حديثها ولست أعيش فى مصر وبغداد هى التى يساق عنها ذلك الحديث .

وكذلك الحـــال عن باريس . قرأت كثيرا عن باريس واشتقت أكثر من مرة أن أطلب العلم فى باريس وما كنت لأشتاق أن أطلب العلم فى بغداد ولعل باريس اليوم هى بغداد الأمس كما يقولون وها أنذا قد رأيت باريس وعشقت باريس قبل أن أراها . أو على الأصح عشقت باريس وأنا فى الطريق إليها ولم أصل إليها بعد فبينى وبينها ساعة وبعض الساعة والقطار يطوى هذه المسافة أو هذا الزمن وقد تركزت فى ذهنى وتجسمت فى خيالى صورة واحدة متخيله عن باريس . ماذا سأرى فيها، وماذا أريد منها، وكيف ستكون وكيف سيكون حكمى عليها . لم يكن فى ذهنى غير باريس وكان باريس هذه فتاة أعشقها على السماع تأخذ على كل سبيل وتبرز لى فى كل لمحة ولفته إذا كان ذلك حالى ولم أرها بعد فكيف إذا رأيتها وعشقتها . ولكنى لن أطيل إقامتى فى باريس حتى لا يحدث ذلك العشق الذى لا أريده . وماذا أصنع بعواطفى فإننى وإن طالت إقامتى مع فتاة ليس فيها ما ينبو أو ينفر فأنا لا محالة عاشقها لا يهم أن تكون جميلة أو غير جميلة وإنما طول إقامتى معها سيخلق هذا العشق خلقا أو على الأصح سيظهر لى ذلك الشىء الذى يفتننى حقا . وأنا كما كنت أعيب على بعض الناس أعيش بعاطفتى فى بعض الأحيان، فإذا أرأيت العاطفة رأيا أسرعت عينى تؤيده تأييدا . وتثبته تثبيتا ومعنى ذلك

أننى أحس أولا، ثم أنظر ثانيا فنظرى تابعا لا متبوعا، ومثل ذلك إذا كرهت نفس شيئا ووقر فى ذهنى الأعراض عنه والنفور منه فما أسرع ما يتجسم لى قبحه وبشاعته .

وقد يكون ذلك الشيء جميلا فى نظر الغير فمن أين هذا القبح ومن أين ، هذه البشاعة ـ لست أدرى ـ ولكننى أدرى أن طول إقامتى مع الفتاة وكذلك طول إقامتى فى المدينة ليست هى التى ترينى هـــذه جميلة أو هذه المدينة رائعة . وإنما يأتى ذلك فى المحل الثانى وما يأتى فى المحل الأول . أن أشعر بأن هذه الفتاة جميلة أو أننى واجد بها شيئا فاتنا جميلا ، حتى تتحول بعد ذلك التفكير قبحها إلى جمال دمامتها إلى فتنة، وإذا كانت جميلة فاتنة فيتضاعف جمالها وفتنتها مرة ومرات، وإذا أنا مفتون بها غارق إلى أذنى فى ذلك الافتتان . إذا كان ذلك يحدث مع الفتاة والمدينة فهو الذى يحدث مع الأحياء والأشياء أيا كانت ألوانها. فلننظر إلى ما حولنا من أشياء جميلة ولنحس أنها جميلة ولننظر بعين الرضا بدلا من عين السخط إلى كل ما يحيط بنا من أحياء وأشياء، حتى ننفق وقتا سعيدا فما أضيع العمر الذى ننفقه فى الهم والبؤس والشقاء وبأيدينا نحن لا بأيدى غيرنا نستطيع أن نكون سعداء وبقلوبنا لا بقلوب غيرنا نستطيع أن نرى ونحس ذلك الجمال الذى اسبغه الله على الأحياء والأشياء .

ولتنقطع الآن أحاديث القطار التى أحدث بها نفسى وقد أقبلت

باريس تسعى إذا صح هذا التشبيه وطوى القطار هذا الريف الذى لم يخلص للريف وإنما امتزجت به الصناعة وطغت عليه فحول هذه المزارع الصغيرة وخلف بيوت الفلاحين مصانع لا تعد للحديد والصلب والآلات الدقيقه . يفصل أحدهما عن الآخر نفق من الأنفاق الطويلة أو كبرى من الكبارى الضخمة أو مربض من مرابض الطائرات .

وهكذا كنت أرى الزراعة والصناعة على طول الطريق أو على الأصح كنت أرى الصناعة تطغى على الزراعة وتأتى عليها لاتكاد تترك لها شيئا . وبين هذه وتلك بيوتا تختلف ضيقا وسعه وغنى وفقرا . تتضاءل حتى تصير أكواخا تدل على بؤس بائس وعيش فقير . وتضخم حتى تصير فيلات ضخمه تدل على عيش هانىء رغيد ، وبين الحياة البائسة والعيش الرغيد ، القبور . القبور والصلبان المعلقة فوق القبور . وفى مثل هذه القبور سيستريح القلب يوما ما بعد نهاية مشواره الطويل أو القصير . كما يستريح القطار بعد نهاية مشواره الطويل أو القصير . فليسرع القطار أو يبطىء وليسرع القلب فى دقاته أو يستأنى حتى يأتى ذلك اليوم الذى هو خاتمة العنـــاء . وحتى يأتى ذلك اليوم فلنأخذ له أقصى ما نستطيع من عناء . هاهو باريس تسعى الينا ، وهذه الفيلات التى يخطفها القطار خطفا سريعا ترتفع

فى السماء وتزيد فى الإنساع بعد أن كانت ضئيلة الإرتفاع والإنساع وكان ذلك ايذانا بقدوم باريس وقد انتصف النهار أو كاد وسأضع قدمى فى باريس المزدحمة فاقصد أول قصد إلى متحف اللوفر وعسى أن أرى برج إيفل فى الطريق وليس عندى من الوقت مايكفى لارتقاء قمته وقد يجور ذلك على الوقت الذى أريد أن انفقه مع اللوحات . وقد يجور ذلك على هذه الدقائق التى أريد أن أقضيها مع اتباع جان بول سارتر من الوبودين، وإذا استطعت أن أحقق هذا الشيء الكثير فيما عندى من وقت قليل فأنا سعيد.

وفى متحف اللوفر رأيت أول مارأيت آثار المصريين واليونان القدماء آثار طيبة وممفيس وتماثيل ديموستين وارسطوفان وبندار وماتخيله هؤلاء القدماء عن أبولون وأفروديت آلهى الشعر والحب والجمال مررت مروراً سريعا على آثار نابليون ولويس الخامس عشر لأقف طويلا أمام عدة لوحات . وكانت الأولى تروى قصة الحب الذى لم يتم، لم تدعه الظروف ولم تتركه الأقدار يصل إلى غايته، أو هو قد وصل إلى غايته قصيرا سريعا كما يصل البرق إلى غايته، فماتت المرأة، وماتت الزوجة، وماتت شقيقة نفسه، وأمسك القسيس بهامن كتفيها وعلى وجهه حزن وقور أليم وأمسك هو يضم ساقيها ويسكب فى هذه اللحظات كل مايملك من عاطفة إذا صح أن تسكب العاطفة

وعلى وجهها جمال الحياة وجلال الموت، ووجهه يغلق بالجزع والحسرات والأنين . وتحت أقدامهما آله تشق لها اللحود.

ومن فرجه الأستار المسدلة على كنههما — الذى زره الموت . من فرجه هذه الأستار نرى الصليب واللحد والقمر فى الفضاء القريب .

ولننتقل إلى هذه اللوحات الضاحكة أو التى تنقل صور الحياة الضاحكة، ومن هذه لوحة تمثل الحانه فى حياة الرجل الفقير . قطعة من خبز جاف وكأس نصفها فارغة وغلام رث ينفخ مزماره وقد انتفخ فوه والجماعة يختلسون من بؤسهم لحظات ويتخطفون من أنف الزمان دقائق يعيشون فيها مع النغم ويبعدون فيها عن الواقع المر إلى الأخيلة التى يبدعها سلطان النغم واعتدال المزاج وهدوء الأيام .

وأخرى تمثل الحظ فى حياة الغنى إذا كانت السابقة تمثل الحظ فى حياة الفقير . فلم ينتقل هذا الغنى إلى الحانة وإنما انتقلت إليه الحانة، ولم يعزف له غلام رث وإنما أحاطت به النساء والإماء إحداهن تعزف له وتغنى وقد اتسع فمها ونحرها ونفرت عروقها من شدة ما تعزف وأخرى تدلله وتلاعبه وتمرر أنامله الرخصة على سوقه الهزيلة لمعروقه، وثالثة تسقيه من فمها خمراً ومن يدها كما يقول

أبو نواس، وكأنه فى وسط كل هؤلاء، فى وسط جحيم لا نعيم - أليس الافراط فى النعيم كالافراط فى البؤس عذابا ليس بعده عذاب .

ثم قصة الحرب فى نهايتها — وفى نهايتها تختطف النساء ويردن على مايكرهن فأحدهما يجذبها يريد أن يحملها من الأرض ويشركها ظهر جواده وهى تضرب فى شعر رأسه فى غضب ويأس وجنون .

وأخرين يتنازعان فتاة وكأنما يريدان أن يقتسماها إقتساما وهى بين المختصمين جزعه وليس يغنى الجزع ، فذنبها أنها جميلة والجمال ذنب أكثر حولها الطلب وأكثر حولها المختصمين ، وهذه عجوز قد وجدت من يطلبها وإن لم تجد من يختصم فيها .

ولوحة خامسة رأيتها من قبل فى متحف روان ولكنها هنا كمعظم اللوحات فى متحف اللوفر قد رسمت على جدار كبير حتى أن شخوص اللوحة تتضاعف مرة أو مرتين عن الحجم الحقيقى . وكانت هذه صورة الشراع المحطم والسفينة التى نكبتها العاصفة فنصفها فى الماء ونصفها على الصخر وقبع ركابها بين الأمتعة وفوق جثث المصروعين على الواح مغرقة من الخشب . قبعوا يائسين متضرعين ووقف أحدهم على قمة الصارى المهشم يلوح بردائه يطلب النجدة والنجاة ،

ولا أستطيع أن أفى هذا المتحف حقه من الشرح فلكل لوحة

قصة تكاد أن تنطق وتتحرك وأنا أعيش مع أبطال هذه القصة لحظات لألج قصة أخرى .

وهكذا أخرج من قصة إلى قصة . ومن حياة إلى حياة، وما أكثر القصص وما أكثر الحياة . وما أشبه هذا المتحف بالحياة نفسها نضرب فى مجاهلها ونغوص فى أعماقها ولا نصل إلى نهايتها . ففيه انفق الساعات ولا أبلغ من نهايته شيئا . وكأنى لن أبلغ نهايته كما أحب وأبلوها كما يجب إلا أن أنقطع له أياما وشهوراً حتى استنفذ ما فيه وأظهر عليه فهو مدرسة أو أكبر من مدرسة . يعرض كما تعرض المدرسة اللذة والروعة والمتاع . وليس المتحف متحف بما يعرض من الآثار والرسوم والصور التى تقاس أطوالها بالأمتار .

ليس هو متحف لذلك فحسب بل هو متحف أيضاً بأرضه المفروشة بالخشب الثمين ومقاعده الوثيره وسقفه المذهب المغطى بالزجاج الثمين والأخشاب المطعمة بالذهب والرسوم .

ثم انتقل من ذلك المتحف إلى برج ايفل ماراً على المسلة المصرية التى تزين قلب باريس . وما أجمل باريس عندما ننظر إليها من أعلى قمة فى باريس، يلفها الضباب كالعروس الفاتنة يلفها وشاح أبيض أنيق فعلى بعد قريب كان الضباب يلتهم أطراف المدينة ويأتى عليها كلها أو بعضها فتختفى اختفاءاً تاما وتصبح فراغا من الفراغ

أو تظهر خلف غلالة رقيقة كما تظهر الحسناء — أو تأتى بين الظهور والاختفاء كما يأتى الحلم فى عين النائم . فالسين يسعى هادئا رفيقا يشق طريقه بين العمائر الضخمة وأطراف قصر شايو وأبنيته التى لا ترى ضخمة من ارتفاع السحاب . عدت إلى الباخرة بعد أن فتنتنى باريس وأصبحت لها عاشقا ، وإن لم أفاجأ بذلك العشق فقد كان شيئا أتوقعه . ثم كنت أغالب الشوق الشديد لرؤية باريس مرة أخرى وانفاق يوم كامل مع الوجوديين . ولكن ما منعنى من ذلك أن الباخرة تتأهب للسفر إلى مدينة الهافر حيث تستقر ساعات معدودة ثم تغادر فرنسا كلها .

وقد أعود من باريس فلا أجد الباخرة فى روان وقد لا ألحقها فى الهافر وماذا أعمل فى روان أو الهافر بعد ذلك . إذن سأعود إلى باريس وأكون أحد هؤلاء الكثيرين الذين أضاعتهم باريس أو أضاعوا أنفسهم فى باريس ، لم اتصل بالمرأة الباريسية من قريب أو بعيد . والمرأة فى روان أو الهافر أو فى هذه الضاحية الريفية كورونى لا تقل عن المرأة فى باريس فهى تختفى دائما فيما ترتديه من جلد الحيوان كما تختفى المرأة فى باريس . وهذه الحدائق الجميلة الخضراء فى كورونى لا تقل عن حدائق باريس ،

فلا تسلى بهذين عن باريس وعشق باريس ولأنفق ما بقى لى

من ساعات فى هذه الطبيعة السهلة الجميلة على شاطىء السين وبين هذه الأشجار التى لا نعرفها فى مصر فكأنها غصن واحد نضير سترت جذوعه النابتة من الأرض الأوراق والفروع ، ترتسم على صفحة المياه الشفافة تهدأ إذا هدأت وترتعش إذا ارتعشت .

وهذه الزهور الصفر على سوق مجردة عارية من الورق تعطى لهذه الأرض لونا من ألوان الابتسام . أليست هـــذه الزهور البيضـاء والصفراء على أرض معشبة ، منحدرة أو منبسطة .

أليست لهذه الزهور ابتسامة كهذه التى ترقص على ثغر العذراء .

أليست تستطيع العذراء أن تبتسم عدة ابتسامات وأن يأخذ وجهها عدداً عديداً من الألوان والإنطباعات تنطبع فى إشراق ويسر على صفحة وجهها الصريحة البيضـاء ، فطوراً تذوب رقـة وحنانا ، وطوراً ترسم الحب والوجد والهيام وهى تفتن فى كل هذه الأطوار . كذلك الأرض الطيبة وما ترقشه عليها الزهور من تعبير يفتننا حينا ويروقنا حينا ويبعث فينا التفكير فى غالب الأحيان .

فى هذه الضاحية الجميلة عند ما ترقى العين إلى سفح غير قليل الارتفاع أو تهبط إلى منحدر غير عميق ، أو تمتد على أرض سهلة أو تأخذ صورة السفح والسهل والأرض العميقة فى صورة واحدة ملتئمة الأجزاء فى هذه الأرض التى خلقها الله ولم تمسها يد الانسان

إلا مساً هيناً رفيقاً لا يغيرها ولا يعبث بها . فى هذه الطبيعة الفاتنة اليسيرة التى لا تعقيد فيها ولا تكليف ، سنجد الجمال المثالى والصحة الجيدة والأناقة البسيطة المعتدلة . وقد أفرطنا على المدينـــة أو أفرطت المدينة علينا وحرمتنا من الريف والريفيات

أما نهارى فقد أنفقته فى الريف وأما الريفيات فليس إليهن سبيل ، وفى هذه الحانة الريفية تظللها هذه الأعواد التى اتخذت سقفا وإن كانت لا تخلو من أناقة ، وهـذه الريفية التى تذهب وتجىء ، تجىء بالزجاجات ملآى ، وتذهب بها فارغة ، تحمل العصى الطويلة من الخبز متنقلة بأنوثتها وطهرها بين الحاسين والطاعمين وتشرف بين ذلك على موقدها المكتظة بالبطاطس الساخنة .

حسبى من هذه ابتسامة يسيرة حتى تصبح فى نظرى رائعة الدلال والفتنة ، ثم أحتال فى أن يتصل بينى وبينها الحديث ، وقد يترك حديثها ووجهها فى نفسى بعض الأثر وقد يكون ذلك الأثر كبيراً حتى يصل إلى درجة الألم عندما أمنع نفسى من الإسترسال وأقطع عليها ما تريد . وليتنى لم أقطع عليها ما تريد فأنا فى حانة أنفق يوما قد يعود وقد لا يعود ، وأغلب الظن أنه لن يعود .

وفى الصباح الباكر كانت الباخرة فى طريقها إلى الهافر ، والهافر مدينة شعبية بسيطة تخلو من الأناقة ولعل السبب فى ذلك هو أنها

ميناء كبير يرسو عليه العدد الكبير من السفن وناقلات البترول. ويختلط البحارة فى هـــذه وتلك بأهل المدينة إختلاطا مستمراً ولا عجب فى أن تسفل مدينة وتسمو أخرى بفئة من الناس يزورونها لماما أو يزورونها دواما . والتى يزورونها لماما هى روان فهى مدينة أنيقة تغلب عليها أناقة باريس بل هى ضاحية من ضواحى باريس ، فهى مدينة فرنسية، أعنى أنها تصح أن تكون عنوانا لفرنسا أو عنوانا لباريس وقد يكون فى باريس أحياء مهملة فقيرة ولكنها لا تؤثر فى الصورة الجميلة التى ترتسم أمامى عند ما أذكر باريس فلا تحضرنى صورة مهملة بل تحضرنى صورة أنيقة رشيقة لأحياء أنيقة رشيقة . وعلى هذا فالفارق بين رواهن والهافر فارقا شاسعا كبيرا فالأولى مدينة إرستقراطية ولست أعنى الأشخاص الأحياء فقط وإنما الأشياء كذلك .

وما أعجب أن تفرق الارستقراطية بين الأشياء كما تفرق بين الأحياء ،وكأن الهافر مدينة شعبية كهذه المدن الأسبانية على شاطىء البحر الأبيض فالحياة فى هذه كالحياة فى تلك ، فما أكثر الحانات ولا أقول المباءات التى تكثر فيها ليالى القصف واللهو والسمر ،وأنا الآن فى طريقى إلى القصف واللهو والسمر .

كنت أخرج من حانة لألج أخرى كأننى أبحث عن شىء أو الح فى طلب شىء . وذلك الشىء جمال يستريح له القلب ويهفو إليه

الفؤاد ، جمال لا ينبو عن الذوق ، وماذا أعمل بهذا الجمال الذى إستنفذ ذلك الجمال الذى أنى عليه الاحتراف فلم يترك منه شيئا . وإنما تمثال لا يميزه غير ذلك الشعر الطويل المرسل والجورب الأنيق الشفاف والشفاه المخضبه والحركة الضئيلة الهزيلة التى تدل على آثار من الحياة ضئيلة هزيلة .

وماذا أعمل فى عزيزتى وماذا أعمل فى شيطانى وماذا أعمل فى ذلك الجسد الذى يحملنى مالا أطيق ويسير بى على غير ما أريد ، ويريدنى على ما أكره ، إلى أن صار بى إلى ذلك المصير المؤلم وأى مصير أشد ألما من أن تقود المرء غرائزه كالبعير فى يد الطفل الصغير ، كنت أخرج من حان إلى حان — حان ينطلق منها الضجيج والعجيج — ويرى غيرى أن الحان لا تكون حان بغير الضجيج والعجيج ، حتى رأيت أخيرا عشا هادئا جميلا وفتاة فى مثل جمال الأسطورة وجلس ثلاثتنا — وثالثنا هو ذلك الغلام المراكشى الذى تطوع لإرشادى فى هذه الأزقة الطويلة الملتوية .

أليس يعجبنى الهدوء . أو ليس يعجبنى أن أكون بعيدا عن أنظار الناس وأصواتهم ، أو لست أسمع الموسيقى كأصفى ما يكون بعيدا عن الضجيج والعجيج وقرقعة الزجاجات ورنين الكؤوس . ما أروع هذا النغم الذى يعلو حتى يقرع الأذن ويخفت حتى يتأى

ويرقص بين ذلك — يدخل بنا دخولا عنيفا قويا حتى يهيئنا للذة عنيفة قوية ، ثم يخفت حتى يصبح كالصدى أو رجع الصدى .

وهذا الصدى هو جمال ذلك اللحن الإسبانى كما أن الظلال هى جمال الصورة الزيتية الملونة ، ذلك الصدى الرقيق الذى يثيرنى ببطئه وخفوته أكثر مما يثيرنى بعنفه وقوته ، وهل أطمع فى أكثر من ذلك وقد اجتمع لى ثلاث الحسناء والشراب والنغم وإن كنت مفرق النفس بين هؤلاء الثلاث ، أما النغم فقد أرادت أن يكون مصريا بعد أن علمت أننى مصرى ، ثم كان ذلك يجذبنى بشىء من العنف يحملنى من حان فى الهافر إلى مكان بعينه وغرفة بعينها فى مصر . يدفعنى إلى التفكير ويصرفنى عما أنا فيه ليرسم صورة واحدة هى الدار — وسؤال واحدا — كيف حال أهل الدار — والشراب البارد الذى يلسع الحلق لسعاً بارداً — ويقبض الإمعاء قبضا رفيقا ويثير بين ذلك ما يثير من النشوة الهادئة القلقة التى لم تخلص لأن تكون هدوءا كلها أو قلقا كلها وإنما يمتزج الهدوء والقلق إمتزاجا وإن لم يتعاورا صفحة وجهى فقد تعاورا عيناى رغما منى .

والحسناء هى موضوع ذلك الصراع القصير الأمد بين عقلى وغريزتى ، وبين شيطانى وما فى أعماق نفسى من عاطفة ووجدان وسرعان ما تنتهى هذه الحرب القصيرة وتجتمع لى نفسى المفرقة

أو نفوسى الثلاث حتى تصبح نفسا واحدة تريد أن تفنى فى لذة واحدة مع جانيت . ولكن جانيت لا تريد أن تصل بى إلى النهاية من غير تشويق وتزويق — تريد أن تجعلنى كصياد الظباء الذى يلقى من صيد الجهد والمشقة والعناء . وقد كنت فى ألمانيا صائدا أضاع وقته فى مداعبه الصيد والعبث به والعطف عليه حتى إذا وصل إلى صيده عافته نفسه والتوت عليه، فأطلقه ليعود إلى العبث به والعطف عليه ! وليكن فى فرنسا عكس ذلك فهو يريد أن يفرغ من ذلك العناء — ليعود بعد ذلك حزينا أسفا على ما أنفق من وقت وجهد وعناء .

لقد تحدثت عن نفسى وأطلت الحديث ولأعود إلى فرنسا وما يعجبنى وما لا يعجبنى فيها . وليس فى فرنسا عطف كبير على المصريين وإنما هناك إزورار كبير عن المصريين يزيد كثيرا عن نظيره فى بلاد الإنجليز . ولعل ألمانيا وأسبانيا هما الدولتين الوحيدتين فى أوربا اللتين نلمس فيهما الود الصادق الذى يحمله الصديق للصديق .

وتعجبنى فى فرنسا المرأة الريفية ولعلى لو رأيت الريفية الإيطالية أو الريفية الألمانية لأعجبتنى كذلك . وأنا بذلك معجب بالريفية أيا كان بلدها . وإعجابى بالريفية لا يحد — إعجابى بهذه البساطة التى تميزها فى كل ألوان حياتها فى دلها وسمتها وحديثها . فكأنها تمثل هذه

الطبيعة البسيطة الحلوة التى ترعرعت فيها أصدق تمثيل .

وما لا يعجبنى فى فرنسا فهو هذه المواكب البائسة من الجزائريين والمراكشيين وقد عبث بهم الفقر عبثا شديداً ، وعبثوا هم بفرنسا عبثا شديدا كذلك ، فقد احضرهم الفرنسيون ليعملوا فى البناء والتعمير فى المدن الفرنسية المخربة وما أكثر المساحات الشاسعه التى مسحت مسحا ونسفت نسفاً حتى لتبدوا مساحات بيضاء فى خرائطهم الإقليمية .

أحضر الفرنسيون هؤلاء — وربما حضر الكثيرون من تلقاء أنفسهم سعيا وراء الرزق من بلادهم التى استنزفها الإستعمار ، ثم لم يجد هؤلاء وأولئك إنشاءا ولا تعميرا وأضيفوا إلى الفرنسين العاطلين حتى أصبح فى مدينة الهافر وحدها ١٠ آلاف من هؤلاء العمال العاطلين انصرف بعضهم إلى الجريمة يقطعون الطريق ويثيرون الرعب فى قلوب الفرنسيين — لقد نسيتهم فرنسا وأهملتهم إهمالا ، ونبذتهم المجتمع المتكلف يتقحمهم فى ضوء النهار بالشماتة والسخرية حتى إذا أقبل الليل تحولت النظرات التى كانت تشمت وتهزأ إلى نظرات تخاف وتشفق — يتطاولون عليهم بنظرات وقحة كالسياط إذا كان النهار — حتى إذا أقبل الليل إنحسرت هذه النظرات . وتجنبت أن تقع على هؤلاء المردة بعد أن كانوا بالنهار صعاليك

وهؤلاء الصعاليك بالنهار المردة بالليل هم الجزائريون والمراكشيون الذين ثارت حفيظتهم على فرنسا كما لم تثر أى حفيظة قط — ولو طالت أيديهم الأسلحة المنظمة وسيطرت عليهم إدارة منظمة لأمكن أن نجد فى بلادهم التى أوجدتها نيبال والتى زحف منها الأبطال المسلمون يفتحون أسبانيا وجنوب فرنسا . لو طالت أيدى هؤلاء طرفا من السلاح المنظم الذى تعرفه أوربا بدلا من المدى لأمكن أن ترعب فى فرنسا حكومتها وجيشها، لا شعبها وبوليسها كما ترعب من الثوار فى الهند الصينية. وإن يوما لآت — يتقلص فيه ظل الإستعمار البغيض عن قارتنا المعذبة كما هو آخذ فى التقلص تحت ثقل الضربات التى تنهال عليه من الآسيويين.

إننا نعجب ونرثى لهؤلاء الغرباء فى محاولتهم الفاشلة للازعاج فى فرنسا — ولسنا نعجب بكل الجزائريين المقيمين فى بلادهم — وقد كنا نرى فيلما سينمائيا يعرض علينا صورا من عاصمة الجزائر صورا لموكب كالقطيع أو لقطيع كالموكب — فى حلقة من حلقات الذكر يسيرون بين صفين من الفرنسيين الرسميين ، يحتفون بهم أو يحتفون بشىء لست أدريه يهزون الرؤس مترنحين تحت عمائمهم الثقيلة متخددة وجوههم السود التى زادها الذل سوادا. والذل الذى يسعون إليه بدلا من أن يسعى إليهم كنا ننظر إلى هؤلاء الآدميين

وقد أخذتهم الجلالة — وأى جلالة فى أن لا يعبد الله فى الطريق وأن لا يعبد بغير هذا الضجيج والعجيج كنا ننظر ونستخذى — ننظر إلى الرواد.. الذين يحيطون بهذا ذلك الجمهور السارق وإن عظم حظه من العلم والمعرفة — ثم ننظر إلى ذلك الجمهور المسروق وليس له مثل ذلك الحظ من العلم والمعرفة. وليس كلهم ثائرين حاقدين بل إن معظمهم خانعين راضين وفى هذا فقط مايكفى لتحطيمهم بالإضافة إلى مامم فيه من جهل وتأخير والخطوة الطبيعيه. أن يقفز الممتازون من هؤلاء الناس ببلادهم فى ظل عدة أعوام من السلم يهيئون أنفسهم لليوم الذى يحاربون فيه حربا ضروس متكافئة النواحى مأمونه العاقبة. فى هذه الأعوام ينهضون على أكتافهم معتمدين على أموالهم وليس على أموال الإحتلال ، وعلى أنفسهم وليس على سلطات الإحتلال ، ناهضين بالتربية والتعليم والصحة ومستوى الحياة ، حتى إذا وصلوا إلى القمة فى ذلك كان الاستعمار كالدمل الذى يطرده الجسد السليم أو المرض الذى ليس له سبيل إلا على الأجساد الشاحبة الهزيلة .

وهم إن وصلوا إلى بعض من ذلك التقدم هيأهم ذلك للعراك والنضال والصمود، أطول وقت ممكن للعراك والنضال، بدلا من أن يحاربوا بعواطفهم إذا صح هذا التعبير ، ولست أعرف حربا

أشد خبالا من حرب تقودها العاطفة وما أسرع ما تخمد العاطفة ويصيبها الكلال ولخير منها حرب عاقلة مبصرة وليست العاطفة عاقلة مبصرة فى قليل أو كثير .

جلاسجو

كانت هذه أول مرة أشهد فيها مدينة أسكتلندية وقد ذهبت أبحث عن طرف فقير من أطراف المدينة حتى إذا عدت إلى هذه الأطراف الجميلة الرائعة التى نقصر عليها وقتنا دائما ونكتفى بها عنوانا للمدينة التى نريد الحديث عنها — حتى إذا رأيت هذه الأطراف الفقيرة وعدت إلى هذه الأطراف الفخمة الجميلة — أكون قد رأيت المدينة من جميع أطرافها ، سأجد فى أحياء الفقراء الذين لا تخلو منهم مدينة من المدن أو بلدا من البلاد ، سأجد فى هذه ، متاعا ولذة لا تقل عن المتاع واللذة فى هذه الأحياء المتأنقه . فالجمال الذى نبحث عنه ونعجب به موجود هنا كما هو موجود هناك ولعله فى هذه الأحياء الفقيرة أروع منه فى الأحياء التى يعظم حظها من التكليف والأناقة .

وفى سوق كبير تشبه سوق عكاظ ، أقيمت على بضع أعواد سطحت عليها قطع من الصفيح لتكون سقفا وبين كل عمود وآخر أقيم دكانا . ومن إحدى هذه الدكاكين تنطلق موسيقى ضخمة قوية

ترتج منها الدكاكين والأعواد . وبين الممرات الضيقة المزدحمة — النساء والعذارى يشترون الهدايا الرخيصة والمتاع الرخيص . فى ذلك الزحام الكثيف حتى أن الوجوه لتكاد أن تلتصق مادامت الأجساد تلتصق — فى ذلك لزحام الكثيف نرى الوجـــوه أو الشموس المشرقة التى لن نستطيع أن نراها بمثل هـذا القرب فى مكان آخر . وكأن كل حسناء تحمل فى وجهها شمساً صافية الأديم وأنا بين هذه الشموس التى تأخذنى من كل جانب وتشرق من كل ناحية وتبتسم فى كل مكان . وكأنى بالحسناء عندما تبتسم وتنفرج شفتاها القرمزيتين عن ثناياها الناصعة البيض ولا يتخدد وجهها من هذا الابتسام بل تسيل عليه من نفسها المرحة الطروب رقة وحنانا، وترينا عيناها — والعين نافذة كما يقولون — ترينا عيناها لونا من هذه الألوان العديدة التى تحفظها الحسناء فى نفسها كما يحفظ البخيل كنزه . كأنى بالحسناء عندما تبتسم وتكشف عيناهـا عن هذه الكنوز ، كالشمس عند ما تفجأ بإشراقها الدرة الثمينة الغاليـــة الركن المعتم المظلم .

وليس يعينى أن أرى التجار ومايتجرون فيه أو هؤلاء السود الذين يبيعون العطور فى صخب وضجيج، والبيض الذين لا يقلون عنهم صخبا وضجيجا مرغبين فيما لديهم من سقط المتاع . ليس يعينى

شيئا من هؤلاء وإنما تعيني السوق التي أقيمت للجمال ، الجمال الذي لانستطيع أن نشترى منه شيئا غير الاعجاب والرضا إذا صح أن يباع ويشترى الاعجاب والرضا . وما يدريني إذا كان غيري من المقيمين يبحث كما أبحث ، لاعن متاع يشترى ولكن عن الجمال الفذ الذي لايباع ولايشترى . وسأختم هذه الجولة القصيرة في حي فقير ولكنه غني بما فيه من جمال وذوق ، سأختم هذه الجولة لألج متحفا من المتاحف ثم آخذ في حديثي عن الفن والتاريخ .

وليس الفن الانجليزي شيئا نقيسه بالفن الايطالي أو الإسباني، ولم يعجبني في هذه المتحف غير لوحة واحدة . أما غير ذلك فهي من رسم المدرسة الايطالية أو الفرنسية ، وقد خصص لكل منها طابق كبير . وقد إختار الرسام الانجليزي موضوعا فريدا وهو الشعر والحب والجمال ، وفيه تخيل الجمال صبية عارية تجري وقد إنكسر القوس في يدها فأصبح لا يغني عن شيء ولايدفع مكروه؛ والشعر صياد يجد وراءها وقد أصماه سهم لايدري من أين، أمن ذلك القوس المحطم أم من ذلك القضاء الذي نخيله طفلا يسبح في السماء بجناحين وفي يده وتر مشدود وخلف ظهره جعبه من السهام . وعلى الأرض الخضراء عجوز شيخ أمال جذعه على قيثارته فهو يرسل إلى الأرض العزاء كما ترسل السماء القضاء . والشاعر الصياد

أوالصياد الشاعر بين العزاء والقضاء يجد فى غير هوادة ولا رفق .

أما المدرسة الإيطالية فقد إختارت مصرع كليوباتره وكليوباتره حسناء عارية تقبضت إحدى يديها على صدرها وبسطت الأخرى فى الهواء كأنها تداعبه ، ولسان الحية الذرى قد إختارت من الجسد أجمله لترسله إلى الموت .

والتف ذيلها الدقيق المرقش كما يلتف السوار على المعصم . وفاتنه التاريخ عارية أو شبه عارية بين وشاحها الأزرق وستائرها القرمزية وجسدها الملتهب المضىء بالدماء الفوارة . وأختارت المدرسة الفرنسية قصة طرد دم آمن الجنة وإن لم تكن رائعة التفاصيل

وأجمل ما فى ذلك المتحف — متحف للتاريخ الطبيعى — فخلف الزجاج مسرحا من مسارح الطبيعة الصامتة بسهولها وجبالها وأنهارها والغزلان والوعول ترعى الأرض المعشبة ، وتخطف النظر إلى السماء وتتأهب للصراع والنضال بين ذلك ، والأرانب الجبلية فى وثباتها الأخيرة إلى جحورها مروعة مفزعة ، ولا عجب فى ذلك ففى السماء عقاب قد ملكة الجو وتقبضت مخالبها على أرنب ذليلة مسكينة .

ومثل ذلك عن الوحوش فى مساوحها والطيور فى وكناتها ، والقنابر بين فراخها وبيضها وحولها الأعشاب والصخور أو الأعشاب التى تنبت بين الصخور ، ووحوش البحر على شطآنها وخلجانها ، كل

يروى قصة حياته الذاهبة وكأنها لم تذهب بعد . وكل هذه الحيوان والطير محنطة وكأنما أدركها الموت وهى تؤدى ما تؤدى من أدوار طبيعية .

وكم كان ألمى شديداً أن أرى بجانب ذلك المومياات المصرية المسروقة لقدماء المصريين وكان أولى أن تحفظ فى أوطانها. فمن حق الأجداد أن تحفظ جثثهم التى استطاعت أن تقاوم البلى آلاف السنين ولكنها لم تستطع أن تقاوم السرقة . هذه هى حضارة الأجداد التى تصرم حبلها وتلاشت بعدان وصلت إلى قمتها . فطمرتها العصور كما طمرت الرياح السافيات آثارهم فى الرمال . وعاد الأحفاد بعد ذلك يبدأون من جديد وليس تحت الشمس جديد وما أعجب المتحف الذى يحفظ لنا كل ذلك فهو مدرسة للتاريخ بكل فروعه وفنونه وهو فى رأيى كالمسرح ، وإن كان المسرح مدرسة للحياة الحاضرة فكلاهما مدرسة لا بد منها ولا يستغنى عنها أحد ! فحضارة الأمس ممثله فى المتحف أصدق تمثيل وحضارة اليوم ليس غير المسرح يستطيع تمثيلها .

وقد انفقت فى مسرح جلاسجو ساعة جميلة مع الممثلين الكبيرين لوريل وهاردى .

وما كنت أظن أن أراهم رأى العين على خشبة المسرح وقد فتنت بهم أو فتنت بأطيافهم من قبل على الشاشة .

فهذين الفيلسوفين يمثلان صورة واحدة أوفلسفة واحدة يكاد أحدهما أن يكمل الآخر لايناقضه فى شىء، ورأيهما أن يعبثا بالقدر كما يعبث بهما القدر . فهم يمثلون الرضا بالواقع والتسليم بما كان لا يتكلفون يقظة أو إحتراسا ولو أحاط مايسوء ، كالغريق الذى يسلم نفسه للموج وكأنما كان يعنيهم بن زيدون وهو يقول .

ولقد ينجيك إغفال . . ويرديك إحتراس وفى هذا المسرح رأيت الاسكندريين كيف يلهون ، وكيف يخرجون من جد الحياة إلى المرح الذى لا بد منه . وكان أحدهم فى ملابس الفرسان يروض الحصان ليهز رأسه أمام الجمهور تحيية وأمام صاحبه متسائلا مستفهما كأنه يسأله — ما رأيك — . فهو يعرض عن صاحبه إعراض الصديق إذا ساءه الصديق بشىء ، ويتودد إليه ويهدى القبلات — ويكاد يثب فى السماء فرحا مرحا حتى ليخيل إلينا أنه سيفتك بصاحبه فى وثبة من الوثبات — إذا سره صاحبه بشىء . وكنت أذكر قول عنتره :

فازور من وقع القنا بلبانه

وشكا إلى بعبرة وتحمحم

لو كان يدرى ما المحاورة إشتكى . . ولكان لو علم الكلام مكلمى

ولكن حصان اليوم غير حصان عنتره فهو يدرى ما المحاورة

ويعرف كيف يشكو ويألم ويسر ، ويعبر كاحسن ما يكون التعبير عن الشكوى والألم والسرور . ثم يقبل فتى فى ملابس العشاق فهو فارس من فرسان الليل يروق أحلام العذارى ليس معه قوس وإنما يصحبه كلب أنيق رشيق — أو ليس صاحبه أنيق رشيق — ثم فتاة كأنها حوريه هبطت من السماء فى ثوت أبيض وما أجمل البيضاء فى الثوب الأبيض وفى صحبتها كلبة أنيقه ، حتى إذا خاصر الفتى طيبته الأنيقه الرشيقة ، إرتفع الكلب على خلفيتيه وخاصر رفيقته كذلك الأنيقة الرشيقة .

وتقدم فنان آخر يصور بفمه وحنجرته كيف تسير العربة فى طريق السفر ، يقلد بصفيره كيف تصطفق الأبواب وترتفع كلمات السائق التى يتبادلها مع أصوات الركاب الناعمة والغليظة والممتلئة ، والتى ليس لها حظ إمتلاء .

أصوات الشبان والشابات والعجائز . والأطفال عندما يتبادلون الحديث بينهم وبين السائق من جهة وبينهم وبين أنفسهم من جهة أخرى يقطع ذلك هزيم العربة — ضعيفا متقطعا — ثم طويلا مستمرا لا ينقطع إلا ليسترد أنفاسه حتى تقف العربة مرة أخرى وتصطفق الأبواب من جديد . كل ذلك بفمه حتى يخيل إلينا أن عربة تسير — أو عربة تسير بنا ، ثم يفعل مثل ذلك مع القطار

فى سفره الطويل الشاق، حتى يتسلط علينا ذلك الشعور الذى يشعره كل منا عندما يستقل قطار ، ويبذل من الجهد مايبذل ليبدأ السفر.

ثم ينتقل إلى خطرات الحصان الأنيقه المتتابعة حتى يرسم إلينا بحنجرته — هذه الصورة الجميلة فى الريف والمدينة ، هذه الصورة التى يجهد الكاتب نفسه ليحدثها بالكلمات ولا يبلغ مثل ما يبلغ هذا الفنان بالحنجرة والصوت . هذه جلاسجو عندما تجد — وعندما تهزل ، وأشهد أنها أعجبتنى فى الجد والهزل ؛ وليس هناك وجه للمقارنة بين جلاسجو وليفربول فالفرق بعيد واضح بين الشمال والجنوب . فإذا كنا نعجب بالشمال دائما فى أى بلد من البلاد، فتعجبنا تريستا فى شمال إيطاليا عن جنوبها وتروقنا روان والهافر فى شمال فرنسا عن مرسيليا فى جنوبها، إذا كنا نعجب بالشمال دائما فى أى بلد وبأهل الشمال ليس فى الحضارة والمدنية فقط بل فى الطباع والأخلاق كذلك ، إذا كنا نعجب بالشمال فإن اسكتلنده هى هذا الشمال فى بلاد الانجليز وجلاسجو هى المدينة الحادثة الحالمة التى أريد أن أقصر عليها الحديث . فأنا لم أر عربة الترام كما رأيتها فى جلاسجو صالون مذهب السقف موشى كما تذهب السقوف وتوشى فى دور السينما والمتاحف ، والمقاعد الوثيرة كهذه التى تعد لاستقبال الزوار فى بيوت المترفين من الناس ، والثريات التى حجبت ولم يحجب ضوءها ، فكان النهار لم يرتحل أو كأنهم يشفقون على أبصار الناس

ليس من الضوء ولكن من مصدره ، فهم يقدمون الحضارة أو على الأصح يحاولون تقديمها مصفاه ، خالية من المشقة كالكأس خالية من الشوائب .

ولكن الحياة لا تخلو من المشقة فى مدينة مهما كانت حضارتها ولن تخلو مما يخزى كذلك — فى مدينة مهما كانت مثاليتها .

ولعل من صور هذه المشقة الصفوف الطويلة من المنتظرين على أبواب السينما ، وهى نفسها التى تقف على أبواب الحانات فى ليفربول

هذه الصفوف التى تزدوج مرة أو مرتين وتمر على جدران الدار الخارجية — حتى يسير المارة فى الطريق بين هذه الصفوف من المنتظرين . وأغلب الظن أن هؤلاء المنتظرين سيرون على الشاشة قصة حياة سهلة ناعمة أطلقها خيال مؤلف هادىء ناعم ، لن تعرض مهما كانت صراحتها لهذه المخزيات وما أكثرها التى يتعرض لها النظارة أنفسهم فى غالب الأحيان . وقد لا يجد غيرى غضاضة أو خزيا فى أن يقف على باب سينما أو حانة أما أنا فأجد غضاضة كبيرة وأجد خزيا كبيراً كذلك ، فإذا كنت أريد أن أختلس اللذة إختلاسا — ليس خوفا من إنسان — وإنما لأشارك البعض الذين يرون أنه لن تصبح اللذة لذة بغير اعلانها .

إذا كنت أريد أن أختلس اللذة لا يرانى أحد ولا يشعر بى إنسان ، فأولى بى أن أخطف الطريق إليها خطفا . فليس الناس فى

الطريق هازلين ، بل منهم الجاد والهازل ، والفرح والحزين ، أما فى الحان فلا أستحى أن يرانى الناس داخلها — وليس على بابها فهى كالحمام لا يعنينى أن أكون عاريا ما دام كل رواده عراه .

وسأنتقل من الحانه والسينما إلى دار من دور الإيرلنديين الذين يكادون أن يكونوا جماعة منفصلة ، تحيا حياة منفصلة فى كل بلد من بلاد الإنجليز ، فهم يأخذون فى هذه الحياة المشتركة وجه النهار حتى إذا أقبل الليل خلوا إلى أنفسهم فى أحد هذه النوادى الخاصة يرقصون ويتسامرون .

كنت أتأمل داخل كنيسة كاثوليكيه قديمة ، وكان المصلون فى صلاتهم ، وظى أن تكون خالية ، فلم أر بدا من أن أتمتم ببعض كلمات ، قد تكون قرآنا وقد تكون شيئا آخر ، ولم أر بدا من أن أغمس يدى فى هذا الماء المقدس الذى يمسه بأناملهم الداخلون والخارجون . لم يكن يعنينى أن أرى المصلين فى ركوعهم عند الدخول والخروج وتمتمتهم القصيرة المستمرة بين ذلك . وإنما كان يعنينى أن أقضى ساعة مع الرسوم والآثار ، وأنا أذكر قول أبى نواس :

عاج الشقى على رسم رسائله ٥ وعجت أسأل عن خمارة البلد

ولست شقيا عندما تعجبنى الأطلال والرسوم لأجد فيها أخبار الحياة الماضية كما تعجبنى خمارة البلد هذه لأجد فيها صور الحياة

الحاضرة عارية كما أراد الله لها أن تكون ، فليس إعجابي مقصورا على إحداهما وإنما أنا معجب بكليهما ، أبدأ بأحدهما ثم أنثني إلى الأخرى ، حتى إذا أخذت من كلتيهما بطرف فأنا سعيد .

لقد بعدت كثيرا عن دار الإرلنديين وكنت أريد أن أقول أن صديقا إرلنديا دعاني لزيارة هذا النادي ، وسأضرب صفحا عن جمال الإرلنديات وظلافة وجوههم وجمال طبعهم ، وسأعرض عن جمال العازفة وقد ظللها العلم الإرلندي المثلث الألوان وكادت أن تحجبها صور ديفاليرا الذي يتعشقه الإرلنديون ، وسأضرب صفحا عن جمال هذه وتلك وسأتحدث عما أعجبني فيهم — وقد أعجبني منهم الكثير وأعجبتني هذه الرقصة الإرلندية الوطنية ويشترك فيها شابين وفتاتين أو أكثر من ذلك . يقفون صفوفا متقابلة ، يقابل كل فتاة فتى ، ثم تعزف الموسيقى وتشتبك هذه الصفوف ثم تفترق جماعات ، وبين الإفتراق والتجمع ترسم الأقدام الرشيقة مع أنغام الموسيقى دقات منسجمة متتابعة ، وقد وضعت كل عروس يدا في خاصرتها وأسلمت الأخرى لرفيقها يدور بها ثم يرسلها .

ليت شعري متى أرى في مصر رقصة وطنية يرقصها الشبان والفتيات كهذه الرقصة المهذبة — وأقول المهذبة لأني لم أر شابا يخاصر فتاة . وقد يزعج قولي هذا الشيوخ — ولكني أزعم أنهم لو رأوا مثل ما رأيت لأعجبوا كما أعجبت ليت شعري متى أرى

الفتى والفتاة فى مصر مشتركين فى المسجد وخارج المسجد كما أراهم هنا مشتركين فى الكنيسة وما فى خارج الكنيسة من هذه المجتمعات السليمة المهذبة. ولست أدعى أن كل هذه المجتمعات التى فى الخارج سليمة مهذبة، لا لست أريد أن أقول ذلك، بل أن ما فيها من المجتمعات المنحله ليزيد كثيرا عما فيها من المجتمعات السليمة المهذبة، ولكن إختلاط الفتى والفتاة شىء واقع يحدث حتما راضين أو كارهين، وما يحدث بينهما فى جماعة عامة أخف كثيرا مما يحدث بينهما منفردين.

ليفربول

ماذا أجـــد فى ليفربول غير الحانه وماذا أجد فى الحانه غير الرقيق، وليس الرقيق فى أوربا وانجلترا كذلك الرقيق الذى يروى عن عصر هارون الرشيد، وقد كان الرقيق فى عصر هارون الرشيد شاعرا أو مشاركا فى الشعر والنثر والأدب كما يقولون. وأنا لم أر الكوفة أو بغداد حتى الآن، وما أشد شوقى لأرى هـذه البلاد، وأرى ما فيها من الرقيق وغير الرقيق.

ولكن الرقيق الذى أراه الآن أكثر جهلا وأنجى غباءا مما يروى عن ذلك.

ويشهد الله أنى ضقت بهذا اللون من المرأة، أليس لأنى لا أجد

عندها الصداقة الجزلة السمحة الشريفة التى نجدها فى الفتاة المحصنة الشريفة فحسب — وكيف نجد صداقة شريفة أو لذة شريفة عند هؤلاء وفاقد الشىء لايعطيه — ليس ضيق لذلك فقط وإنما ضيق الشديد — لأنى ضحيتها وليست هى ضحيتى فى شىء، ولأنها جنت على ولست أنا الذى أجنى عليها — ولأنها تعبث بى ويخيل إلى أننى أعبث بها — وأنا أحمل لهن السخريه والإزدراء والبغض الشديد — ولكنى أتناهم لبضع لحظات — حتى لاتنغص على هذه اللحظات ما أريد من لذة، لأعود بعد ذلك مزدريا ساخرا مبغضا للرقيق وتجار الرقيق

ماذا أقول. الحق لا أرضى لنفسى أن أسخر من مصائب الآخرين ويحسن أن أرثى لهؤلاء الرقيق وأكتم، فى نفسى الألم الشديد لهذا المصير الذى تباع فيه المرأة وتشترى، وليكن ذلك الألم قويا ملحا لمن ترثى لنفسها فمنهن من تعيش حيوانه، ومنهن من تعيش بائسة، والفرق بين الحالين كبير. فالحيوانه لا تشعر بشىء ولا تحس بشىء فهى راضية دائما مغتبطة دائما، أما زميلتها الأخرى فهى إنسانة تشعر وتحس، ولولا شعورها وإحساسها لما كانت بائسة ولما أمكنها أن تشعر بما هى فيه من بؤس.

ويخطىء من يظن أن هذا الرقيق أجبرته الظروف على أن يكون رقيقا — وإذا حدث ذلك فإنه أقل من القليل، وإنما يحدث أن هذا الرقيق أراد أن يكون رقيقا، واتخذ ذلك غاية يسعى إليها

ويلح فيها — كالخادم ليست كل خادم أجبرتها الظروف على أن تكون خادما ، وإنما الكثرة أرادت أن تكون خدما ، واتخذوا ذلك غاية يسعون إليها ويظلون تحقيقها، حتى لقد يفخر أحد هؤلاء الخدم ، كيف استطاع أن يخدم كيدا وكذا مدعوا ، كما يفخر رجل الأعمال بما قام وبما يقوم به من جليل الأعمال .

وسواء أرادت أن تكون رقيقة أو أجبرتها الظروف على ذلك فإن هذه تروقنى ، ولا تستطيع إحداهما أن تخدعنى عن نفسها وماذا يعنيها تخدعنى وإنما هى على سجيتها سواء راقنى ذلك أم لم يرقنى.

ولكن تروقنى هذه الإنسانة التى تشعر ويضفى عليها ذلك الشعور شيئا من الجمال الهادىء الحزين .

وسواء كانت هذه أم تلك وأنا مع هؤلاء الرقيق أقضى هذا الطور من حياتى فى الخارج ولست أقول أننى لا أدرى فى أى طور أنا من الأطوار — ولكنى أدرى أننى فى هذا الطور وأن كنت لا أدرى هل ارتقيت بذلك أم إنحططت. إرتقيت فى أطوار الحب الحسى ما فى ذلك شك ، وانحططت عن مثلى الأعلى الذى كنت المسه وأحسه فى العذراء الطاهره الشريفة .

وأصبحت لا أرى إلا فى غرفتى بالسفينة عاكفا على الكتابة أو القراءة ، ثم خارج السفينة فى حانة من الحانات مع فتاة من هؤلاء أنفرد بعيداً عن أعين الناس أحسو هذه اللذة الآثمة حسوا هادئا رقيقا إذا صح هذا التعبير .

وفى هذه الحانة أو تلك أجد الموسيقى أو الضجيج والعجيج الذى يطلقون عليه هذا الإسم ، يقطعها رنين الكؤوس وقرع الزجاجات وزحير الأنفاس المحمومة التى يتبادلها الرواد ويدعونها الشراب ، أخف أنواع الشراب — إلى أن نعجب بهذه الضوضاء المؤتلفة من الرنين والزحير والقرقعة ، ثم نجد ذلك الضجيج قد أصبح موسيقى رائعة مبدعة ، تنعقد فوق رءوسنا كما تنعقد سحائب التدخين ونجد المرأة التى تدعونا إلى التخميش والتخميش — ثم يعجبنا هذا الظل بعد أن يخلع عليه الغناء كما تخلع هى على الغناء وكما يخلع الشراب عليها جميعا نجد ذلك الظل من المرأة جميلة ليس بعد جمالها جمال وظريفة ليس بعد ظرفها ظرف . ننظر إلى هذا الأفعوان الذى يناديمنا بعين نصف حالمة ، فإذا بها جميلة فاتنة تستهوى الحس والشعور والأعضاء .

ولست أدعى أن هذا الرقيق لا يوجد فى غير دور الإثم التى يبيحها القانون فى بعض البلاد ، ولكننى أدعى أن الرقيق خارج هذه الدور كما هو داخلها حتى كدت أن أقول أن نساء بعض هذه الدول يكدن أن يكن رقيقا .

ونحن نرتاد هذه الدور فى بعض الأحيان ونأنف عنها فى كثير من الأحيان ، إذ نحن واجدون خارجها نساء كثيرات يطلق عليهن القانون اسم الشريفات — ثم لا نجد فيهن شيئا من ذلك اللقب المزعوم

وقد يزعج هذا القول السادة الأوربيون والانجليز الذين

ينظرون إلينا من سماواتهم العالية التى لا يرقى إليها الطرف ومن ملكوتهم الذى لا يرقى إليه النقد واللوم .

هذه ليفربول وماذا أجد فى ليفربول غير الحانة وماذا أجد فى الحانة غير الرقيق — وماذا أجد فى هذه المرة أكثر مما وجدت فى المرة السابقة ، وعسى أن تكون المرة القادمة خير من هذه فقد اختيرت لى فتاة ، وظنى حسن بهذه الفتاة ، والتى اختارتها لى هى فتـــاة ويلز التى عرفتها فى رحلتى الماضية وقد أصبحت الآن فتاة لندن بعد أن انتقلت إليها ، ولكن لم توفقنى الظروف إلى زيارة لندن وكأنها أشفقت على أن أكون وحيداً فى ليفربول ، فأرسلت لى عنوان صديقتها وألحت على فى أن اتصل بها وأنفق وقتى معها . وكان ذلك — وإن كان لم يروقنى هذا الوجه الذى اختير لى وأى شىء يروق لو نظرنا إليه نظرة عابرة ؟ وقد يروقنى إذا اتصلت بينى وبينه الأسباب ، وقد أفتن به افتتانا إذا قويت هذه الأسباب وسأدع جيان فى بيت الممرضات إلى عود قريب وإقامة أكثر طولا .

جنوا

عادت الباخرة تلج البحر الأبيض المتوسط وأشهد أننى أشعر ببعض الحزن وقد أخطأتنى زيارة لندن وزيارة أدنبره عاصمة اسكتلندة التى لم يكن يفصلنى عنها فى جلاسجو غير ساعة زمنية واحدة أشهد أننى شعرت بالضيق — وبالضيق الشديد لأنى لم أوفق

لزيارة هاتين المدينتين وحالت بيني وبين ذلك سرعة الترحال وعسى أن يكون لهاتين المدينتين عدد آخر، وعسى أن يكون عدد قريب

ولأعود مع البـــاخرة وأجمع نفسي المفرقة في جلاسجو وليفربول، ولأجمع عواطفي المبددة بين فتيات هاتين المدينتين لأفني في هـذه الطبيعة السمحة اليسيرة، وقد ارتفعت المانومتر درجات فوق الصفر بعد أن كانت تنخفض عنه، وهب النسيم البارد محملا بالأخبـار والأسرار — لو كان يستطيع أن يحكي لحكى — لو كان يستطيع أن يروى لروى ما نحن مشـوقون إليـــه من الأخبار والأسرار.

هب النسيم البارد في همهمة يسـيرة لعلهـا لغة تحمل ما يسر ومايسوء ولا نجد لفهمها سبيلا. وبدأ الماء يسلس قياده وتلين قناته الصلبة ويبسط أديمه الممهد للسفن تخطر عليه في أمن وسلام ودعة وتفرق الغمام تتفا، وبرزت الشمس وقد كان عهدنا بها بعيدا لتلطف من ذلك النسيم البارد ولتذوب في هذا الأديم الصافي الممهـد — والتمعت السماء وابيض سطح الماء وصفا ما بينهما في حظ كبير من النصوع والإشراق، وانطلقت الطيور البيض جذله محبوره تشارك السماء والماء في الجذل والحبور.

ونحن الآن على شـاطىء جنوا القريب ولي صديقـة في جنوا أحاول نسيانها فلا أجد لذلك النسيان سبيلا، وآخذ نفسي بضروب

من الشدة والعنف لأقتلع ذكرها إقتلاعا وأمحو آثارها من نفسى محواً ، فأوفق لذلك مرة حتى يخيل إلى أننى نجحت فى كل ما أردت ثم لا يعرض ذكرها ، أو لا يعرض شاطئها — إذا مر شاطئها — حتى تتلهف نفسى وتتفرق منى بددا كما يتفرق العقد المنتظم وتتفرق حباته ولا نجد لجمعها سبيلا .

وهـــذه الصديقة هى دوتى سيلفانا ودوتى هو اسم والدها ، فالإيطالية الفتاة تقدم اسم أبيها دواما .

لهف نفسى على هـذه الأيام الحلوة على شـاطىء تريستا — وما كانت تحمل دن عاطفة شريفة عند ما كنت أحب حبا عذريا عفيفا يسر يوما ويسوء أياما — يضحكنى يوما ويبكينى فى أغلب الأيام . لن تعود هـذه الأيام وقد تطورت نفسى تطورا خبيثا ، وأصبحت أهوى كاشفات الصدور والحضور من الغوانى بعد أن كانت تفتننى العذارى . لهف نفسى على سيلفانا وقد دخل بينى وبينها العدو والصديق — وقد سمعت فيها قول العدو والصديق — وليس يدخل هذا ولا ذاك فى أمر إلا أفسده أو شمل إلا بدده .

لهف نفسى على الأيام التى مرت هل تعود . ليتنى كنت وإياها فى بلد ناء بعيد كهذه البلاد التى ليس لها شاطىء والتى لا تطل على بحر ما حيث أدع الباخرة بما فيها ومن فيها الأسوح بعيداً منفرداً ، ليتنى كنت وجدتها فى أحد هذه البلاد بعيداً عن العدو والصديق متجنبا المتاعب التى يثيرها العدو والصديق .

لهف نفسى على سيلفانا وعلى ذلك الحب ليس العنيف الذى يأخذ على كل سبيل وإنما هو ذلك الحب الهادىء الكامن الذى أحمله وكأنى لا أحمل شيئا — فهو منزوى فى ركن من الأركان يخدعنى عن نفسى فأصدق أنى نبذته نبذاً ، وألقيته إلقاءا ، وتخلصت منه إلى غير عود . ولكن يظهر لى من جديد عند فكره أو لفته أو لمحة عابرة ، فتنهار نفسى كلها أمام ذلك الحب العملاق وما كنت أظنه إلا قزما — تنهار نفسى كلها إذا تذكرتها وهى تلقى إلى جملة أو حديثا أو تهدى إلى ابتساما أو إعراضا ، فإذا أنا محب لم أستطع أن أخلص من ذلك الحب ولست أدرى أين قرأت أنه يندر أن يتفق شخص ما على شىء معين بغير أن يشعر بشىء من التردد والحيرة فيما يأخذ وفيما يدع من الأمور فكأنه يوافق ببعض نفسه ويرفض ببعض من نفسه أيضا . أو أن له نفوسا متعدده متداخلة وليست له نفسا واحدة خالصة ، فهو يبذل بعض الجهد أو الكثير من الجهد ليجمع بين نفوسه المتداخلة ويوفق بينها توفيقا مقاربا ليوجهها الوجهة التى يريد .

إذا كان هذا صحيحا وأغلب الظن أنه صحيح فقد كنت أحب من عام مضى بنفسى كلها ، أو أن نفوسى المتعددة المتداخلة قد أجمعت على أن تفتن بها وتدور حولها تطلبها وتلح فى طلبها — تجد النعيم فى قربها والعذاب الذى ليس بعده عذاب فى البعد عنها .

كأن نفوسى هذه المتعددة قد ائتلفت على حبها حتى إذا أصابت من ذلك الحب بعض النجاح ولقيت من الذى تحب بعض التجاوب أخذ يستبد بها القلق الضئيل القليل عندما يصيبها فى الحب بعض ما تكره فتتلمس لها المعاذير وتخلق لها التعللات والأسباب ، وكأن نفسى تريد أن تحوط هذا الحب من التلف وتحميه من الفناء وتشفق على مصيره إذا كان مصيره الفناء .

لقد اخترت أن أحب هذه الفتاة ولا أقول أن الظروف هى التى اختارت لى ذلك ، لقد إخترتها فى يوم ما — إخترتها عامدا من بين فتيات كثيرات ، وكنت أشفق على نفسى ألا أكون موفقا فى هذا الاختيار .

واليوم بعد عام كامل من مولد ذلك الحب الذى لم يمت بعد — أرى أننى لم أوفق فى الاختيار وأجد هذه النفوس قد تفرقت بعد تجمع واختلفت بعد إئتلاف فكأنى أريدها بشق نفسى وأرفضها بشق آخر — أذكرها ببعض من نفسى وأحاول نسيانها بالبعض الآخر ومعنى ذلك أننى أحبها وأبغضها — أريدها وأنفر منها — أرثى لها وأحقد عليها ، أود أن أعنفها أعنف اللوم وأود أن أخلق لها الأعذار والتعللات واصفح عنها الصفح الجميل . إننى أشعر الآن بكل المشاعر المتناقضة المؤتلفة برغم ما فيها من تناقض حتى ليخيل إلى أننى لو رأيتها أو لو قسمت لى رؤيتها لما دريت بأى نفس

ألقاها من بين هذه النفوس، وليس غريبا أن تجتمع هذه النفوس مرة ثانية أمامها كما إجتمعت فى المرة الأولى لتأتلف على حبها نفسا واحدة تريدها وقلبها واحدا يهفو إليها ، وتنزاق على نفسى كما تنزاق على نفس كل عاشق المسامات الكثيرة التى تتركها النفس الشقيقة للفتاة التى يحبها ، ويهفو القلب العاشق للقلب الآخر الذى يحبه ويريده حيث يرقى إلى النقاء والطهر والكمال .

وما أشوق قلبى الماجن فى بعض الأحيان البائس فى كثير من الأحيان — المعنى دائما — ما أشوق هذا القلب إلى النقاء والطهر والكمال. ويح نفسى فكأنى لم تستطع حياة العابثين التى أحياها أن تنسينى ذلك الحب أو ذلك القيد الذى يجعلنى بمنزلة الأسير — أو ليس ذلك الجسد أيضا يجعلنى بمنزلة الأسير — أو لست بين أسرين ، قلب أسير وجسد أسير . قلب فى السماء وجسد يرسف فى الأرض وقوة تريد أن تمزقنى بين هذين الطرفين . ولم أخلص بعد لكى أكون تحت سلطان واحد وأسر واحد ، أنسى أحدهما بالآخر ، أو على الأصح أستعين بأحدهما على نسيان الآخر وأشفق فى الحالين جميعا .

يحملنى قلبى الأسير إلى الماضى لأعيش فى ضاحية من ضواحى تريستا على الشاطىء الصخرى الذى يدمى أقدام الحسان والسفح المعشب النضير — والقرية المرحة الساهرة والحبيبة الفاتنة الشقراء أعيش مع كل ذلك راغبا فيه ضائقا به مشفقا على نفسى منه حتى

يحملنى ذلك الجسد الأسير إلى حياة تأبى إلا أن يكون لهوا وعبثا ومجونا — أعيش راغبا عنها وراغبا فيها ، وهكذا أنتقل من أسر إلى أسر ومن سجن إلى سجن لن يخلصـــنى منهما إلا الموت، لهف نفسى على سيلفانا لو أراها مرة واحدة وأضمها إلى صدرى ضمة واحدة — أقبل صليبها الذى تحمله بين نهديها وكأنى بذلك أقبل ما يحويه رأسها الصغير الجميل من عقيدة وتفكير ، كما أقبل ما تحمله على رأسها ذلك من الشعر الذهبى القصير . — أريد أن ألصق خدى بخدها وأستنشق عبير أنفاسها وأسمع نبرات صوتها الحلوه التى كدت أنساها وعهدى بها بعيد .

أين هـــذه الأيام التى كنت أمنع نفسى عنها ، أجازيها صدا بصد ، وهجر بهجر ، وجفاءا بجفاء ، وأحبس فى نفسى الشوق والدموع لأظهر أمامها جلدا حازما مكلفا نفسى مالا أطيق ، مانعا نفسى عمن أحب. أين منى هذه الأيام — لو عادت — لعدت راغبا مستعطفا أقدم القربان من الشوق والدموع الذى كنت أحبسهما وما أعجزنى الآن عن حبسهما .

أن منى هـذه الأجفان الناعسة المريضة لو أمرر عليها فمى — أين منى هذه الثنايا البيض التى تحكى برد الشتاء فى تريستا . هـذه الأجفان والثنايا التى منعت نفسى عن تقبيلهما تأدبا وتعففا عندما كانت تلقانى ومعها والدتها وشقيقتها، أو تجلدا وامتناعا وقهرا للنفس

عندما كانت تلقانى منفردة أو عندما كانت تتيح لنا بنت شقيقتها الصغيرة فرصة الإنفراد .

الحق أقول أننى كنت أصلى وأقرأ القرآن فى ذلك الوقت ، وأن حبها هو الذى جعلنى أصلى وأقرأ القرآن ، والحق أقول أن ما منعنى عن تقبيلها هى الصلاة وقراءة القرآن .

وما أجمل قول الشاعر العاشق وهو يقول :

سألت الفتى المكى هل فى تعانق • وضمه مشتاق الفؤاد جناح
فقال معاذ الله أن يذهب التقى • تلاصق أكباد بهن جراح

لهف نفس على هذه الأجفان والثنايا ، ولا أعرف أننى ندمت فى حياتى قط كما ندمت على عدم تقبيلهما .

ما أشد غباوة الإنسان عندما يدع للعقل بمنطقه الصارم الجاد أن يكدر عليه صفو دقائق مبتسمة تريدها عاطفته المبتسمة ، وليست عاطفته مبتسمة فى جميع الأحيان .

والآن وقد أقبلت جنوا تسعى إلينا إذا صح أنها تسعى إلينا ولم نتكلف لها السفر الطويل الشاق مدة ثمانية أيام ، من شاطىء إلى شاطىء وما بين الشاطئين من إختلاف الأجواء وجميع ألوان الحياة

أقبلت جنوا تسعى إلينا من خلف الضباب وقد ربض السحاب فوقها لايريم وابتلع قممها وأطرافها المفرقة أو كاد ، ولعل فى قمة من هذه القمم ترقد هذه القرية الهادئة روتا التى رأيتها مرة

واحدة فانطبعت لها فى ذهنى صورة جميلة كصورة صاحبتها الجميلة لاتريد أن تزول .

ولكنى سآخذ نفسى بالقسوة والحزم وأجبرها على أن تنسى ماليس إلى نسيانه بد ، وسأترك التفكير فى فتاة رونا الآن كما تركت التفكير فى فتيات جلاسجو وليفربول من قبل . وحسبى أن أنفق مايتاح لى من وقت فى أحياء جنوا الأثرية الضيقة التى تعين على النسيان

الغفران

أقبل المساء وأعقبه الليل فى هجوم بطىء ملح وبرز القمر هلالا كالملاك الكريم أحاطت به كوكبة من الجند

يرسل السحر إلى الماء أشكالا وألوانا — فحولناهالة من النور المذاب تسير مع الباخرة لا نستطيع لها فراقا ، وأمامنا أمواه يحكى سوادها سواد الليل . وخلفنا مثل الذى أمامنا وبين الذى أمامنا وخلفنا هذه النتف من الحباب الذى يطفو على سطح الماء . وفوقنا السماء كالماء الذى نسير فيه فهذه الكواكب الملألة كهذه الثريات المرتعشة على هذه الأطواف العائمة التى ترسم الطريق ، وهذه النتف من السحاب البيض كهذه النتف من الحباب . والباخرة تدلف بين النجوم التى فى الماء والنجوم التى فى السماء يحف بها ذلك الطنين عندما تضرب الماء والهواء مقتربة من شواطئنا المصرية الجميلة التى طال إليها حنيننا وشوقنا .

ولا يستطيع مقيم أن يشعر بذلك الشوق والحنين كما يشعر به

النازح الغريب ـ لا يستطيع المقيمون أن يشعروا كما نشعر بالشوق والحنين ليس إلى الأصدقاء والأهل فحسب بل إن شوقنا الشديد إلى معالم الدور والأرض والطريق .

ولكن وجهتنا لم تكن الإسكندرية وإنما كانت بور سعيد وأنا لم أرى بور سعيد قبل الآن . فلتكن مدينة غريبة على كأى مدينة أراها فى الخارج وليكن حديثى عنها كحديثى عن إحدى هذه المدن

وبور سعيد مدينة تعيش فى الظلام وأعنى الظلام بمعناه اللفظى وذلك إذا قارناه بالضوء الذى يغمر الأحياء والأشياء فى بلدان الخارج ـ ذلك الضوء الذى يخلع على الأحياء والأشياء ألوانا والذى يكسبها جمالا ، فكأنه بحر نسبح فيه مع السابحين ، يغمرنا ويغمر كل ماحولنا غمرا ، ولم أرأ ـ صدق من تصوير ـ الضوء بالبحر الذى يجعلنا نرى الدقائق تبدو واضحة فى الطريق كما هى واضحة داخل الدور العامه التى نلم بها .

أما بور سعيد فهى مظلمة إلا من ضوء خافت ضئيل يؤذى الأبصار بخفوته وضآلته حتى يتعذر أن نتبين ملامح الناس فى الطريق على بعد خطوات . فكأننا نسير فى مدينة الأشباح ـ ونحن أحد هذه الأشباح ـ لا نتبين من الشخص غير كتلة متحركة مقبلة علينا أو مبتعدة عنا أما تفاصيل هذه الكتلة التى تتحرك زيها ولونها وسمتها فشىء ليس إليه سبيل . والمدينة بعد ذلك تنقسم إلى قسمين مختلفين

أحدهما للمصريين والآخر للأجانب وهكذا لم تخاص المدينة لأن يكون لها لون واحد وطابع واحد ، وليس يعجبنى هذا ولا ذاك حتى أن حى الأجانب ينقصه الكثير من الهدوء والنظام حتى يستطيع أن يقف مع ما يماثله فى الخارج .

لم يعجبنى هذا التقسيم الذى لا يغنى من الواقع شيئا ، فإن القسمين غير منفصلين إنفصالا تاما ، بل على العكس متداخلين تداخلا تاما فى أكثر من موضع برغم ما بينهما من تناقض .

وأهم ماحدث لى فى بور سعيد هو هذا الغفران الذى جعلته عنوانا للحديث . ولعل ذلك الغفران قصة من القصص أو أسطورة من الأساطير ؟. وهل بقى شىء لذلك القلب ، الأسود حتى تؤثر فيه قصة من القصص أو أسطورة من الأساطير ولكنه قد حدث ذلك ! وكانت قصة من قصص الوفاء — وليس وفاء المرأة للرجل أو الرجل للمرأة هو الذى يؤثر فى هذا التأثير — وقد يثير ذلك الاعجاب والرضا . الإعجاب لهذه المرأة الوفيه إن وجدت وقد نغبط صاحبها عليها ، والرضا عن هذه الحياة لو اتيح لنا أن نحيا حياة مثلها .

ليس ذلك الوفاء هو الذى يؤثر فينا التأثير العميق ، وإنما الذى يثير فينا الدموع الغزار حتى نشرق بها وتكاد تنشق صدورنا بما يحتبس فيها من بكاء . ذلك عندما نرى إنسانا يمنع نفسه عن أشياء لم نستطع أن نمنع أنفسنا عنها .

يهم بالإثم حتى لا يبق شك فى أنه سيأتى ذلك الإثم - ولكنه يرتد عنه - وهذه هى القصة التى أثارتنى إلى البكاء أو أثارت البكاء فى : لقد أنفق حياته خاطئا وغارقا إلى أذنيه فى هذه اللذات العنيفة البغيضة المنكر يلتمس إليها الوسائل والحيل ويبذل فى سبيلها المال والجهد، وفى إحدى ليالية الحمراء دفع القدر أمامه إمرأة محطمة لم يبذل فى سبيلها مالا ولا جهدا ، وما أيسر عليه أن يجعلها تشرب الخمر وهى لا تعرف أن الخمر ثم تغنى بعد ذلك وتصبح أمامه فريسة سائغة سهلة ويكاد يهم بهذه الفريسة السائغة السهلة — ولكنه يرتد — وليس ما يمنعه عزيمة صادقة قوية — وأشك فى هذه العزيمة الصادقة القوية — وليس ما يمنعه حبا عذريا عفيفا لفتاة عذراء عفيفه وليس ما يمنعه رحمة لهذه الضحية التى لا تعقل شيئا وذلك الضعف فى المرأة الذى يغرى ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه شيئا — ليس يمنعه كل ذلك وإنما يمنعه الإيمان الذى ينزل القلب فجاءه بعد أن كان عهده بذلك القلب بعد ذلك الايمان الذى يفجؤه عندما يرتفع صوت المؤذن يشهد أن لا إله إلا الله . ويرتفع بصره أثناء ذلك إلى الجسد الناهد كما يرتفع البصر إلى الجبل أو الطود .

ولكن بصره ذلك يقف على نحرها ويطيل الوقوف لا يريد حراكا ولا يقوى على حراك وقد كان نحرها يحمل كتابا كريما نقشت عليه إسم الله . عند ذلك يشعر بذلك الإيمان يغمر قلبه فجاءه -

عند ذلك يستشعر الرحمة لهذا الضعف الذى لا يستطيع أن يدفع عن نفسه شيئا ثم يستشعر الخوف من عدالة السماء والشوق إلى النقاء والطهر والكمال .

هذه هى القصة التى أثارتنى إلى البكاء — وذلك أننى مثلتها فى يوم ما مع اختلاف الزمان والمكان والظروف — فأنا لم أكن خادعا كما كان بطل هذه القصة ، ولم تلق بها الظروف أمامى على غير رغبة منها كما ألقت بها إليه . وإنما هى فتاة من فتيات الرقيق فى إحدى هذه البيوت الزجاجية فى مدينة هامبورج — ثم فاجأنى ذلك الذى فاجأه — صوتا من الوطن الحبيب يحمله الأثير فى لغة سهلة وإرسال جميل — وكان أحرى أن يؤثر فى تأثيرا عنيفا كما هو مؤثر الآن . ولكنه لم يبلغ من نفسى الجامدة شيئا ولم يصرفنى عما أنا فيه . أو أنه كاد أن يصرفنى عما أنا فيه ، حتى أسرعت أنا أصرفه عن نفسى وأقطع ما بينى وبينه من أسباب — وكان أن نجحت فى إسكات هذا الصوت وفشلت فى أن أقوم بمثل ما قام به هذا البطل من إعجاز فيم البكاء وعسى الله الذى كتب على نفسه الرحمة أن يغفر لى ؟

« تمت »

انتظر الجزء الثانى